ستيفن فيزينشيي

في مديح النساء الأكبر سناً

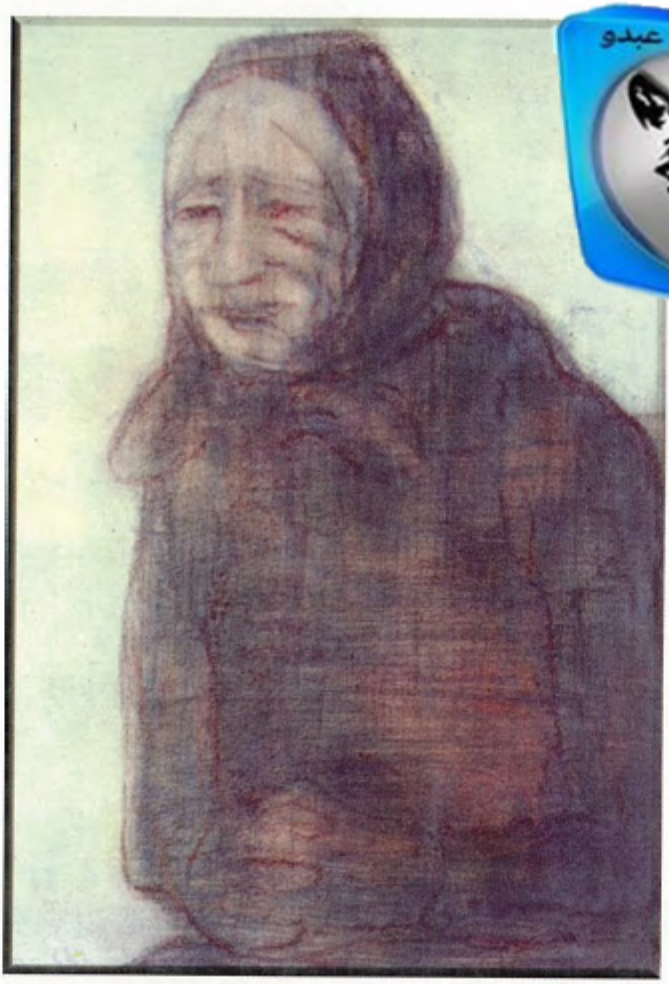

مدونة ابو عبدو

ترجمة : صلاح صلاح

المؤسسة الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

ستيفن فيزينشيي

في مديح النساء الأكبر سناً

ترجمة: صلاح صلاح

في مديح النساء الأكبر سناً

ستيفن فيزينشي

ترجمة: صلاح صلاح

مؤسسة الانتشار العربي

ص. ب. 113/5752 ر. ب. 1103 2070
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت – لبنان

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

المحتويات

في الإيمان والصداقة ٧
في الحرب والدعارة ١٥
في الكبرياء وسن الثالثة عشرة ٢٩
في الفتيات اليافعات ٣٩
في الشجاعة وطلب النصح ٥٣
في التحول إلى عشيق ٦٥
في كوني مشوشاً ووحيداً ٧٣
في كوني مزهواً ويائساً في الحب ٨١
في سر دون جوان ٩٣
في العيش بيسر ١٠٧
في العذارى ١٢٣
في خطيئة الكسل المميتة ١٣٧
في أمهات الأطفال الصغار ١٤٣
في القلق والتمرد ١٦٣
في السعادة مع امرأة باردة ١٨١

في النساء البالغات كمراهقات ٢٠٣
في أكثر مما يجب ٢١٩

في الإيمان والصداقة

كل شيء يأتينا من الآخرين ... أن توجد هو
أن تكون ملك شخص ما

جان بول سارتر

ولدت في عائلة كاثوليكية ورعة، وقضيت ردحاً طويلاً من أول عشر سنوات من عمري بين الرهبان الفرنسيسكان اللطاف. كان والدي مدير مدرسة كاثوليكية وعازف أورغن بارع، شاباً نشيطاً موهوباً ينضح بالطاقة وميالاً لحماية الديار والمشاركة في الحياة السياسية أيضاً. كان ذاك المحافظ المناصر لنظام الأميرال هورثي الاستبدادي الموالي للقسس، لكنه معارض للفاشية في الآن نفسه، ومتخوف من وصول هتلر للسلطة في ألمانيا. استخدم تأثيره وسلطته لمنع اجتماعات الفرع المحلي للحزب النازي الهنغاري. في العام ١٩٣٥، عندما كنت في الثانية من عمري، قتله طعناً مراهق نازي اختير للمهمة لأنه لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة كي يتعذر إعدامه. بعد الجنازة فرت أمي تحت وطأة رعب خسارتها إلى أقرب بلدة كبيرة، أول وأقدم مدن هنغاريا، التي تعود لألف سنة، والتي

لن أعذبكم بذكر اسمها. استأجرت شقة طلقة الهواء في الطابق الثاني من عمارة في الشارع الرئيس للمدينة ـ شارع ضيق فيه كنائس باروكية ومتاجر عصرية ـ يبعد مسير بضع دقائق عن دير فرنسيسكاني كنت أزوره حتى قبل أن أبلغ سن دخول المدرسة. خدمات والدي للكنيسة، موته المفاجئ ولوجود عدد من القساوسة في طرفي عائلتي، حببت القساوسة بي فرحبوا بي دوماً. علموني القراءة والكتابة، حدثوني عن حياة القديسين وأبطال هنغاريا التاريخيين. أخبروني عن المدن البعيدة التي درسوها ـ روما، باريس، فيينا ـ لكن المهم أنهم كانوا يصغون لأي شيء أود أن أقوله. لذا عوض أن يكون لي أب واحد، ترعرعت مع مجموعة كاملة منهم. كنت دوماً أقابل بابتسامة دافئة متفهمة، وأسير في أروقة ديرهم الواسع المنعش البرودة كما لو كنت أملك المكان. أذكر جيداً رفقتهم المحببة مثل رفقة أمي، رغم أني، كما قلت ، عشت وحيداً منذ سن الثانية. كانت امرأة هادئة رقيقة تعتني بي دوماً. وحيث إني لم أكن ألعب مع الأطفال الآخرين كثيراً، لم أتعارك مع أحد أبداً. كنت ، ما بين الرهبان وأمي ، محاطاً بحب متقد وحس بحرية مطلقة. لا أظن أنهم حاولوا مرة السيطرة علي أو الاعتراض على ما أفعله، بل شاهدوني أكبر فقط. القيد الوحيد الذي شعرت به كان إدراكي أنهم كانوا جميعاً يبتهلون لله كي أقوم بأفضل ما بوسعي.

كنت مدركاً أيضاً لانتمائي لقبيلة كبيرة رائعة، سمحت لي بالتفكير أني مصدر فخر ومسرة لكل أقاربي. أذكر حادثاً على وجه الخصوص، حين جاء أعمامي وعائلاتهم لزيارة أختهم الأرملة في عيد ميلادها. كان هناك صخب وهرج في المساء فرفضت

الذهاب للنوم مع الأطفال الآخرين، بينما بقي البالغون للاستمتاع بوقتهم. لذا جاؤوا جميعاً إلى حجرتي ليبقوا معي وأمي تحضرني للنوم. ربتت وهي تخلع ملابسي على قفاي وقبلته، ووعدتني أن يقبلها كل الآخرين إذا ما نمت بعد حين دون أي احتجاج. لم أكن قد تجاوزت الثالثة أو الرابعة آنذاك ـ لا بد أن هذه من أبكر ذكرياتي ـ ولا زلت أذكر نومي على بطني والنظر من فوق كتفي لرؤية كل هؤلاء البالغين مصطفين في انتظار دورهم لتقبيل قفاي.

كل هذا يعلل حقيقة أني أصبحت صبياً عطوفاً حنوناً ومغروراً. وجدت من الطبيعي، وقد اعتبرت حب كل الناس لي شيئاً مؤكداً، أن أحب وأقدر كل من أقابلهم أو أسمع عنهم.

في البدء توجهت مشاعري البهجة هذه إلى القديسين وشهداء الكنيسة بشكل رئيسي. في سن السابعة أو الثامنة شعرت بنزعة رومانسية لأن أصبح مبشراً، وإن أمكن شهيداً في حقول أرز الصين. أذكر على وجه الخصوص بعد ظهر يوم أحد ساعة لم أشعر بميل للدراسة، وقفت قرب نافذة حجرتي أراقب النساء الأنيقات يسرن جيئة وذهاباً في الشارع. تساءلت إذا أصبحت قسيساً وأخذت على نفسي قسم عهد التبتل، هل سيكون من الصعب أن أعيش دون صحبة تلك النساء الرقيقات اللاتي يغدون من أمام بيتنا في طريقهن إلى محل القبعات أو مصفف الشعر ليجعلن أنفسهن أكثر ملائكية. وهكذا وجهّت عزمي في أن أصبح قسيساً بمسألة التخلي عن النساء حتى قبل أن أريدهن . أخيراً وبعد احساسي لحين بالخزي لما يساورني من قلق، سألت قسيس اعترافي، رجل شائب طفولي الملامح في الستينات من عمره، عن الصعوبة التي واجهها في العيش دون النساء. نظر اليّ بصرامة واقتصرت إجابته

على اعتقاده أني لن أصبح قط قسيساً. صدمت لتقليله من أهمية تصميمي ـ لأني أردت معرفة حجم التضحية فقط ـ وخشيت أن حبه لي سيقل. لكنه أشرق ثانية وأخبرني بابتسامة (إذ لم يكن يفتقر يوماً إلى تشجيع) أن هناك سبلاً عدة لخدمة الله.

كنت أعمل كمساعد في قدّاساته، وحيث إنه كان يستيقظ باكراً، أحب القيام بالقداس في السادسة صباحاً، في معظم الأحيان لم يكن في الكاتدرائية الضخمة سوانا، فأشعر بوجود الله القوي الغامض. يمكنني رغم أني دهرياً الآن تذكر ذاك الشعور بالتسامي، والشمعات الأربع في الصمت الرخامي المنعش البرودة المليء بالصدى. هناك تعلمت أن أحس وأحب الغموض المراوغ ـ نزعة تولد والنساء ويمكن للرجال الحصول عليها إن كانوا محظوظين.

أسهب في ذكر أطراف بعض هذه الذكريات التي لا تزال متوهجة في ذهني لأن التفكير بها يجلب المسرة من جهة، ومن جهة أخرى لأني على يقين أيضاً أن كثيراً من الصبية يدمرون أفضل سنوات عمرهم وشخصياتهم ـ بالفكرة الخاطئة أن على الصبي أن يكون فظاً قاسياً ليصبح رجلاً، لذا ينضمون إلى فريق كرة قدم أو هوكي ليبدوا كباراً، في حين يمكن أن تساعدهم كنيسة فارغة أو طريق ريفي مهجور أكثر كي يحسوا بالعالم وأنفسهم. أتمنى أن يسامحني الآباء الفرنسيسكان لقولي إني ما كنت قط لأفهم واستمتع بالنساء بهذا القدر لو لم تعلمني الكنيسة تجربة التسامي وخشية الله.

عودة إلى مسألة التبتل التي بدأت في ازعاج صبي كاثوليكي يافع، ينبغي أن أقول إن النساء اللاتي رأيتهن من نافذة شقتنا لم

يكن المسؤولات الوحيدات عن قلقي الناضج قبل الأوان، فمثلما كان بإمكاني المساهمة في حياة مجموعة من الرجال في الدير، رحبت بي مجموعة من النساء كثيراً في البيت. كانت أمي تقيم حفلات شاي أسبوعياً لصديقاتها، الأرامل والعازبات ممن هن بعمرها، بين الثلاثين والأربعين. أذكر أن التشابه بين جو الدير وحفلات شاي أمي، أدهشني لكونه غريباً ورائعاً. كان الفرنسيسكان وأصدقاء أمي مجموعتين سعيدتين مرحتين، ومن الواضح أنهما سعيدتان في العيش وحدهما. أحسست بأنني الصلة الإنسانية الوحيدة بين العالمين المستقلين، وكنت فخوراً بأنهما يرحبان بي فاستمتعت بكليهما. لم يكن بوسعي تخيل الحياة دون أي منهما ولا زلت أفكر أحياناً بأن أفضل وسيلة للعيش أن تكون راهباً فرنسيسكياً عنده حشد من الحريم في الأربعين من أعمارهن.

شرعت بعد مدة أحنّ إلى ما بعد ظهر أيام كانت صديقات أمي يأتين فيها ويأخذن رأسي بين أيديهن الدافئة الناعمة ويعربن لي عن إعجابهن بشدة سواد عيني. كان لمسهن لي أو لمسي لهن متعة تصيبني بالدوار. حاولت تقليد شجاعة الشهداء بالقفز إليهن عندما يصلن للترحيب بهن بقبلة أو عناق. في مثل تلك المناسبات بدا معظمهن مندهشاً أو منذهلاً. كن يقلن لأمي «يا للسماء يا إرزجي، ولدك عصبي سريع الهياج!». ساور بعضهن الشك، خاصة عندما كنت أنجح في لمس صدورهن ـ لسبب ما، كان هذا أكثر إثارة من لمس أذرعهن. مع ذلك، كان ذاك ينتهي دوماً بالضحك، لا أذكر أنهن كن عازمات على أي شيء لمدة طويلة. أحببتهن جميعاً، لكني كنت أنتظر بلهفة عظيمة أخت والدي، العمة أليس، التي كانت ممتلئة قليلاً، شقراء عارمة الصدر، عطرها

بالغ الروعة ووجهها مدور جميل. كانت ترفعني ، تنظر في عيني بغضب ساخر وبعض الغنج، تحذرني بصوت صارم ناعم «أنت تبحث عن صدري، أيها الشيطان!».

كانت العمة أليس الوحيدة التي أعطتني ما أستحقه كشخصية ذات أهمية مهلكة. تصورت نفسي، وقد أصبحت في مخيلتي أول بابا هنغاري وقضيت شهيداً، قديساً عظيماً ملقى به مؤقتاً في الطفولة. ورغم أن عمتي أليس أضفت علي نوعاً مختلفاً من العظمة عندما دعتني شيطاناً، شعرت في أعماقي بأننا نعني الشيء نفسه.

ليرحن أمي من صحبتي من وقت لآخر، كانت صديقاتها يأخذنني في مشاوير طويلة أو أحياناً لمشاهدة فيلم. كانت عمتي الوحيدة التي روجت خبر خروجنا معاً حين طلبت مني موعداً قائلة بترقب مفرح «يا جميلي الوسيم، هل ستأخذني إلى المسرح؟» أذكر يوماً على وجه التحديد عندما كنت خارجاً معها وأنا أرتدي سروالاً طويلاً لأول مرة. كان ذاك ما بعد ظهر يوم سبت مشمس في نهاية الربيع أو أوائل الخريف ـ قبل دخول الولايات المتحدة الحرب بقليل ـ وكنا ذاهبين لمشاهدة «ساحر أوز». كنت قد حصلت على بزة بالغ قبل أيام ومتلهف لعرضها على عمتي أليس، التي كان من المؤكد أنها ستعجب بها. انهمكت ـ حين وصلت أخيراً تهيم في خضم عطرها وجبروتها ـ في شرح سبب تأخرها لأمي فلم تلاحظ سروالي الطويل. مع ذلك، عندما كنا على وشك المغادرة، أطلقت شهقة عميقة «آآآه» وارتدت على عقبها لتلتهمني بعينيها. رفعت لها يدي فقالت حين أمسكت بها «معي اليوم أوسم

مرافق. ألا يشبه والده يا إرزجي؟» كنا متجهين إلى الباب، يداً بيد، سعيدين عندما سمعت صوت أمي:

«أندراش، هل تذكرت أن تبول؟»

خرجت من الشقة مع عمتي أليس، وقد أقسمت أن لا أعود إليها أبداً. حتى ملاحظات رفيقتي الشقراء المسكنة بدت مفرطة في ملاطفتها، وبينما كنا نهبط الدرج تساءلت كيف يمكن لي أن أعيد بناء التوازن القديم لعلاقتنا. ما أن خرجنا للشارع حتى قرصت مؤخرتها. تظاهرت بعدم ملاحظة ذلك لكنها توردت خجلاً بعمق. عندها قررت الزواج من عمتي أليس عندما أكبر، لأنها تفهمتني.

مع ذلك، لا أود أن أضفي مسحة درامية على طفولتي بتحويلها إلى قصة رغبتي في غشيان المحارم مع تلك السيدة العظيمة. كنت في أوج سعادتي مع الآباء الفرنسيسكان وحفلات أمي الأسبوعية، عندما كنت أرى كل صديقاتها معاً وبمقدوري مراقبتهن وسماعهن يتكلمن عن الموضة، الحرب، الأقارب، الزيجات وأشياء لا أفقهها. الكاتدرائية الواسعة الصامتة وحجرة معيشتنا المليئة بكل تلك النساء المرحات عاليات الصوت، برائحة عطورهن، ضوء عيونهن ـ هذه أقوى وأكثر صور طفولتي حيوية.

أتعجب أي نوع من الحياة كنت سأعيش لو لم تكن هناك حفلات شاي أمي؟ ربما بسببها لم أفكر قط بالنساء كأعداء، كمناطق علي غزوها، بل دوماً كحليفات وصديقات ـ واعتقد بسبب ذلك كن في المقابل ودودات معي. لم أقابل ابداً النساء الشيطانات اللاتي تسمع عنهن: لا بد أنهن مشغولات مع هؤلاء

الرجال الذين ينظرون للنساء كقلاع عليهم مهاجمتها، القضاء عليها وتركها مدمرة.

مع ذلك، بخصوص موضوع الصداقة مع كل الآخرين - خاصة مع النساء - ليس بوسعي سوى استنتاج أن كل سعادتي التامة في حفلات شاي أمي دلت على حماس مبكر وملحوظ تجاه الجنس الآخر. من البديهي أن لهذا الحماس أثر كبير في حظي اللاحق مع النساء. ورغم أمنيتي أن تكون هذه الذكريات بناءة، ينبغي أن أعترف أنها لن تساعدك في جذب النساء إليك أكثر من كونك منجذباً لهن. إذا كنت تكرههن في صميم قلبك، إذا كنت تحلم بإهانتهن، إذا كنت تستمتع بإلقاء الأوامر عليهن، من المرجح عندها أنك ستدفع مقابل ذلك. سيرغبن بك ويحببنك بقدر ما ترغب فيهن وتحبهن - وطوبى لسخائهن.

في الحرب والدعارة

كل مولود جديد مسيح ـ من المحزن أنه يتحول إلى وغد عادي لاحقاً

أمير ماداش

إلى سن العاشرة، سمح لي أن أنسى أني ولدت في سنة وصول هتلر للحكم. في أوروبا التي مزقتها الحرب، بدت مدينتنا عاصمة أرض أحلام خرافية، كانت صغيرة مثل دمية، مع ذلك قديمة، مهيبة كثيرة الشبه ببعض أحياء سالزبورغ القديمة. هناك عشت أميراً يافعاً سعيداً في أفضل عوالم ممكنة، محاطاً بعائلة كبيرة تحميني أمي، تلك المرأة الهادئة المتأملة الحزينة، تتبعني بعينيها الساكنتين، عماتي وخالاتي، صديقاتها العمليات الصاخبات والأنيقات أيضاً، والرهبان الفرنسيسكان، آبائي اللطاف. سمح لي أن أترعرع في بيت حب دافئ، واستيعابه في خلايا جسدي. لكن ربما من الجيد أني، بعد أن تعلمت أن أحب العالم، عرفته أيضاً. فمن صبي سعيد محظوظ تراوده فكرة الكهنوت والشهادة المباركة، تحولت إلى قواد وتاجر سوق سوداء. عند نهاية الحرب ـ بعد سنتين كابوسيتين وقبل

أن أبلغ الثانية عشرة ـ أصبحت وسيطاً مسؤولاً عن بنات الهوى الهنغاريات في مخيم للجيش الأمريكي قرب سالزبورغ، مدينة عظيمة الشبه ببلدتي في وجوه عدة.

بدأ تحولي في صيف ١٩٤٣ عندما وصلت أمواج الحرب أخيراً غرب هنغاريا. أصبحت مدينتنا الهادئة موقع حامية ألمانية، وشرعت طائرات القصف الأمريكية في الليالي بخلق أكوام من الحجارة بجانب خرائب الآثار القديمة. صودرت شقتنا لاستخدام الضباط الألمان، ولم يمض وقت طويل أيضاً، بعد أسبوعين من مغادرتنا، حتى أصابت الشقة ضربة مباشرة. انتقلنا كي نتجنب الغارات الجوية أبعد في اتجاه الغرب، إلى بيت جدتي في قرية بعيدة عن الطريق، وفي الخريف أرسلتني أمي إلى مدرسة عسكرية تقع في بلدة صغيرة قرب الحدود النمساوية. قالت إني سأكون هناك آمناً وأطعم جيداً وقد أتعلم اللاتينية.

أوجز الكولونيل الذي يدير المدرسة روحها في خطاب ترحيبي موجه إلى طلاب السنة الأولى الجدد في الكلية بقوله «هنا سنتعلم المعنى الحقيقي للنظام».

كانوا يصيحون بنا في كل لحظة من اليوم، في الصف الدراسي، في الساحة والمهجع. كان علينا السير كل بعد ظهر من الساعة الثالثة إلى الرابعة جيئة وذهاباً في الحديقة الشاسعة المليئة بالأشجار والمحاطة بأسوار عالية. كنا نؤمر، تحت طائلة العقاب الجسدي القاسي، بالسير بنشاط دون توقف لثانية واحدة، بينما هناك ضباط متكئين على الأشجار يراقبوننا ـ كي يتأكدوا من اطاعتنا للأوامر. مع ذلك، كان علينا، نحن الطلاب الصغار، أن نطيع أوامر الطلاب الذين كانت لهم سلطة عسكرية شرعية كبيرة

علينا. في اليوم الأول وجدت نفسي في ورطة عندما راح طالب من الكبار يسير خلفي يصيح بي كي أتوقف وآخذ وقفة انتباه. كان صبياً نحيلاً بشعر أحمر قصير مقصوص كفرشاة، واهناً مهلهل الهيئة ـ في الواقع بدا أصغر مني. قلقت إن لم أطعه، لكن قلقي كان أعظم إذا رفضت إطاعة الضباط. سرت بخفة فكان عليه أن يركض ليلحق بي. كان يتقطر عرقاً ونفسه مقطوع عندما أدركني. «الق علي التحية» قال آمراً بصوت مرتعش مهزوز «ألق علي التحية». حييته وانطلقت سائراً وقد طغى علي شعور بالاشمئزاز. تيقنت أنه قد ألقي بي بين مجموعة من الحمقى المسعورين.

كانت صدمة لم أشفَ منها بالكامل بتاتاً. حولتني السنة والنصف من التدريب العسكري في كلية تدريب الضباط الهنغاريين الملكية إلى شبه فوضوي . ليس بوسعي احترام أو الثقة بالمتدربين الكبار، الجنرالات، قادة الأحزاب، أصحاب الملايين، المدراء أو أي من شركاتهم. بالمناسبة، يبدو أن هذه النظرة تسحر معظم النساء ـ ربما لأنهن أقل حماساً من معظم الرجال كي يغمرن بكمال النظام الذي صنعه الرجل للعالم.

اهتم الطلاب الكبار على وجه الخصوص بطريقة ترتيبنا لأسرّتنا.

«ينبغي على فراشك أن يكون مستقيماً وناعماً مثل الزجاج!» كان آمر حجرتنا يصيح بي، ملقياً بأغطيتي وشراشفي في الزوايا الأربعة للمهجع. «تحتاج لبعض التمرين».

حتى بعد أن دخلت الجيوش الروسية هنغاريا وأعلن الأدميرال هورثي أن المقاومة غير مجدية، كان أكثر من مليون رجل، أكثر من

عشرة بالمائة من السكان، قد قتلوا، ولم يكن من الممكن أن تقوم للجيش الهنغاري قائمة مرة أخرى - حتى آنذاك كانت نعومة أغطيتنا لا تزال تستحوذ على آمر مهجعنا. عندما كان يلقي بغطاء سريري على الأرض، علي ترتيبه في غضون ثلاث دقائق، إذا استغرقني ذلك مدة أطول، كما كان يحدث غالباً، كان يلقي به على الأرض ثانية، ويكرر ذلك حتى يصيبه الملل. لهونا بلعبة السرير حتى وصول الجيش الروسي إلى مشارف البلدة. عندئذ هرب الكولونيل مع عائلته وكل أملاكه في الناقلات المخصصة لنقل طلاب الكلية، اختفى معظم الضباط الآخرين، فقادنا رائد، مدرس التاريخ، غرباً إلى النمسا. لم أر سريراً بعد ذلك لبضعة أشهر.

انضم نحو أربعة مائة منا لحشود المهاجرين الفوضوية، التي هرباً من الحرب بقيت في مركز تحركها الدائم، بين الجيوش الألمانية والروسية تماماً. تعلمنا في زحفنا بين الخطوط الأمامية عبر سهول وجبال النمسا، النوم ونحن سائرين، المرور بالجثث المشوهة، ميتة أو لا تزال ترتجف، وأخيراً تعلمت أن الصليب لا يمثل التضحية والغفران فقط، بل الصلب أيضاً. لكوني كنت آنذاك في الحادية عشرة والنصف من عمري، تركت قسوة الإنسان المجنونة وهشاشة أجسادنا تأثيراً علي طوال الحياة. يقال إن التربية الدينية تعزز في المرء حساً بالذنب حيال الجنس، لكن منذ أسابيع صدمة الجوع والتعب تلك، أمست أنماط الانغماس الذاتي الوحيدة التي أنفر منها هي الكره والعنف. لا بد أني تحليت يومها بمدارك الفاسق. حين يرى الإنسان كثيراً من الجثث، يفقد في الغالب كبته حيال الأجساد الحية.

ضعت وأنا سائر في منتصف ليل فيينا عديم الضوء عن الطلاب

الآخرين، ومن ساعتها أصبح علي أن أدبر أمري بنفسي وحيداً. عشت على ما استطعت سرقته من الحقول الكائنة على جنبات الطرق. ولابد أن المهاجرين الآخرين فعلوا مثلي، لأن الفلاحين كانوا يحمون قطع أرضهم بالبنادق الرشاشة. كثيراً ما حرقت جلدي قبل أن أنجح في شوي حبة بطاطا. بحلول منتصف أيار ١٩٤٥ حين التقطني جيب أمريكي من الطريق، وحيداً جائعاً، كنت مستعداً لفعل أي شيء.

بقولي إني أصبحت قواداً عند الجيش الأمريكي قبل أن أبلغ الثانية عشرة، لا أعني ترك انطباع بأن الجنود عاملوني دون اعتبار لمشاعري أو صباي. لا ريب أني استمتعت بوقتي مع الجيش الأمريكي أكثر من المدرسة الحربية. وإن قمت بأعمال لا تتمشى وعمري، فذلك لأني كنت متلهفاً لكسب قوتي ـ وربما أكثر تلهفاً لمعرفة الجنس. جلبني الجنديان اللذان وجداني إلى المعسكر وأشرفا على إطعامي، غسلي، فحصي طبياً ثم أخذي إلى قائد المعسكر، الذي لابد أن تقرير الطبيب حول حالتي الجسدية المتدهورة والتأثيرات الواضحة لتجاربي الكابوسية أثارت شفقته، فقرر ابقائي في المخيم.

منحت سريراً في أحد ثكنات الآجر (التي شيدت أساساً لشبيبة هتلر)، بزة رسمية، مخصصات جندي من السجائر والعلكة، ستر انقاذ وأواني طعام. صرت أصطف مع الجنود للحصول على عشاء من خمسة أطباق ويغمرني إحساس عميق بالسعادة. قضيت الأيام التالية أتجول بين الثكنات محاولاً تكوين صداقات مع جنود لم يكن لديهم كثيراً لفعله سوى مشاهدة الصور، الحلاقة، تنظيف ملابسهم وبنادقهم وتعليم صبي هائم كلمات إنجليزية: مرحباً،

تماماً، صبي، نكاح (كصفة عالمية) كانت أول كلمات تعلمتها وفق ذلك الترتيب، لكن في غضون أسبوعين تعلمت ما يكفي من اللغة لمناقشة الحرب وهنغاريا، والولايات المتحدة وعائلاتهم في الوطن. حدث في إحدى الليالي أن كنت في الجوار حيث تتناقش فتاة هنغارية وجندي حول السعر، تطوعت بتقديم خدماتي كمترجم ووسيط. كان الثمن خمس علب سجائر، علبة حليب مجفف، أربعاً وعشرين قطعة علكة وعلبة لحم بقر. وجدت أن معظم النساء اللاتي يزرن المعسكر في الليل، ويتظاهر البوليس العسكري بعدم رؤيتهن، هنغاريات من مخيم المهاجرين القريب. لذا نشطت كمترجم ، وسيط وقواد.

كان أول ما تعلمته في مهنة المغامرة هذه أن لا أساس في الواقع لمعظم التأويل الأخلاقي حول الجنس. كانت مفاجأة أيضاً لنساء الطبقة الوسطى المندهشات، المحترمات وأحياناً المغرورات، اللاتي قدتهن إلى ثكنات الجيش من المخيم الهنغاري المحروم المكتظ بالمهاجرين. عند نهاية الحرب، حتى النمساويين كانوا في أمس الحاجة لكل شيء تقريباً، لذا صعب العيش على مئات آلاف المهاجرين وأمسى وضعهم يبعث على الرثاء أكثر لأن معظمهم كان معتاداً على نمط الحياة البرجوازية المريح. في مخيم اللاجئين، لم يعد هناك معنى للكبرياء والفضيلة، اللتان كانتا في غاية الأهمية لتلك النساء في وضعهن الطبيعي. كن يسألنني بخجل لكن كثيراً أمام أزواجهن وأطفالهن الصامتين، إن كان الجنود مصابين بأمراض تناسلية وماذا عليهن تقديمه لهم.

أذكر بحنان سيدة جميلة من عائلة عريقة، كانت وقورة مترفعة عن المسألة برمتها. سيدة طويلة سمراء بصدر عارم مهتز ووجه

نحيل ناتئ العظام يومض بالكبرياء. كانت في أوائل الأربعين، على ما أعتقد. زوجها الكونت، رأس واحدة من أعرق وأنبل العائلات في هنغاريا، اسمه ورتبته العسكرية رغم أنها من جيش الأدميرال هورثي المهزوم، لا يزالان قادران على تخصيص كوخ خشبي منفصل له بين المهاجرين. كانت لهما ابنة طويلة الشعر في الثامنة عشرة، تقهقه كلما دخلت كوخهم في رحلات مهامي القليلة. لم تكن الكونتيسة س تخرج إلا مع الضباط فقط ومقابل ضعفين أو ثلاثة من السعر المعتاد. كان الكونت يدير رأسه جانباً عندما يراني، ولا يزال يرتدي سروال بزته الرسمية، أسود بخط ذهبي عريض على الجانبين، وفوقه كنزة قديمة متفسخة، عوض المعطف بكتافاته الذهبية المقصبة. كان ينتابني شعور مخيف غريب في حضرته، وأنا أستعيد صوره والصفحات المتعلقة بأسرته في كتب تاريخ مدرستنا الابتدائية. كان ذاك الجنرال العظيم الذي يستعرض قواته في الصحف التي كانت تعطى لنا لقراءتها في المدرسة الحربية. لم يكن يرد علي التحية إلا نادراً، في حين كانت زوجته تستقبلني دوماً كمفاجأة غير سارة ـ كما لو أنها لم تطلب مني بنفسها أن أخبرها كلما كانت عندي أي طلبات من ضباط لطاف أنقياء غير كثيري المطالب.

«إنه ذاك الصبي ثانية!» كانت تصيح بصوت متألم ساخط، ثم تلتفت لزوجها بإيماءة درامية «هل من المؤكد أننا بحاجة لأي شيء اليوم؟ أليس بوسعي أن أقول لهذا الولد عديم الأخلاق أن يذهب إلى الجحيم ولو مرة واحدة؟ هل نحن حقاً بحاجة ماسة لأي شيء؟» كقاعدة عامة، لم يكن الجنرال يجيب، بل يهز كتفيه بلامبالاة وتوان فقط، لكن يرد أحياناً بلذاعة «أنت التي تطهين، ينبغي أن تعرفي ما أنت بحاجة إليه».

«لو أنك انضممت بقواتك للروس، لما كان علي أن أدنس نفسي وأرتكب خطيئة مميتة لأوفر ما نأكله» صاحت به مرة في حالة هستيرية مباغتة.

رغم أني أترجم الحوار، إلا أنها بالفعل استخدمت هذه الاصطلاحات الغريبة غير المألوفة وغير الواقعية «أدنس» «أرتكب خطيئة مميتة» «الولد عديم الأخلاق» (اصطلاح كنت أحبه). لم تكن تملك المفردات فقط، بل وقفة سيدة صالحة جداً. عن أمها ولتقديم بعض التضحية في سبيل العائلة.

«دعيني أذهب يا أمي ـ أنت متعبة» تقول، لكن الكونتيسة لم تكن لتصغي لها.

«أفضل أن أتضور جوعاً» كانت تقول بغضب «أفضل أن أراك ميتة على أن تبيعي نفسك!» وأحياناً تضيف بفكاهة يائسة «أنا أسن من أن أفسد، لذا لا يهم ما أفعله!»

انتظرنا جميعاً بصمت وهي تحضر وتزين نفسها، ثم وهي تقف ناظرة إلى زوجها أو إلى أرجاء الحجرة «صلوا من أجلي وأنا ذاهبة» كانت تقول عادة وهي خارجة وأنا أتبعها على يقين أنها قد تسر لو تموت إذا كان باستطاعتها تجنب المحنة القادمة فقط.

مع ذلك عندما كنا نبلغ العربة، كانت تقدر على رسم ابتسامة شجاعة على محياها، وأحياناً تضحك بسعادة وطلاقة حين يكون ضابط شاب في انتظارها ليصحبنا إلى معسكر الجيش. وفجأة عندما يسود وجهها ويكتئب، أشعر كما لو أني سأحترق وأنا جالس بقربها. في مثل تلك اللحظات، يمكن للمرء أن يرى أن لها أعظم ثغر حسي. كثيراً ما كنت ألاحظ تعبيرات مشابهة في أمزجة

النساء اللاتي أصحبهن إلى الثكنات، كن يغادرن عائلاتهم كآلهات فضيلة وضحيات، ثم دون مجال للريبة يستمتعن مع الأمريكيين الذين غالباً ما كانوا أصغر وأوسم من أزواجهن. كنت أشك في أن كثيراً منهن يشعرن بالسرور لمقدرتهن على التفكير بأنهن زوجات وأمهات نبيلات غير أنانيات ومضحيات بأنفسهن، بينما كن في الواقع يأخذن إجازة سارة من ملل الحياة الزوجية. لم أكن حاضراً حين كن بالفعل مع الجنود في الثكنات، رغم محاولاتي العديدة غير المجدية للبقاء هناك.

لم أتقاضَ شيئاً مقابل خدماتي، شعرت أحياناً أن الجنود والنساء يدينون لي بتوفير فرصة معرفتهم الأولى لما يقومون به، ومهما كانوا عاديين فيما يتعلق بالانطباعات المضرة التي قد أتعرض لها لترتيبي لقاءاتهم، إلا أنهم كانوا يضعون خطاً أحمر عند بدء ممارستهم للحب لا يسمح لي بالبقاء والمشاهدة. أحياناً حين أثار جداً من المداعبات الأولية التي تجري أمامي، كنت أعترض على هذا الظلم «أنا لست طفلاً عندما أرتب اللقاء، لكني كذلك عند النكاح!» أردت حصتي من ذلك أيضاً. كنت مشغولاً في ترجمة جمل مثل «اسألها إن كانت ضيقة أم واسعة» غير أني ألتهب إثارة من هذا الكلام والعناق فتعتريني حالة انتصاب دائم.

نادراً ما جعلت فرصة التسلل إلى كوخ ضابط بعد مغادرته والمرأة التي كانت معه تفوتني. في ثكنات الجنود كان هناك دوماً شخص ما، لكن في مهاجع الضباط كنت قادراً على تفحص المشهد دون ازعاج. حاولت جمع أدلة من الأسرة المتجعدة، زجاجات الشراب نصف الفارغة، اعقاب السجائر المكسوة بأحمر الشفاه ـ لكن أكثر من أي شيء آخر بقايا عبق الروائح في الحجرة.

وجدت حتى مرة سروالاً داخلياً حريرياً أبيض اللون، فتنشقته بجشع. كانت له رائحة خاصة مسرة. لم أكن أعرف لكني متأكد أن الرائحة كانت من حاجيات الأنثى. ضغطت السروال إلى فتحتي أنفي وتنفست عبره لبرهة طويلة.

أذكر فقط حادثة واحدة حين رغبت في البقاء طفلاً مدة أطول. كنت أراقب جندياً أصيب بمرض تناسلي وأعطي لتوه بعض الحقنات في عضوه. بينما كان الجنود جالسين في الثكنة يقهقهون، سار الجندي بين صفي الأسرة جيئة وذهاباً وهو لا يزال منحن من الألم ويضع يديه بين ساقيه. كانت عيناه مليئتين بالدموع ويصرخ بصوت أجوف: «لن أنكح أي كان سوى زوجتي! ستكون آخر عاهرة أنكحها طالما حييت!»

حدث ذلك قبل أن أشرع ثانية في اعتبار كيف لي أن أرتب أمر ممارستي للحب مع احدى السيدات اللاتي أخدمهن ببضعة أيام.

تركزت أفكاري حول الكونتيسة س، رغم أنها دعتني «الولد عديم الأخلاق» لم يكن بوسعي عدم الشعور بأنها لا ريب تحبني على الأقل أكثر من ملازم أول ـ جنوبي متين بأسنان صناعية ـ كانت تزوره أحياناً. في حين لم أكن أحلم في منافسة النقيب الشاب الوسيم، حسبت أن بإمكاني الحصول عليها بعد ليلة مع الملازم الأول، الذي رأيته في صبيحة يوم ما يقود عربته حول مهجعه حين صعدت بجانبه. عندما سمعتها تفتح رشاش الماء للاستحمام تسللت إلى الداخل. لم تسمعني وأنا أدلف الحجرة. كان بإمكاني رؤيتها عارية تحت رشاش الماء عند فتح باب الحمام خلسة وأنا مخلوع الفؤاد. رغم رؤيتي لعديد من صور النساء العاريات المعلقة على جدران الثكنات، إلا أن تلك كانت المرة

الأولى التي أرى فيها امرأة عارية على الطبيعة. لم يكن ذلك مختلفاً فحسب، بل خارقاً.

لم تلاحظ وجودي وعندما خرجت فاجأتها، قبلت صدرها وضغطت نفسي على جسدها المبتل الدافئ. عند لمسي لها غمرني وهن مفرح، ورغم رغبتي في النظر إليها إلا أني أقفلت عيني. ربما لأنها لم تقو على تجاهل التأثير العميق الذي تركه جسدها علي، توقفت بضع لحظات قبل أن تدفعني للخلف باشمئزاز «اخرج من هنا» همسهست وهي تغطي حلمتيها بيديها «استدر!»

استدرت للخلف وعرضت عليها عشر علب من الحليب المجفف، خمسة صناديق من مسحوق البيض، وكل علب اللحم التي تريدها، إذا سمحت لي فقط بالاستلقاء جانبها. لكنها هددت بالصراخ طلباً للنجدة إذا لم أتركها لوحدها. أصابني مغص مؤلم وأنا أعطيها ظهري، وأتصورها ترتدي ملابسها وتغطي نفسها، مما أجبرني على الجلوس على سرير الملازم. جلست، بعد أن ارتدت ملابسها، بجانبي وأدارت وجهي صوبها بإيماءة حادة. بدت مكتئبة.

«كم عمرك؟»

«أنا بالغ»

فكرت أن أطلب منها أن ترى بنفسها، لكن لم يكن هناك حاجة، فلقد هزت رأسها بيأس وهي تنظر إلي.

«يا الهي، ما الذي فعلته الحرب بنا جميعاً!»

لأول مرة شعرت أنها حقاً تعني ما تقول.

«لقد فسدت وخربت هنا. ينبغي أن تعود إلى بيتك وأمك»

أعتقد أنها كانت كئيبة لانحلالي وانحلالها الذي أوصلها إلى نقطة جعلت بإمكان طفل أن يراودها على نفسها.

«ينبغي على الملازم الأول أن يذهب إلى البلدة ولن يعود إلا بعد وقت طويل. في الواقع عندي وساطة في المطبخ أفضل منه. الطهاة يحبونني. باستطاعتي جلب أي شيء لك».

«لا ينبغي عليك التفكير بالحب كشيء يشترى. عليك الانتظار حتى تكبر. انتظر حتى تتزوج. ستحافظ زوجتك على نفسها نقية حتى يوم زواجها وعليك فعل ذلك أيضاً».

لا بد أنها أحست بنفسها، وهي جالسة على سرير الملازم وتسمع أصوات الجنود في الخارج، بلاعقلانية قولها. كانت جالسة بمحاذاتي، سألتني عن عائلتي ومن أين أنا، وهي تنتظر عودة الضابط ليدفع لها أجرتها.

«وهكذا سرت كل الطريق من سالزبورغ » قالت بنبرة تعجب كما لو أنها أرادت أن تفهم أي نوع من الأطفال كنت.

«عليك أن تكبر بسرعة» أضافت بشرود وبمسحة تعاطف. ربما كانت تختبر مشاعرها حول إمكانية حدوث أي شيء بيننا. حولت وجهها عني، لكن ليس قبل أن أرصد تعبيره الواهن من المذلة والدهشة. حتى بعد أن أصبحت بنت هوى، لابد أن اليأس قد أصابها حين وجدت أنها تأخذ بعين الاعتبار عرض ولد في الثانية عشرة. أو هكذا فسرت رد فعلها. لكن عندما حسبت أني فهمتها، لم يكن بوسعي التفكير بأي شيء أقوله أو أفعله يجذبها لي. لم أكن مستعداً. أصابني شعور مماثل يوم كنت في المدرسة وطلب

مني المدرس الوقوف أمام التلاميذ وفشلت في معرفة عاصمة شيلي. أردت أن أذهب، فلقد انتابني الخوف.

لكن في تلك اللحظة دفعتني برفق إلى الخلف على الفراش وفتحت سحاب بنطالي، ثم راحت تلعب به بأنامل هادئة بطيئة وهي لا تزال جالسة باستقامة ترمق وجهي بوميض حب استطلاع، ثم انفرجت شفتاها فجأة، انحنت للأسفل ووضعته في فمها.

سرعان ما أصبحت عديم الوزن وشعرت بعدم الرغبة في الحركة ثانية طوال حياتي. كنت نصف واع لعينيها الجادتين وهما ترمقاني، وبعد حين بدا أني سمعت صوتها يدعوني بالولد عديم الأخلاق ثانية. أخيراً هزت كتفي وأجبرتني أن أنهض. لم ترغب في أن يجدني الملازم هناك عندما يعود. حثتني وأنا أغادر أن أصلي لله ليحفظني من الدمار.

لعلي كنت قادراً على إضعاف مقاومتها لو أني داومت على مضايقتها عند أبواب حمامات مهاجع الضباط المختلفين التي كانت تزورها. مع ذلك، ويا للغرابة، لم أحاول. ايماءتها المتهورة في تحريري من بؤسي على سرير الملازم، أثبطت همتي في محاولة مفاجأة النساء بشكل مباغت. شعرت أني مثل لص اقتحم بيتاً - وفوجئ بوجود مالكه، الذي رده ومعه هدية.

في الكبرياء وسن الثالثة عشرة

لا شكراً!

أدموند روستاند

سمعت عن مخاطر الجنس كثيراً عندما كنت في المدرسة العسكرية. في فترة العادة السرية، كنا نخوف بعضنا بعضاً، بعد أن تطفأ الأنوار في مهجع الطلاب، بقصص أولاد تحولوا إلى معتوهين لأنهم لعبوا بأنفسهم أو جامعوا فتيات. أذكر حكاية ولد أصيب بانهيار لمجرد التفكير بالنساء. كنت بوصولي المخيم الأمريكي قد فقدت كل مخاوفي الدينية، لكني كنت لا أزال أعتقد أن قدرات الولد قد تعاق إذا كان عنده دافع جنسي قوي. لذا قلقت على نفسي.

أجد، عندما أستعيد الأحداث، أن شهواتي كانت بالغة التطور باعتدال، فلقد أضحيت من جهة مدمن طعام، ربما لأني عانيت من المجاعة مدة طويلة قبل أن يأويني الأمريكيون، لذا قضيت كل ساعات اليوم في التهام الطعام. كانت هناك قاعة طعام ضخمة، يحتل جانباً منها صف من مساعدي الطباخ ـ من ستة إلى ثمانية

كل وجبة ـ يملؤون أوانينا أثناء مرورنا من أمامهم من قدور طهيهم المعدنية. فطائر مدورة كالشمس بالزبدة والعصير، حبات الذرة، آيس كريم وفطيرة التفاح كانت طعامي المفضل. خلال شهري الأول في المخيم، راقبت غير مصدق الطباخين يصبون الدهن الذي طهوا به الهامبورغر واللحم في صناديق القمامة. لا بد أنهم كانوا يلقون نحو عشرين أو ثلاثين جالون من الدهن كل يوم ـ جالونات من الذهب المنساب في أوروبا الجائعة. أحببت الأمريكيين لكن من الواضح أنهم كانوا حمقى. طلبت من رئيس الطهاة إعطائي الدهن عوض إلقائه في القمامة. في البدء لم يكترث، لكن حين أخبرته أني سأبيعه، وافق. منذ ذلك اليوم، كلما كان الجنود يأخذونني إلى سالزبورغ لجلب فتيات لهم من مخيم اللاجئين، كانوا ينقلون جالوناتي الخمس من علب الحليب الجاف وهي مليئة بالدهن. كنت أبيعها لعدد من أصحاب مطاعم سالزبورغ وأصر على الدفع بالعملة الأمريكية. في الأيام التي كان عندي من الدهن أكثر مما يمكنني بيعه، كنت أمنحها للاجئين، وأستقبل بحفاوة تليق ببابا هنغاري. بعد برهة اندمج رئيس الطهاة (الذي لم يطلب مني عمولة قط) في الأمر، راح يعطيني كل علبة من اللحم، مسحوق البيض، الفواكه أو عصير فتحت ويخشى خرابها. كان أخذ الهبات من المطعم يستغرق نحو عشرين دقيقة كل يوم، الذهاب إلى سالزبوغ والعودة وتوزيعها ساعتين أخرتين. بعمل ساعتين ونصف في اليوم، كنت أكسب خمسمائة دولار في الأسبوع تقريباً. عندما سمع الكولونيل وايتمور، قائد المخيم، عن مواهبي في الأعمال الحرة، اهتم بي وراح يدعوني كثيراً للحديث معه. كان واحداً من أكثر الناس الذين قابلتهم في حياتي تحضراً: رجل قصير

نحيل شاحب تنتاب إحدى عينيه رعشة خفيفة. أخبرني الجنود أنه عايش كثيراً من الأحداث في المحيط الهادئ وعيّن في هذا المنصب الأوروبي كنوع من الإجازة. لم يكن يشرب أو يلعب البوكر، وأعظم متعه القراءة، بدا أنه يعرف عن الأدب اليوناني والأساطير مثل الآباء الفرنسيسكان، ويحب الحديث عن مسرحيات أسخيلوس وسوفكليس. كان يملك عدة فنادق في شيكاغو وحولها، لكنه أخبرني أنه يشعر بالملل من التجارة مثل الجيش. كنت أخبره عن حرصي في صفقاتي مع أصحاب المطاعم، التي بدا أنها تمتعه، وجعلني أفشي له بما أربحه كل يوم، بعد أن سمع أني أخسر مئات الدولارات في البوكر. كان شديد الشوق لطفليه ويحب أن يراني في الجوار لأتحدث عن أي شيء يجول في خاطري. لكن عندما أشرع في رواية قصص الجنود في الثكنات كان يوقفني «حذار! لا تتحول إلى جاسوس. لا أود سماع ذلك» كثيراً ما كان يصحبني في جولاته، وحدث أن كنت معه عندما فحص مخزناً للجيش الألماني توجب عليه التصرف به. كان المخزن مليئاً بالقمصان الصيفية التي عملت من أجل جيش رومل الإفريقي ثم نسيت. كان هناك مليونان منها وفق قائمة الجرد، فطلبت من القائد إعطائها لي. لم يقتنع بمقدرتي على بيعها، لكنه وعد بمنحها لي وحتى مساعدتي في نقلها إذا وجدت مشترياً. ركبت عربة جيب ذاهبة إلى سالزبورغ حيث قررت ترويج البضاعة عبر صاحبة بيت دعارة كنت أعرفها. عرضت ألف دولار مقابل كل القمصان، لكني نجحت في رفع السعر إلى ألف وثمان مئة دولار. من سوء الحظ، بعد أن سلمنا القمصان وأخذت النقود، لعبت

البوكر مع الجندي الذي قاد العربة الناقلة للسلع. خسرت ألف وأربع مائة دولار قبل أن أقرر التوقف عن اللعب إلى الأبد.

عثرت، أنا المتلهف لتحسين نفسي، على مدرس موسيقى في سالزبورغ كان يعطيني حصتين في عزف البيانو في الأسبوع مقابل نصف رطل إنجليزي من الزبدة للساعة الواحدة. كنت أدرس الألمانية وأحاول تحسين لغتي الإنجليزية. أما وقد تخليت عن طموحي في أن أصبح شهيداً، رحت أحلم بالعيش إلى الأبد. شرعت في كتابة مسرحية شعرية طويلة حول لا جدوى الوجود، متمنياً أن تصبح تحفة فنية ناجحة. لكن معظم جهدي انصب على دراسة اللاتينية، فلقد اعتقدت لسبب ما أني لن أرقى لأي مرتبة إذا لم أعرف اللاتينية. بقيت طوال هذه المدة قواداً بتولاً. كانت هناك بضع غانيات جميلات ودودات بدا أنهن معجبات بي، لكني لم أعرف كيف أقدم نفسي لهن. محدقاً بهن بتوسل بقدر المستطاع، أملت أن تفكر احداهن بعرض نفسها علي. لكنهن لم يفعلن. ورغم أني أردت ممارسة الحب لدرجة أني كثيراً ما كنت أصاب بتشنجات مؤلمة، إلا أن ما بعد تأثيرات الصفقات المباشرة الكئيبة راحت ترعبني. لاحظت أن الجنود الذين يضاجعون ما هو متوفر، أي كان دون النظر إلى المرأة، كثيراً ما كانوا متجهمي الوجوه أو غاضبين بعد ذلك. وفي حين كانت كونتستي العزيزة تغادر النقيب الشاب وهي في نشوة عارمة، كانت تخرج من عند الضباط الآخرين كئيبة. من الجلي أن الجنس نشاط جماعي مهما كان. بدأ الشك يساورني أن الغرباء الذين يفرضون على بعضهم بشكل أو بآخر، نادراً ما يشكلون فريقاً جيداً.

كانت المرأة التي وضحت لي ذلك الدرس هي الآنسة

موزارت، التي جاءت ثكناتنا يوم أحد مشرق في اوائل الربيع، بعد الغداء تماماً، حين كان معظم الجنود يخرجون. كنا ثلاثة فقط في الداخل، جنديان وأنا: واحد مستلق على سريره يقرأ المجلات، والآخر يحلق ذقنه بصعوبة، وقد وضع المرآة على عتبة النافذة قرب سريره مما جعل الشمس تنعكس في عينيه. كنت جالساً على سريري متصالب الساقين، أدرس الأفعال اللاتينية، فجأة فتح الباب على مصراعيه وصاح ممثلنا الهزلي من بروكلين صاحب الأسلوب الخاص بصوت مرتفع مبتهج في أرجاء الغرفة «ها هي يا شباب ـ الآنسة موزارت».

كانت ثكنتنا طويلة وضيقة، وعلى كل جهة يصطف أربعة وعشرون سريراً بينهما مسافة تقارب الستة أقدام. كان سريري عند نهاية الحجرة وعندما يأتي جنود جدد أتراجع للخلف دون أن يلاحظ أحد. جلست على الأرض خلف آخر سرير، فلم يظهر سوى رأسي، آملاً أن ينسى الآخرون وجودي لأتمكن من مشاهدة ما يجري. كانت الآنسة فرولين موزارت نمساوية شقراء ضخمة، وديعة، ممتلئة، متلبدة الحواس، وترتدي تنورة من قماش الدرندل عليه صور زهور وقميص فضفاض أسود دون أكمام. دلفت كما لا وجود لأحد في الحجرة. في الواقع لم يلق الجنديان عليها التحية أو يلاحظا حتى دخولها، رغم أن مرافقها أثار ضجة. كان رجلاً قصير القامة، أسود الحاجبين، قصير الشعر، يهز ردفيه، يصفق ويحك يديه وهو يكرر صيحة ظفره «ما رأيكم بهذه يا شباب ـ الآنسة موزارت!». تبعها وهو يرسم بيديه في الهواء دوائر ليؤكد تقاسيم جسدها، غير أن رفيقيه لم يولياه اهتماماً: لم يرفع الجندي الذي يخفي وجهه بمجلة لايف عينيه عن المجلة، وأدار الآخر صدغه

المغطى برغوة الصابون من على المرآة لثانية واحدة، ثم أعاده ثانية ليغمض عينيه نصف إغماضة بفعل الشمس.

«أفضل قطعة رأيتها في حياتك» أصر بروكلين قائلاً وهو يفتح سحاب بنطاله ببهجة.

تباطأت الآنسة موزارت مترددة. حسبت أنها وجدت حضور الآخرين وسلوك مرافقها محرجاً. لكنها تكلمت بطريقة أظهرت أني كنت مخطئاً.

«أين سريرك؟» سألت بجفاف.

أشار بروكلين إليه: كان وسط الحجرة، على بعد ما يقارب عشرة أسرة مني. ببساطة كما لو كانت وحيدة، بدأت الآنسة موزارت في خلع ملابسها، ملقية بقميصها وصدريتها على السرير المحاذي لسرير بروكلين، الذي توقف عن التصفيق والتلويح بيديه وحدق بها. من ثم خلعت تنورتها وحلت شعرها الأشقر الطويل وراحت تسرحه بأصابعها. هناك وقفت عارية باستثناء سروالها الداخلي. كان كل ما بوسعي رؤيته ظهرها الأبيض العريض وأردافها القوية. حاولت يائساً تخيل ما يراه بروكلين من الأمام، حيث أنه كان جالساً على حافة السرير الآخر، وساكناً يضرب الأرض بقدمه ضرباً خفيفاً. حافظ الجنديان الآخران على عدم اكتراثهما لوجودها. أمر لم أفهمه إطلاقاً.

«إذا كان أحدكما مهتماً، أجرتي رطلين، عشرة دولارات أو أربع مائة سيجارة».

لا بد أنها كانت تزور المخيم البريطاني القريب، إذ كان من الجلي أنها ليست بحاجة لترجمتي. لم يكترث الجنديان بالرد. حين

ألقت بسروالها الداخلي في وجه رفيقها، رفع قارئ مجلة لايف عينيه وسأل «أين الصبي؟»

أخفيت رأسي تحت السرير وأمسكت بتنفسي، لكني سمعت صوت الآنسة موزارت المنخفض الهادئ:

«هناك صبي في آخر الحجرة»

كان ظهرها لي طوال تلك المدة.

كان الرجال لا يزالون يضحكون وأنا أغادر الحجرة. انتظرتها خارج الثكنة وأنا أركل الحجارة حاقداً على العالم. الآن أو قطعياً، فلقد سئمت. خرجت الآنسة موزارت بعد عشرين دقيقة. أدركت عندما خطوت نحوها أني لا أبلغ سوى صدرها، لذا عدت للخلف بسرعة. عرضت عليها ألف سيجارة. نظرت إلي بلا مشاعر فحسبت أنها لم تفهمني.

«سأعطيك ألف سيجارة»

«لماذا » سألتني بقليل من الدهشة.

قررت أن أبادرها بلغتها الأم «آنسة، أحب أن أنام معك، إذا سمحت».

«بالطبع » أجابت دون أي رد فعل ظاهر «لكني أطلب أربع مئة سيجارة فقط»

سررت أنها لم تود استغلالي، لكني عرضت عليها خمس علب عن طيب خاطر. أملت أننا سنتفاهم. تيقنت من ذلك عندما اقترحت مكاناً: الغابة الكائنة بين المخيم وأقرب قرية. من المؤكد أن بروكلين رفض اعادتها إلى سالزبورغ وكان عليها الذهاب إلى القرية لأخذ حافلة إلى المدينة. عدت إلى الثكنة لجلب السجائر

وبطانية. دلفت ببطء وبشكل عادي كي لا يسألني الجنود أي سؤال. كان بروكلين مستلقياً على سريره عارياً، يدخن ويقرأ قصة رسوم مصورة. استغرقني الأمر ثلاث دقائق لجمع حاجياتي وخرجت أتصبب عرقاً متخيلاً أن جندياً آخر قد أخذها في تلك الغضون، أو أنها بكل بساطة غيرت رأيها وذهبت في حال سبيلها. على أي حال، لم تبتسم حتى لي. لكني كنت محظوظاً: كانت في الانتظار.

خرجنا من المخيم عبر فتحة في السياج الشائك. بحلول السلام وعودة النظام، منعت النساء من دخول الثكنات، لذا مع أن عدد النساء القادمات إلى المخيم لم يتغير عن ذي قبل، لم يعدن يدخلن الآن من البوابة.

كان يوم من أول أيام السنة الدافئة الصافية: السماء شديدة الضياء والأرض المبتلة الداكنة اللون بفعل الثلج الذائب تشي بروائح الربيع. كانت قرية نيديرالم تبعد مسافة ميل ونصف. لم نسر طويلاً قبل بلوغ الغابة. كنا نسير على طريق جانبي ضيق مغطى بالحصباء. كانت الآنسة موزارت ترتدي حذاءً مسطح النعل وتسير بخطوات واسعة مرتاحة، مما رتب علي الهرولة كي أجاريها. لم تنبس ببنت شفة، لم تنظر حتى إلي ـ كانت كما لو أنها تسير وحيدة، وإن أبطأت قليلاً بعد حين. فكرت في وضع يدي على ذراعها الأبيض العاري، لكن حيث كان علي الارتفاع لفعل ذلك، تخليت عن الفكرة. نظرت كي أرى إن كان نهداها يهتزان وهي سائرة، لكنها كانت ترتدي صدرية مشدودة بإحكام، كانا دون حركة مثل وجهها. مع ذلك، كانا ضخمين ومدورين. أردتها أن تعرف كم كل هذا عنى لي.

«أنت أول امرأة في حياتي»

«حقاً» أجابت.

بعد هذا الحوار سرنا صامتين. عندما أصبحت البطانية ثقيلة رحت أتطلع لفرشها على الأرض. كنت متأكداً أنها ستصبح ألطف ما أن تصبح على البطانية الناعمة بجانبي.

حين بلغنا الغابة ـ واحدة من أصغر الغابات حول سالزبورغ والتي تبدو حسنة التنظيم مثل حديقة وسط المدينة ـ سبقتها راكضاً، وجدت مكاناً صغيراً متوارياً خلف صخرة. فرشت البطانية، مفتخراً بعثوري على مكانٍ رومانسي منعزل، عرضته عليها بإيماءة فرحة. جلست على البطانية، فتحت تنورتها (سقطت بجوارها) قبل أن تستلقي على ظهرها. لم تكن مستريحة، لذا حركت جسدها ناخرة. جلست بجانبها، حاولت النظر عبر قميصها المقفل وصدريتها، ثم حدقت ببطنها العاري وظل سروالها الداخلي الذي بدا من خلال حريره الأبيض الخفيف شعر عانتها. وضعت يدي على فخذها البارد الصلب، أحسسته بتعجب. تخيلت، وأنا أتنفس بعمق وأشم غابة الصنوبر والأرض المبتلة، أنها مهما بدت عديمة التأثر، مهما عاشرت من الرجال، إلا أنها لا ريب تشاركني اثارتي. دفنت رأسي، وقد طفح بي الكيل، في حجرها. لا بد أني لم أتحرك لوهلة، لأنها طلبت مني الاسراع. أخيراً ثمة إحساس في صوتها. احساس بالانتهاء ونفاد الصبر.

«أسرع!!»

تضايقت جداً.

دون كلمة أخرى، نهضت ورحت أسحب بطانيتي من تحتها، فلم أكن لأمسها ولو منحتني كل متع الجنة.

«ماذا تريد؟» سألت، ربما بمسحة ضيق خابتة.

أخبرتها أني قد غيرت رأيي.

«حسناً» قالت.

سرنا معاً إلى حافة الغابة حيث أعطيتها علب السجائر. سارت في اتجاه القرية، وأنا صوب المخيم حاملاً بطانيتي.

في الفتيات اليافعات

صباك ـ أتذكره؟

أتعود يوماً؟

أتعود يوماً؟

لن أعود، لن أعود.

شاندور فيورش

المطر الحمضي يقتل الغابات والبحيرات، نحن نعيشُ تحت تهديد الحرب النووية، والقضاء على الجنس البشري احتمال غير مشكوك فيه، لكن لا يسير كل شيء من سيئ إلى أسوأ، إذ يبدو أن الفتيات اليافعات لم يعدن يزاولن تعذيب الصبية.

مرت سنوات منذ أن شهدت ما يذكرني برعب صباي. جرى الحدث في بهو مسرح ذهبت إليه لمشاهدة هاملت يؤدي دوره نجم سينمائي يحاول أن يثبت أن بإمكانه أيضاً التمثيل على الخشبة. بعد الأداء كنت أشق طريقي في البهو المحتشد وبجانبي صبي وفتاة مراهقان. لا بد أن الفتى كان في السابعة عشرة، وبدت الفتاة أصغر بقليل. تركت طريقة وضع ذراعها في ذراعه واتكائها عليه

كثيراً وهما سائران لدي انطباعاً بأنهما جادان في علاقتهما. كانت تقهقه بصوت مرتفع النبرة، مثيرة انتباه من حولها، وربما كان هذا ما هدفت إليه.

«رأيت عينيه، أظن أنه نظر إلي» قالت بصوت عالٍ، مغمضة عينيها وهي تتكئ بنشوة على ذراع صاحبها.

«أليس هو في غاية الروعة؟ يمكنه الحصول علي في أي وقت يشاء!».

لم يفشل هذا التصريح العام، الذي دلّ على أن الفتى الذي تستند عليه بألفة عديمة المشاعر لا يعني لها شيئاً وأنه بديل ناقص لمثالها الأعلى الحقيقي، محرجاً، ابيّض لون الفتى ثم احمر. كان بإمكاني رؤية أنه يحاول الابتعاد عن الناس الذين سمعوا تعليقها، لكن كان من الصعب عليه التقدم بين الحشد وفتاة ممتلئة الجسم متعلقة بذراعه، فحشر بيننا. لم تكن عند الفتاة فكرة حول سلوكها غير اللائق وبدا أنها تستمتع بنظرات استغرابنا. لعلها فكرت أننا نتخيل كم ستكون رائعة وهي تتكئ على الممثل اللامع.

من المرجح أن الفتى قد تجشم مصاريف ومتاعب جمّة ليجلب صديقته اليافعة إلى المسرح. ليس من الضروري أنه توقع عرفاناً، غير أنه لابد قد أمل بدعوتها إلى المسرح لمشاهدة نجم شهير، وبصحبة مشاهدين رائعين، أن يترك ذلك لديها انطباعاً أفضل عنه. الآن، وحيث أنه فشل في الاختفاء، حاول تجنب الاحراج بضحكة غبية، وهزة كتف عصبية، فنظر إلينا بتعبير يقول «أليست سخيفة، لكن أليست ظريفة؟» غير أنه حين أدار رأسه صوبنا، شاهدت عينيه لوهلة، كانت عينا كلب مشوه. أجبرت، حين رأيته محشوراً بين

الحشد ممسكاً بذراع الفتاة، على كتم رغبة في أخذه جانباً والاعراب له، رجل لرجل، عن تعاطفي ومآزرتي.

كانت لقاءاتي مع الفتيات اليافعات مروعة بشكل لا يقبل الجدل. مع ذلك وقبل أن أخبركم عنها، ينبغي أن أقص عليكم بايجاز ما حدث معي منذ أن غادرت مخيم الجيش الأمريكي في النمسا في صيف ١٩٤٦.

أراد الكولونيل وايتمور، قائد المخيم، أن يتبناني ويأخذني معه للالتحاق بأطفاله في شيكاغو، لكني رفضت عرضه اللطيف. أصغى إلي بحزن عندما أخبرته أني على يقين أن مسرحيتي الشعرية ستدر علي مليوناً وسأصبح في وقت قريب في بودابست أغنى منه بفنادقه في أمريكا. أخاط السبعة آلاف وخمس مائة دولار التي حفظها لي معه في بطانة سترتي الجلدية القصيرة، وجعلني أقطع على نفسي عهداً بأن لا أتباهى بها أمام الحراس الروس عندما أغادر منطقة الاحتلال الغربية.

عدت إلى بودابست في قطار الصليب الأحمر والتحقت بأمي في بودابست التي انتقلت لتعمل في وظيفة أفضل. بمساعدة الأموال الأمريكية التي جلبتها معي، استأجرت وأثثت شقة لنا في بناية قديمة مهيبة تقع على قمة تلة روز في بودا. وحيث أنه لم يكن لدينا أصدقاء أو أقارب في العاصمة، عشنا في البدء حياة وحدة إلى حدّ ما. كانت أمي تعمل وأنا في المدرسة، في المساء كنا نخرج للعشاء ومشاهدة مسرحية أو فيلم. كانت تسمح لي في مثل هذه المناسبات بحمل المحفظة والدفع، رغم أنها كانت المتكلفة بتنظيم مصروفنا. كنت قد أصبحت صبياً طويلاً يبدو أكبر من عمره، وسررت لأن أرى بصحبة امرأة فاتنة مثل أمي. في الأربعين،

كانت لا تزال جميلة ولابد أن لها حياتها الخاصة ـ مثلما كانت لي أحلامي الخاصة وغصّاتي المؤلمة ـ لكن كانت صداقتنا ربما ممكنة فقط بين أرملة وابنها. منعتني كلياً من عرض مسرحيتي الشعرية على أحد، قائلة إننا لسنا بحاجة للمال بعد. مع ذلك، قرأت باهتمام كل ما كتبته، وكثيراً ما عززت ثقتي بنفسي عند سؤالي عن كتب ينبغي أن تقرأها. غير أني لم أعد ذاك الصغير ولا الكبير ما فيه الكفاية لأن تفشي لي بكل ما في قلبها. ولم أشعر بدوري أن بمقدوري مناقشة مشاكلي الملحة المتعلقة بالنساء معها.

في هذا الخصوص، كانت العودة إلى الحياة الهادئة لتلميذ صدمة عظيمة بقدر ما كان تركها قبل سنتين. لم تعد هناك سيدات لطيفات لألمسهن عرضياً عندما يأتين لزيارة أمي، لم تعد هناك بنات هوى للتمتع بهن. لذا كان علي أن أواجه الفتيات المراهقات.

انتهزت بطبيعة الحال كل فرصة لفعل ذلك. أكثر مناسبة مؤلمة ومحيرة أذكرها، كانت حفلة رقص مدرسية ـ مثل تلك التي كنت سأذهب إليها في شيكاغو لو أن الكولونيل وايتمور تبناني. كانت في هنغاريا مدارس مخصصة للبنين وأخرى للبنات، لكننا كنا نجتمع في حفلات مشتركة في صالة الرياضة. جاء الاختلاف المؤثر المرئي من حقيقة أن لقاءاتنا كانت تتم برعاية منظمة الشبيبة الشيوعيين. لم تكن صالتنا مزينة للرقص بورق الكريب المجعد والبالونات فقط، بل بصور ضخمة لماركس، لينين وستالين، الذين نظروا إلينا من فوق حبال التسلق. من الغريب، أن الألحان التي كنا نرقص على نغماتها أمريكية، وكثيراً ما كانت التي يستمع إليها الجنود الأمريكيون في المخيم. كان خيار الأغاني يترك لمدرس

الرياضة البدنية، الذي كان يجلس في ركن مع جهاز مشغل الأسطوانات ويتجاهل بذاءاتنا الصغيرة بعزم.

في وقت متأخر من بعد ظهر يوم الجمعة ذاك، كنت أراقص فتاة سمراء نحيلة تدعى بيرنيس. طلبت منها الرقص معي بسبب لمحاتها السريعة الغامضة، التي أعطتني الأمل بأن شيئاً قد يحدث بيننا. وإلا فإنها كانت غير جذابة، لها وجه نحيل منقوص التغذية وجسدها كله عظام. كان باستطاعتي الاحساس بنهديها الصغيرين عندما كنا نرقص ملتصقين معاً، كما أحسست بأزرار قميصها الحادة أيضاً. قهقهت وهي تتقدم إلى الأمام وترتد للخلف مع الموسيقى بارتياح مثير، عندما قبلتها على الرقبة تحت الأذنين. طلبت منها موعداً بعد ظهر اليوم التالي، وقررنا أن نذهب لتناول المعجنات في شتيفانيا سوكراسدا. أرجعت رأسي، ونحن نرقص، إلى الخلف قليلاً وضغطت عليها بنصفي السفلي. توقفت بيرنيس عن القهقهة وضغطت بنفسها إلى الأمام، وراحت هي أيضاً تحرك جسدها من جانب لآخر. بعد وهلة حدث ما لم يكن هناك مجال لتجنبه: بدأت أنتصب مقابل بطنها. في البدء احمرت خجلاً وكشرت، ثم ارتدت إلى الخلف قليلاً. لاحقاً عندما لم تعد قادرة على تجاهل ما اعتراني، ورغم المسافة الطفيفة بيننا، دفعتني إلى الخلف وانطلقت تقهقه بهستيرية. ركضت وتركتني أقف وحيداً وسط الصالة الرياضية.

وجدتها جالسة فوق حصان الوثب جلدي السطح قرب الحائط مع مجموعة من صديقاتها، يتحدثن ويضحكن. اقتربت منهن، فأطلقت فتاة صيحة دهشة «آه، لا، لا!» صرخت ووضعت يدها على فمها. تفرقن عندما رأينني مقهقهات برعب، كما لو أن مساً

من الجنون أصابهن. طلبت من بيرنيس العودة إلى صالة الرقص، لكنها رفضت. التفت غير هياب وأنا لا أزال ثائراً ومنفعلاً، إلى فتاة من بين الأخريات. صرفتني بازدراء: «لن أرقص معك!». احدى مصائب كون المرء يافعاً أنه لا يدري متى يهزم. سألت الفتيات الأخريات الجالسات على حصان الوثب للرقص معي، فلم أتلق منهن جميعاً سوى رفضاً قاطعاً. انزلقت فتاة من على الحصان وانطلقت إلى صالة الرقص، ناشرة خبر انتصابي. عندما بدلت الاسطوانة، بادرت فتيات افترقن عن رفاقهن في الرقص، غير أنهن انفجرن ضاحكات وتوردن خجلاً عند رؤيتي. لم أفقه لم كانت رغبتي في بيرنيس النحيلة سخيفة ومروعة إلى هذا الحد. أمر عادي جداً، قلت في سريرتي مصراً، مع ذلك انتابني شعور بأني مثل منحرف. تسللت خلسة من الصالة وعدت إلى البيت كئيباً. هناك حكاية أخرى لا زلت غير قادر على ذكرها دون احساس بالمهانة. متصرفاً وفق الفرضية الخطيرة والحمقاء أن الفتيات القبيحات ينبغي أن يكن بالضرورة ألطف من الفتيات الجميلات، دعوت مرة فتاة بشعة حقاً إلى السينما. في الوقت المحدد كنت في انتظارها أمام قاعة العرض، أنيقاً وشعري مقصوصاً حديثاً. جاءت متأخرة ربع ساعة ومعها صديقتين. عندما رأيتني شرعن في ضحك نصف مكبوت، ثم مررن بي دون أن يجبن حتى على تحيتي. في الواقع، لم يكن بإمكانهن نطق كلمة حتى لو أردن ذلك. كن يقهقهن لدرجة لم يكن بوسعهن السير بخط مستقيم ـ كن كما لو أنهن على وشك السقوط. ناظراً إليهن بدهشة وخزي مميت، سمعت فتاتي البشعة تقول «أترين لم أكذب. عندي موعد حقاً».

ذهبت إلى السينما وحيداً، وبكيت في العتمة. لماذا ضحكن؟ هل أنا مقرف؟ ما الذي يبعث على الضحك؟

كنت في بعض الأوقات محظوظاً، بطبيعة الحال، عندما وفت الفتيات بوعودهن وسمحن لي حتى بعناقهن. كان ذلك مثل طائرة تنطلق بسرعة إلى الأمام والخلف على المدرج دون إقلاع. بدأت أشعر بأني لست جذاباً، غير مرغوب به وعديم الحيلة. أي شعور آخر يمكن أن ينتابني بعد أن تغسل فتاة لسانها في فمك، ثم تسحبه بقوة، كما لو أن لقمة منك أكثر من كافية؟ لا ريب أن زملائي في المدرسة قد مروا بتجارب مماثلة مثيرة للأعصاب، لأنه بدا أننا جميعاً نمتعض من الفتيات حتى عندما يستحوذن علينا. ولم يأخذ الأمر كثيراً كي تتحول رغبتنا إلى عداء.

في صباح يوم ما جئت إلى المدرسة متأخراً لأجد الفصل في حالة هياج. لم تكن هناك اشارة لوجود مدرس، وأحد التلاميذ واقف قرب الصبورة منهمكاً يكتب بطبشورة حمراء، بحروف ارتفاعها قدمين وعرضها قدم، كان يغطي السطح الأسود بأكثر كلمات اللغة الهنغارية بذاءة. كلمة مرادفة لعضو المرأة. كان الطلاب الآخرون جالسين على مقاعدهم، يحاولون أولاً نطق الكلمة الحمراء بإيقاع نصف ضاحكين وبتلعثم. «بيـ نا! بيـ نا!» ولإعطاء وزن للكلمة، راحوا يدقون الأرض بأقدامهم والمقاعد بقبضاتهم. كانت وجوههم حمراء بفعل الإثارة والتوتر الجسدي، وسرعان ما صاحوا بالكلمة بصوت مرتفع، مع ذلك بإحساس لطيف لإيقاعها. ارتفع الغبار عن الأرض من ضرب الأقدام تاركاً لمسة عاصفة أخيرة لهذا الهيجان المفاجئ. «بي ـ نا! بيـ نا!». وجد الصبية ما يروي غليلهم على أسئلة مثل «ماذا تظن أنك فاعل؟

وماذا تريد أكثر؟» لم تكن هناك ريبة لما عنوا وأرادوا وهم يدوسون الأرض بأقدامهم، يدقون مقاعدهم بعنف ويجأرون بالكلمة الممنوعة، أو بالأحرى، ما عنينا وأردنا جميعاً، لأنني أسرعت إلى مكاني وانضممت للمجموعة. كان بوسعي الاحساس بخشب الأرضية يرتخي والجدران تهتز والعمارة كلها تعيد صدى صرخة معركتنا: بيـ نا! بي ـ نا!. فتحت احدى النوافذ المهتزة على مصراعيها فطارت الكلمة الحمراء إلى الشارع. في ذلك الجزء من بودا القديمة، ببناياته المنخفضة وانعدام حركة مرور العربات تقريباً، لابد أن أصواتنا انتقلت بالفعل بعيداً، وأوقفت السيدات العجائز، ربات البيوت وسعاة البريد عن القيام بأعمالهم. ألهمتنا تلك الفكرة المفرحة بأن العالم الخارجي يصغي لنا بدهشة وترقب لبذل مزيد من الجهد. شرعنا الصراخ بصوت أعلى، عندما فتحت النافذة. مع ذلك لم يفقد ارتفاع الصوت المعنى، لم يكن ضجيجاً مكتوماً وملتبساً. كانت الكلمة، واضحة وحقيقية دون التباس، تبث عالياً لتحط بالمدرسة والمدينة إلى الأسفل، وتصيب أعداءنا وأصدقاءنا على حد سواء بذبحات قلبية. كان فصلنا في الطابق الثاني، توقعت أن يسقط بنا إلى الطابق الأرضي، ويحط فوق الصف الثامن. غير أني داومت على ضرب الأرض بقدمي والمقعد بقبضتي بقوة لدرجة أني عانيت من الآلام بعد ذلك عدة أيام.

أخيراً جاء المدير مندفعاً إلى الفصل، توقف فجأة عندما رآنا، كما لو أن الرعب أصاب أوصاله بالشلل. شرع الصراخ بنا، لكننا كنا نشاهد شفتيه تتحركان، دون أن يكون بإمكاننا سماع كلماته، فلقد طمست «بي ـ نا!» صوته. لم ينجح في تهدئتنا قبل ظهور شرطيين في الباب. بعد هدوء قصير مشوب بالقلق، استقر فيه

الغبار ثانية على الأرضية وحناجرنا، سألنا بصوت خافت «هل جننتم جميعاً؟».

بقي الشرطيان في الباب يصغيان لكلمة المدير القصيرة، يومئان بالموافقة بهز رأسهما اعراباً عن صدمة زائفة. كان المدير رجلاً نحيلاً، أشقر يميل للصلع بشكل يبعث على الرثاء، ونطلق عليه اسماً مستعاراً «الشاذ» رغم علمنا أن له زوجة وخمسة أطفال، وعلى علاقة بسكرتيرته. حاول المربي التقدمي، أن يبين لنا صبيانية فعلتنا. لم يعظنا حول الخطيئة والبذاءة، بل العواقب الاجتماعية لقلة الأدب، عدم اعتبار الآخرين وضرورة التقيد بالعقل. مع ذلك كان بنفسه في حالة غير عقلانية لأنه ذهب، فتح النافذة ثم أغلقها في محاولة عديمة الجدوى لإبقاء صوتنا في الحجرة، بعد وقت من طيرانها بعيداً. في الواقع، كان في غاية الارتباك، إذ عندما فشل في تكرار قولنا بشكل لائق وبعض المواربة، لفظ الكلمة بنفسه. لم يثر ذلك سوى رجة طفيفة. شعرنا بالتعب والاعتداد بالنفس، راضين لأننا أبلغنا رسالتنا. سمعت لاحقاً أن مدرس الرياضيات، الذي ذكر غيابه عن الفصل عند المدير بشكل درامي، حرم من راتب أسبوع. لكن لماذا على المدير أن يعاقب مدرس الرياضيات؟ فكرت أن عليه معاقبة تلك المرعبات الضاحكات بعصبية، الملائكة الصغيرة الخجولة اللاتي يصدمن بسهولة.

لم تشاطرني أمي رأيي في الفتيات. كلما كنت أصارحها بمشاكلي البريئة جداً ـ مثل تأخر الفتاة التي وعدتني وجاءت مع صديقتين ثم مروا بي دون تحية، كانت تخبرني أن لا أقلق «هذه الأمور ستمر ـ كلها جزء من عملية البلوغ» تقول. غير أني لم أود انتظار مرور مشاكلي ـ بل التخلص منها.

كان فيلم كلود أوتان ـ لارا «الشيطان في الجسد» حديث بودابست آنذاك، ولقد شاهدته عشر مرات على الأقل. كان يدور حول علاقة حب بين صبي يافع وامرأة فاتنة مشبوبة العاطفة أكبر منه. عندما شاهدت ميشلين بريسل تلاطف جيرار فيليب ليمارس معها الحب، وصلت إلى قرار أن مشاكلي تعود لكون الفتيات اللاتي أواعدهن كن صغيرات السن. كنا نرزح تحت وطأة توتر جهلنا المشترك. أخبرنا مدرس الإنجليزية أن «روميو وجوليت» كانت تدور حول تغلب قوة حب الشباب على الموت. عندما قرأت المسرحية، أيقنت أنها حول تغلب قوة جهل الشباب على الحب والحياة. من سوى يافعين أحمقين يمكن أن يقتلا أنفسهما في لحظة اجتماعهما أخيراً، بعد كثير من المتاعب والمكائد؟

لا زلت أعتقد أن على الشباب والفتيات أن يتركوا كلاً في حاله، إذا توفر لهم الخيار. فتيات اليوم ألين عريكة ـ لينات لمصلحتهن ـ وهن اللاتي يصبن بالأذى أكثر من الشباب، لكن في الحالتين، يمكن للمراهقة أن تكون جحيماً، وعليه لماذا علينا أن نتقاسمه معاً؟ محاولة ممارسة الحب مع شخص غير بارع مثلك، يبدو لي أنه يدرك بالحس مثل الذهاب إلى ماء عميق مع شخص لا يعرف السباحة أيضاً. حتى إذا لم تغرق، ستصاب بصدمة بغيضة. فلماذا تصاب بالأذى؟ كلما رأيت رجلاً يقترب من امرأة بريبة مؤلمة ـ كما لو أنه سيقدم اعتذراً على شي ما، كما لو أنه توقع منها أن تعاني من رغبته عوض مقاسمته إياها ـ أتساءل متعجباً إن كانت الفتيات قد اعتدن على صده.

ولماذا يبدو أن كثيراً من الرجال يعتقدون أن النساء عدوات لهم؟ عندما أسمع رجالاً يضحكون حين يذكر شيء رديء أو

بذيء عن النساء، أشعر كما لو أني عدت إلى شغب الفصل ذاك، عندما حاولنا تحطيم جدران بودا بأعظم بذاءة أمكننا التفكير بها. لكن ليس لهذا الشغب دخل بأي أخطاء تقترفها النساء ـ بل ألهمه حقيقة أن الفتيات اليافعات قد انزعجن لرؤية منظر راية الصبيان الغريبة محلقة.

عرفت فتاة لم تكن سهلة الازعاج. كان كلانا في الخامسة عشرة، لكن يوليكا كانت أطول مني وأقل ارتباكاً. كثيراً ما كانت تحذرني قائلة «أندراش، ينبغي أن لا تحكم على الناس بسرعة. أنت في عجلة من أمرك في كل شيء». كانت سمراء بضفائر، مستقيمة ومتزنة العقل. تقابلنا في الخريف، وأذكر أني ذهبت لزيارتها بعد ظهر يوم شتائي بهيج، حين بدت كسف الثلج عائمة في الجو المشمس عوض السقوط على الأرض. لا بد أن هذا كان بعد عيد الميلاد بقليل، لأن الشجرة المزخرفة كانت لا تزال منتصبة في حجرة الجلوس. لم يكن والداها في البيت، قدمت لي يوليكا الشاي مع كعك البندق وأرتني الهدايا التي تلقتها بما في ذلك قميص نوم حريري كان هدية من أمها. بعد بعض العناق الحار على الأريكة، أقنعتها أن تعرض علي القميص الحريري. انتظرت في حجرة الجلوس، في حين انسحبت لتلبسه، مما بدا وكأنه وقت طويل. أخيراً عادت يوليكا لتظهر في قميص نومها الحريري القرنفلي. بدت عارية للعيان تحت القماش الشفاف، الذي كان يغطيها من الرقبة وحتى القدمين، لا ريب أنه كان مريحاً لها، إذ راحت تتحرك برباطة جأش تامة وتدور حول نفسها كي أبدي إعجابي بطيات جزئه السفلي. أخيراً صار بوسعي رؤية ساقيها الطويلين النحيلين حتى آخر علوهما. في البدء كانت ضفائرها البنية

الثقيلة مدلية إلى الأمام، لكن عندما ألقت بها إلى الخلف تسنى لي رؤية نهديها الجميلين الشبيهين بالإجاص. كانا متدليان في استدارتهما والحلمتان نافرتان بنقطتين داكنتين من وراء الحرير. فمها كان كبيراً سخياً وأنفها غريباً تهزه من جانب لآخر ـ اشارة لي لتقبيلها. تلاطفنا ثانية وسرعان ما وجدنا أنفسنا في حجرة نوم والديها فوق فراشهما الواسع. عريتها من قميص نومها الحريري وألقيت به على الأرض. كانت يوليكا مستجيبة مستعدة مثلي، ربما أكثر قلقاً وخشية مما سيحدث. استلقت فوق غطاء السرير، ساقاها الطويلان الجميلان مفتوحان يرحبان بي، غير أنهما عديما الحركة. فتحت عيناها، أغمضتهما بعصبية، ابتسمت ببطولة وراحت ترتعش.

«يوليكا، أنت تخشينني؟» قلت وأنا ضائع عصبي وربما باحث عن سبيل مشرف للانسحاب: «إن كنت لا تريدنني أن أفعل ذلك، لن أفعله. لا أريد أن آخذك عنوة».

«كلا، لا تكن سخيفاً، أنا متوترة قليلاً» قالت مصرة حين لمست أصابعها عضوي المنتصب دون قصد، وضعت يديها خلف كفلها الصغير وأدارت رأسها بعيداً، هامسة بلا صوت تقريباً «لا تولني اهتماماً، استمر!».

حاولت ولوجها، لكنها كانت في غاية الضيق، ففشلت. شرعنا القبلات ثانية، لكن بحذر، ووقفات طويلة بينها ـ ليس كما في حجرة الجلوس بتاتاً أو في الشوارع المظلمة في الليل. حاولت بين فينة وأخرى الولوج، لكني لم أدر كيف تفتح المرأة، فشلت محاولاتي المتكررة دون مساعدة من استجابتها العصبية. أسوأ ما في الأمر، أنها بعد حين سكنت تماماً. حدقت بي بعيون أوسع من

المعتاد، لكن دون خشية أو ارتعاش: استلقت فوق غطاء السرير الأخضر بلا حراك مرتاحة ـ ضجرة قليلاً، كما حسبت. بعد نصف ساعة أو ما شابه، رحت أتصبب عرقاً من فعل جهودي المضنية عديمة الجدوى وشعوري بالخزي.

«الجو بارد» قالت يوليكا جالسة «أجدر بي أن أرتدي قميص نومي ثانية». عندما حاولت الاعتذار، أقفلت فمي بقبلة أخوية. «أظن أن الجو بارد بالنسبة لك أيضاً! سنحاول مرة أخرى في الربيع». استلقينا هناك وهلة نتبادل لمس الأذرع، أخيراً حين غادرت لترتدي ملابسها في حجرتها ـ طالبة مني ترتيب الفراش في تلك الغضون ـ قامت بحركة دوران رقص باليه صغيرة قرب باب الحجرة «لكن قميص نومي جميل، أليس كذلك؟».

وافقت ممتناً، متيقناً أنها غير غاضبة. لكن كيف جعلتها تشعر حيال نفسها؟ كان علي أن أتصل بها في اليوم التالي، غير أني لم أفعل، لا في اليوم التالي ولا أبداً. شعرت بالخجل من مقابلتها.

هذا يعني أن على الفتيات اليافعات عرض قمصان نومهن على رجال أكبر سناً.

في الشجاعة وطلب النصح

قائدي يقودني من الداخل

أتيلا جوزيف

وصلت حد فقداني صوابي تقريباً حين كانت امرأة تضغط نفسها علي في حافلة محتشدة. حاولت التركيز على دراستي واكتسبت الهيئة الجدية لكل هؤلاء الطلاب المتفانين في تحصيلهم وعقولهم مكرسة للمسائل المهمة والاغتصاب فقط. كان لي صديق موسيقي عبقري ضئيل الحجم يرتدي نظارات طبية، كان في الخامسة عشرة أيضاً، لكنه في السنة الأخيرة من دراسة قيادة الفرقة الموسيقية في أكاديمية الموسيقى. قرأت في الصحف قبل بضعة أسابيع أن حفله الموسيقي في ميلانو قد حقق ظفراً عظيماً. كنا في الأيام الخالية نمارس العادة السرية سوياً دون متعة كبيرة. لن أنسى كيف قطع في حجرتي قيادته للأوركسترا في أحد المساءات وألقى بعصا القيادة صارخاً بيأس «اللعنة! هذا بحاجة إلى امرأة!».

كنت أعرف طوال الوقت المرأة التي ستكون أول عشيقاتي - في الواقع، عرفتها منذ أن عدت من النمسا. في عمارتنا الباروكية

الواسعة الشقق، كان هناك زوجان متوسطي العمر يدعيان هورفاث، قابلتهما في المصعد بعد أن انتقلنا للعمارة بقليل. استحسن كلاهما اهتمامي بالأدب وشجعاني على استعارة الكتب منهما، لكن حيث أن السيد هورفاث كان كثير التغيب عن البيت، كنت أستعير الكتب من زوجتهِ مايا، التي درست الاقتصاد، لكنها لا تعمل، وعادة ما تكون في البيت بعد الظهر. لم تدعني قط للجلوس، لكن حين أقرر ما أريد، كانت تناولني الكتب مصحوبة بتعليق لطيف. تأثرت جداً من طريقتها العفوية في ذكر القرون كما لو كانت بشراً.

«هذا قرن سيئ» أخبرتني مرة «ينبغي أن لا تقرأ هؤلاء الروائيين المعاصرين - إنهم محض بدعة. ستاندل، بلزاك، تولستوي - بإمكانهم اخبارك كثيراً عن كيف يشعر الناس ويفكرون في الأشياء».

يعود الفضل لها لأني أصبحت نصيراً متحمساً لروائيي القرن التاسع عشر من الفرنسيين والروس، كما علموني كثيراً عن النساء اللاتي سأقابلهن لاحقاً في حياتي. شيء تعلمته منهم أن النساء كثيراً ما ينجذبن إلى عدم خبرة الشباب اليافعين وسذاجتهم. وهكذا اعترفت أخيراً للسيدة هورفاث بجهلي. عزمت على طلب النصح منها حول التعامل مع الفتيات وطرق إغوائهن.

صادفتها صباح يوم سبت في مدخل بهو عمارتنا المزخرف بقوسه العالي، والشمس تشع من خلال البوابة العالية المفتوحة مضيئة غبار الحجارة والهواء. كانت تخرج رسائلها من صندوق البريد.

«أنت تكبر بسرعة، أندراش» قالت عند رؤيتي «قريباً ستصبح أطول مني!».

طلبت مني أن أقف بجانبها، بالفعل كنا بالطول نفسه. أدهشني أن السيدة هورفاث كانت أقصر من كثير من الفتيات المراهقات اللاتي كنت أخرج معهن. جعلني هذا ألقي نظرة عليها. لم أر كثيراً، لأني شعرت بواحدة من أحاسيس النشوة تلك ومغصات المعدة التي تنتابني دوماً كلما وقفت بقرب امرأة، حتى ولو كانت غريبة غير جميلة في حافلة. اذكر أني لاحظت رسغها النحيل الناعم ولون ردائها الأصفر. لكن كان بوسعي رؤية مايا الآن بوضوح كما بدت دوماً: امرأة صغيرة، سمراء في أوائل الأربعين وقوام في غاية الجمال. كانت نحيلة رقيقة العظام، لكن صدرها وعجزها ضخمان مقارنة بباقي أعضاء جسدها، ومع ذلك منسجمان معها بشكل لطيف. كان جسدها ثنائية غريبة من الروح والجسد: بدت بوجهها الناعم، شفتيها الرقيقتين وكتفيها النحيلين، مخلوقة محيرة مهيبة (لعل هذا سبب حيرتي الطويلة في اعجابي بها كامرأة)، غير أن صدرها وعجزها أظهرا شهوانية دنيوية راسخة.

قالت بنبرة قلقة وهي تسير عائدة إلى المصعد الرومانسي القديم المصنوع من الخشب المحفور والزجاج، حيث صرنا نتلاطف لاحقاً: «لقد كبرت. حذار أن تصاب بالهزال».

كنت في طريقي مبكراً إلى موعد، عديم جدوى كما سأعرف لاحقاً. راقبتها حتى أقفلت مصراعي المصعد، ولأول مرة حاولت تخيلها عارية. رحت أتساءل عما إذا كانت تحب زوجها. لم يكن عندهما أولاد وهما متزوجان منذ ما ينوف على عشر سنوات،

وهل كنت أعرف من قراءة الروايات ما الذي يمكن أن تعنيه عشر سنوات من الزواج للبشر؟

بعد العشاء أخذت الكتب التي لم أكن قد انتهيت من قراءتها لأعيدها لهما، كانت وحيدة رغم أنها كانت أمسية يوم سبت. «أتناول بعض قهوة الإكسبرسو، أتود أن تنضم إلي؟» سألت: «كنت أفكر بعد الظهر أننا لسنا ظرفاء في تعاملنا معك، لم ندعوك مرة للجلوس!»

«لا أتذمر» أجبت محتجاً بسعادة.

كانت المرة الأولى التي أشارت فيها إلى غياب زوجها. «أرغم بيلا على العودة للمكتب ـ يكثرون عليه بالعمل الشاق».

دعتني إلى حجرة جلوسهما الكبيرة، التي طالما أحببتها: حائطان مغطيان بالكتب حتى السقف، أضواء مجللة، مقاعد ذهبية صغيرة وطاولات جميلة صغيرة متعددة. كانت حجرة مؤثثة على الطريقة العصرية، لكن بخفة أناقة التحف القديمة والألوان الناعمة. بينما نحن جالسان، نحتسي القهوة، في أصغر أرائك ممكنة على الطرفين المتقابلين لطاولة منخفضة سألتني عن دراستي. أخبرتها أن المدرسة جيدة، لكن الفتاة التي أخرج معها تسبب لي الجنون بضحكها. لم أتوقع في الواقع رداً، راقبتها خفية وهي تصب القهوة: كان الزران العلويان في ثوبها البيتي المخملي الأصفر مفتوحين، لكن القماش متماسك فوق صدرها.

«ربما تضحك لأنك تثير أعصابها. حين كنت صغيرة، كنت أضحك كثيراً» قالت.

«أنت أذكى من فعل ذلك. لا يمكن أن تضحكي طوال الوقت» قلت بإصرار.

«حسناً، لم أكن أفعل ذلك عند التقبيل».

ربما لو لم أكن أقرأ «آنا كارنينا» لما كنت قد دهشت كونها تشير إلى مسألة حميمية مثل التقبيل إلى ولد غريب جاء يستعير كتباً. لكنني شعرت بأن تلك الثقة القليلة لا بد وأن لها معنى. غمرت بالأمل.

«فتياتي يضحكن حتى عند التقبيل» قلت كاذباً وأنا أريدها أن تدرك أني وصلت إلى هذه المرحلة مع النساء.

مع ذلك، كان واضحاً أن مايا أكثر اهتماماً بالمشكلة العامة.

«أظن كونك ولداً يجعلك أقل عصبية من لو كنت فتاة» قالت مذعنة «الأولاد من يجعلون أنفسهم حمقى».

«هذه مشكلتي. لا أحب أن أجعل من نفسي أحمق».

رمقتني بنظرتها الودية الشاردة، لا نظرة الأم بالتأكيد، بل ربما عاملة ذكية متعاطفة في الشؤون الاجتماعية.

أخذت نفساً عميقاً وقلت باندفاع وتهور «لم أقدر على جعلها تمارس الحب معي» كان من المفترض أن تكون هذه جملة قصيرة عفوية، لكن صوتي ارتجف وسطها.

«كثيراً ما يحدث هذا مع الرجال البالغين أيضاً. لذا لا ينبغي أن تنزعج» بدت مستأنسة من شيء ما.

«لكن لم تكن عندي عشيقة ولا مرة واحدة، وعليه فالأمر أسوأ بالنسبة لي» واجهتها بجرأة «مشكلتي أني لا أعرف النساء بما فيه

الكفاية. لا أدري ما أقول في اللحظة المناسبة. أظن علي أن أسالك، فأنت امرأة وينبغي أن تعرفي».

«عليك أن تتكلم مع زوجي. ربما يمكنه إسداء بعض النصح لك».

من الواضح أن لزوجها خليلة وهي تعلم ذلك.

«لماذا! أعنده صديقة؟»

ابتسمت لي متأملة بمسرة أقل، لكن باهتمام أكبر بي (أو هكذا شعرت). أذكر جيداً من هذه الحادثة وجهها: دهشت لمدى تعبيريته. إحدى عوامل انزعاجي الرئيسة آنذاك كانت شحوب وجوه صديقاتي اليافعات. ما أن تعتريهن العصبية حتى تصبح وجوههن أقنعة مشدودة ملساء: لا وجود لتعاريج فيها تتحرك من هنا إلى هناك كي تعطيني اشارة على ما يفكرن به، غير أن وجه مايا، بخطوط عمرها الأربعين الجميلة، عبّر عن كل خفايا أفكارها ومشاعرها. وفي حين لم تكن تعابيرها الساخرة ما أصبو إليه، إلا أنها ساعدتني على حفظ توازني وأنا جالس على حافة الأريكة الصغيرة.

«لنرى» قالت مفكرة «ما الذي يمكنني إخبارك به عن الفتيات؟ شيء نافع».

«أخبريني ما تفكرين به فقط ـ لماذا لا تود الفتيات مصاحبتي إلى الفراش؟»

«أظن أنك عصبي جداً»

لزمت الصمت بعد ذلك وهلة، اصغي إلى نبضات قلبي تدق كجرس.

«لكن لا أعتقد أنك ستواجه متاعب كثيرة، فأنت ولد وسيم».

منحتني هذه الملاحظة المهدئة ما يكفي من القوة للنهوض، والذهاب إلى الطرف الذي تجلس قربه من الطاولة المنخفضة لأسكب لنفسي بعض القهوة وأربض عند قدميها. وجهها المحدق بي من علٍ انتابه الآن حب استطلاع من النمط المريح، لكن بوميض دفء في العين. شعرت أنها تنتظر مني القيام بفعل شيء ما. أردت أن ألمس ساقها، غير أن ذراعي لم تحس بالقدرة على الامتداد. بدا كما لو أن العضلات فقدت الاتصال بالعصب المركزي فجأة ـ أحسست بأني أرتدي أطرافي مثل ملابسي، وأنها لا تخص في الواقع جسدي. لأتغلب على خوفي الغبي، حاولت أن أستعيد ذكرى كل الجرحى والموتى الذين رأيتهم في الطريق إلى سالزبورغ. حاولت التفكير في هيروشيما، الحرب العالمية، إقناع نفسي أن هذا الأمر، مقارنة بكل مصائب الكون، بالغ الصغر. في أسوأ الأحوال قد تقول «اتركني لوحدي» أو شيئاً من هذا القبيل. من المؤكد أن هذا حدث بأهمية ضئيلة. لكن كل ما استطعت فعله هو لمس كاحلها، كما لو أن الأمر حدث بالصدفة، ثم وقفت منتصباً بسرعة.

طلبت كتابين آخرين وعدت إلى البيت. ستكون هناك مرة أخرى، قلت في سري. لا ريب أنها منجذبة لي، وإلا لكانت طردتني من بيتها.

أويت للفراش منهكاً محبطاً.

في اليوم التالي، كنت على موعد مع آجي، فتاة كنا نتلاطف معاً خلسة. أخذتها إلى السينما وأخبرتها أني وقعت في حب فتاة أخرى وأعتقد أننا لا ينبغي أن نتقابل ثانية. أخبرتها ذلك خلال

عرض الفيلم، آملاً أن لا تناقشني وتزعج المشاهدين. بالفعل لم تفعل. لاحقاً ضحكت حتى على نكات الفيلم. أكد لي هذا قلة اهتمامها بي. خجلت من طريقة ملاحقتي لما لن تعطيه لي، لكن ما أن خرجنا من القاعة، عندما كنا لا نزال في البهو، حتى راحت تقهقه بعصبية.

«حسبت أنك تحبني»

«نعم، لكنك قلت إنك تودين أن تبقي عذراء».

«قلت إني سأبقى عذراء حتى سن السابعة عشرة»

«هذه كذبة» اعترضت «لم تقولي شيئاً مثل هذا»

«لم أفعل؟»

وقفنا في البهو بمحاذاة صور فيلم العرض القادم. وضعت آجي ذراعها حولي ـ لم تفعل ذلك من قبل، العكس هو الصحيح ـ وراحت تتكلم بصوت مثير عميق.

«فقط حتى أصبح في السابعة عشرة، وعيد ميلادي سيكون الشهر المقبل».

لاحظت آنذاك وفي كثير من المناسبات منذ تلك اللحظة أنك عندما تستعد للانفصال عن فتاة تصبح فجأة رقيقة، حتى وإن كانت لا توليك اهتماماً.

«تعنين أنك ستمارسين الحب معي الشهر المقبل؟» سألت آجي كمتحفز للقتال.

«آه، لم أقل ذلك. ليس بوسعك تخطيط هذه الأمور، أليس كذلك؟» محمرة الوجنتين ريانة عادت تقهقه بسعادة.

«إذاً ما كل ذاك الحديث عن عيد ميلادك؟ ما الذي ستحصلين عليه منه، اللهو بألعاب سخيفة مثل هذه؟».

تركتها هناك في البهو، ورغم أن قاعة السينما كانت في وسط المدينة على بعد ثلاثة أميال من بيتنا، شعرت ببهجة منعشة فسرت عائداً على القدمين. ليس هناك مثل تركك فتاة تلعب معك أخذاً وردّاً، وإلا ستبقى بتكشيرة يائسة، منجذباً إليها وبائساً. ليس هناك مثل الاحساس العظيم بقطع وتر احباطك، المغادرة للأبد حراً ومستقلاً. قد يبدو غريباً، لكن الانفصال عن الفتاة المتينة غير الناضجة كان من أعمق تجاربي العاطفية. شعرت بإحساس فعلي من الحرية: أحسست بقوة لا تقهر ـ ربما لأني تمنيت امرأة جميلة، جادة وذكية ـ ورغم أنها كانت مجرد حلم آنذاك، فلقد شعرت بالفعل أني أحرر نفسي ليس بالابتعاد عن آجي فقط، بل عن كل الحماقة عديمة الجدوى والمسرة التي حسبت حتى تلك اللحظة أن ليس بإمكاني العيش دونها. شعرت وأنا عائد إلى البيت سيراً من السينما بعد ظهر ذاك الأحد المتأخر بأني سيد مصيري ـ حلّ الربيع مرة أخرى وأنا على وشك بلوغ السادسة عشرة.

بعد يومين، عندما أعدت الكتب التي استعرتها، كان السيد هورفاث في البيت: كانا جالسين في حجرة الجلوس يقرآن ويستمعان للموسيقى. بدلت الكتب، شكرتهما وغادرت لاعناً نفسي. مهما كان ما أملت به، بدا أنه في مخيلتي فقط.

مع ذلك عدت إلى شقتهما لأستعير كتباً أكثر وأكثر: في الواقع قبل وقت كنت أزورهما مرة كل يومين، لكن هذه المرة لم أكن أؤمن باللهو غير أني ابتهلت يائساً أن لا يكون زوجها في البيت. يبدو أن الله استجاب لدعائي، وجدت مايا وحيدة طوال

الأسبوعين القادمين باستثناء مرة واحدة. أحببتها أكثر مرتدية قميصاً وتنورة من معطفها البيتي الأصفر : يمنح ثوب القطعتين تأكيداً أكبر لقوامها الهش لكن المليء ـ فكرت أنها أعظم امرأة حسية في العالم. كانت دوماً ودودة لكن شاردة، وطريقتها هذه (التي لاحظتها في كثير من النساء المثقفات) أخذتني إلى بحر عاصف من الأمل واليأس. ابتسمت لي ابتسامة دافئة لكن ساخرة ـ أخبرتني لاحقاً أنها كانت تتساءل كم من الوقت سأستغرق قبل مبادرتها ـ لم تفعل شيئاً لتخلصني من شكوكي حول مشاعرها. لكن وميض عينيها كان منارة مرشدة. رغم أنها لم تقربني منها قط أكثر، داومت على جعلي أهيم حول شواطئ جسدها. حين كنت أرى ذراعها العاري أو جلدها المكشوف عبر ياقة قميصها المفتوح (بشرتها ذهبية بنية، كما لو أن الشمس لوحتها دوماً). فكرت في سري، الآن سأذهب إليها وأقبل كتفها. واحسرتاه لم أفعل شيئاً أكثر جرأة من الاستمرار في سؤالها النصح حول ما علي فعله لإغواء من أخرج معها، متظاهراً أني لا زلت أخرج مع تلك الفتاة المراهقة المتينة. الآن بدت كل الفتيات، بطبيعة الحال، مراهقات مقارنة بمايا. شعرت أن صوتها الموسيقي الناعم يلاطفني كأنامل دافئة، حتى عندما قالت شيئاً أحرجني بالفعل.

«لا ينبغي التظاهر بأنك تقرأ الكتب بسرعة» قالت لي في أحد المساءات «يمكنك المجيء في أي وقت تود تبادل الحديث فيه».

أخيراً فكرت بجملة ذكية لمبادرتها. قررت ان أدعها تعرف أني لم أعد أهتم بالجميلات المراهقات، ثم أقول: «أخبريني، ما علي فعله لتمارسي الحب معي؟» خططت أن لا أنظر إليها عندما أقول ذلك، وأنظر خارج النافذة إذا ساءت الأمور. لا أهمية لرد فعلها،

سأعرف على الأقل أين موقعي. كنت أقرأ «الأحمر والأسود» للمرة الثانية وعلى يقين أن جوليان سوريل نفسه لن يقدر على استنباط أسلوب أكثر فاعلية. في طريقي إلى شقتها، كنت كلما صعدت الدرج عوض المصعد أقف في البقعة التي بها مرآة في الحائط وألتفت لأرى منظري في المرآة. كنت أقول بصوت مرتفع: «أخبريني ما علي فعله لتمارسي الحب معي؟» تدربت أيضاً على ابتسامة ساخرة من النفس قليلاً، حسبت أنها ملائمة. لم أشك في نجاحي، مع ذلك فشلت في نطق جملتي مهما تدربت عليها. تبخرت ثقتي ما أن فتحت الباب وابتسمت لي.

بعد أسبوعين من العرض الكئيب للجبن والضعف، ازدريت فيهما نفسي، قررت أن أزورها بعد الخروج من المدرسة مباشرة في بعد ظهر مبكر، حين من غير المحتمل أن يكون السيد هورفاث في البيت. قررت أن أتكلم هذه المرة. صعدت الدرج (كانوا يسكنون طابقين فوقنا) وأتوقف بعد كل درجة كي أرجئ لحظة المواجهة.

كنت أتخيل نفسي وقد عدت إلى الأسفل متسماً بالألم والمرارة لأني لم أملك الجرأة لقول أي شيء «هذه المسألة السخيفة» فكرت ستستمر إلى الأبد ـ حتى يقتلها الملل مني. عندها لن يكون بوسعي حتى زيارتها». حين نظرت في المرآة، رأيت نفسي أرتجف، فقررت أني لست مستعداً لقول جملتي، لست بحالة أفضل من المرة السابقة، أو التي قبلها. درت وعدت إلى شقتنا.

ثمة فقرة في «الأحمر والأسود» جالت في ذهني كثيراً تلك الأيام. إنها حول خشية الشاب جوليان سوريل من مبادرة مدام دو رينال، التي كانت تستخدمه كمدرس خاص لأطفالها. يقرر جوليان اكتشاف مشاعر مدام دو رينال تجاهه، بأخذ يدها في يده

عندما يجلسان متحاذيان في الحديقة في المساء بعد حلول الظلام، حيث لا يمكن لأحد أن يراهما. عندما عدت إلى شقتنا الفارغة في بعد ظهر ذلك اليوم (كانت أمي لا تزال في المكتب) أخذت الكتاب وأعدت قراءة الفقرة.

كانت ساعة القلعة قد قرعت معلنة الساعة العاشرة إلا ربعاً، ولم يجرؤ بعد على التصرف. مغتاضاً من جبنه، قال جوليان في سره «حين تقرع الساعة العاشرة، سأفعل ما وعدت نفسي بفعله طوال المساء، أو سأذهب إلى حجرتي وأفجر دماغي».

بعد لحظة أخيرة من الترقب والقلق، خرج فيها جوليان عن طوره تقريباً، دقت الساعة فوق رأسه معلنة العاشرة، شعر بكل دقة مميتة تدوي في صدره بقوة ضربة بدنية.

أخيراً والدقة الأخيرة لا تزال تذبذب، مدّ يده وأمسك بيد مدام دو رينال، التي سحبتها في التو. جوليان، الذي لم يعد يعرف ما الذي كان يقوم به، أمسك بها مرة أخرى. رغم أنه كان بنفسه يرتجف بفعل العاطفة، دهش لبرودتها الجليدية. ضغط عليها بتشنج. بذلت جهداً لسحبها، لكن تركتها أخيراً في يده.

بعد قراءة الكلمات مراراً وتكراراً، ألقيت بالكتاب على الفراش، انطلقت مندفعاً خارج الشقة وأخذت المصعد إلى فوق «إذا لم أملك الجرأة هذه المرة» قلت بتصميم «سأذهب إلى الدانوب وأغرق نفسي» قررت أن أرجئ انتحاري حتى ما بعد حلول الظلام، لأن المارة قد يروني في النهار ويخرجوني من النهر كما تصطاد سمكة. عندما قرعت جرس باب عائلة هورفاث، لم أكن متأكداً هل سأقدر على طرح سؤالي على مايا، غير أني كنت على يقين أني إذا فشلت سأقتل نفسي تلك الليلة.

في التحول إلى عشيق

... مثل سحر الربيع! ولا أعتقد أني أتكلم عن شيء آخر سوى الحب بمعناه الجسدي التام. حتى ذلك، حقل نخبة قليلة.

الكسندر كوبرن

بكل المعايير. نصبت نفسي سيد الشرف

جون كليلاند

يبلغ ارتفاع شقق عمارتنا، المصنوعة من الخشب السميك المغطى بدهان أبيض مصدع، نحو عشرة أقدام، وفي كل منها أربع دوائر متحدة المركز في وسطها ثقب باب زجاجي. الزجاج والقرص القصديري الأصفر خلفها يلمع متألقاً حتى في شبه عتمة الرواق. وحيث لم يكن هناك صوت من الداخل سوى صدى الجرس الذي قرعته، رحت أحدق في الزجاج المشع ثم أحوم بعيني حول الدوائر الناتئة. بعد كل هذا الاعداد من الاثارة والتفكير ـ يمكنني القول حتى الروحي ـ جئت لزيارة مايا عندما لم تكن في البيت. اتكأت على الجرس براحة يدي وقد أصبت بالدوار، فأطلق

رنيناً مرتفعاً غير منتظم عديم النغم. كان تعبيراً موسيقياً كاملاً عن حالتي الذهنية، أذكر أني استمتعت بالإصغاء إليه. إذا كانت مايا خارجة، فمن المؤكد أن هذا ليس خطئي، ولا يتوجب علي الذهاب إلى الدانوب. هكذا جزمت وأنا أضغط الجرس دون انقطاع وبالجرأة المسرة التي تغمرنا عندما نواجه خطراً لا وجود له. ليس بوسعي وصف تأثير صوت وقع الأقدام البطيء الناعم القادم من الداخل عليّ، سوى القول إني لم أضغط طوال عمري جرساً قط ثانية أكثر من ثانيتين.

لم تكن من عادة مايا أن تنظر من ثقب الباب، غير أني سمعت الآن صوت طقطقة مزلاج القرص القصديري الصغير يفتح جانباً، خفضت رأسي لأتجنب نظرتها. فتحت الباب لكنها لم تدعوني للدخول كالعادة. وقفت في الممر وهي تضم معطفها البيتي الأصفر غير المقفل بيديها، ونظرت إليّ منزعجة ناعسة.

«آسف» تمتمت «لم أقصد أن أوقظك. ظننت أنك في الخارج». كتمت تثاؤباً وقالت: «إذن لماذا كنت تقرع الجرس؟». لم أستطع التفكير في شيء أقوله، لذا حدقت للأسفل في قدميها الحافيين.

«آه، حسناً، تفضل. اظن أني أنام كثيراً»

التفتت مايا داخلة فتبعتها عبر الممر الضيق الخالي من الأثاث باستثناء رسومات يابانية معلقة على الجدران. كان معطفها البيتي مجعداً، ومن الخلف بدت غير جذابة، لكن لم أدع حواسي تخدعني. فكرت أني وجدتها غير جذابة لأني كنت خائفاً. كان في نهاية الممر بابين :واحد إلى اليسار يفضي إلى حجرة الجلوس، وواحد إلى اليمين يقود إلى حجرة النوم. أغلقت باب حجرة النوم لتحجب منظر الفراش غير المرتب، واستدارت إلى حجرة الجلوس.

جلست غير مرتاحة على أريكة صغيرة وبقيت أنا واقفاً، مدركاً أني شخص بغيض. مع ذلك ساعدني وضعي الغريب في الواقع على الكلام: بقدر ما كنت خائفاً أن أطلب منها أن تمارس الحب معي، وجدت ملاطفة امرأة ناعسة في حديث أكثر صعوبة. استنشقت نفساً عميقاً ونظرت في عينيها نصف المغمضتين.

«عزمت على إلقاء نفسي في الدانوب إذا لم أطلب منك ممارسة الحب معي اليوم».

تساءلت هل أضيف جملتي الافتتاحية المعدة مسبقاً، لكنها بدت الآن زيادة غير ضرورية. استرحت لأني وجدت جرأة للكلام، وأني لا أحفل في هذه اللحظة إن أجابت بنعم أو لا.

«إذن سوي الأمر. سألتني والآن ليس عليك قتل نفسك».

«قلت لي مرة لا ينبغي علي أن أهتم إذا بدوت مثل أحمق ـ قلت إن هذا ليس مهماً».

«من غير العدل اقتباس كلماتي ضدي»

على غير عادتها بدت خجولة. سمعت صوتي يرد عليها بحدة «هل ترغبين أن أغادر؟ وهل تريدين العودة للنوم؟».

«أنت مزهو بنفسك جداً... لكن هذا جيد» قالت بالوميض الدافئ ومنارة مرشدي تضيء في عينيها. نهضت لتهديني قبلة على غروري. لم يقبلني أحد على هذه الشاكلة من قبل، وبالكاد استطعت البقاء واقفاً على قدمي. مددت يدي الآن تحت معطفها المفتوح لأضم جسدها الحار. أخيراً بلغت مرامي. تراجعت على رؤوس أقدامها، ونحن لا نزال في عناق إلى الحجرة بالسرير المزدوج غير المرتب ـ ثم فجأة أبعدتني عنها.

«ينبغي أن أضع الحجاب الواقي وأستحم. الحمام الساخن يجعلك أكثر حسية».

اختفت، بعد قبلة وداع سريعة على الأنف، داخل الحمام. لم أكن أعرف ما هو الحجاب الواقي، لكن حاجتها لجعل نفسها «أكثر حسية» للمناسبة جرحت كبريائي. لا يمكن أني أعني لها كثيراً، فكرت وأحبطت فجأة، ثم وأنا أصغي لصوت ماء حمامها، رحت أسير في الحجرة من طرف لآخر، مندهشاً لسهولة الأمر، أو بالأحرى فخوراً بنفسي.

خلعت ملابسي ودلفت تحت الغطاء. عادت وتسللت إلى جانبي. بينما كانت تضغط رأسي على صدرها الصلب الذي كان مثل الوسادة، وتقبل عيني المغمضتين مددت يدي أسفل لألمس جسدها الدافئ. يقال إن المرء يرى قبل الموت حياته كلها في لحظة. وجدت أن هذا صحيح في دروب الألب النمساوية المتعرجة بين الجيوش الروسية والألمانية، ما أن شعرت يقيناً أن الشظايا المنثارية الصارخة على وشك الهبوط على جمجمتي، حتى رأيت في لحظة، كما على شاشة سماوية واسعة كل أحداث سنوات عمري الإحدى عشرة والنصف. مررت بهلوسة مماثلة وأنا مستلق بجانب مايا، ضاغطاً نفسي إليها ـ ليس ما قبل الموت الآن، بل ما قبل الحياة. رأيت بنت الجيران التي لعبت معها الطبيب والمريض في سن الخامسة. كنت قد نسيتها تماماً، لكني الآن معها ثانية، أقارن أخدودها شبه الخفي بغصني الصغير. كان اختلافاً عديم المعنى، غير أن أمها ضربتها بشدة عندما وجدتنا. رأيت صديقات أمي الرقيقات مرة أخرى، أحسست بجسد الكونتيسة يتقلص وأنا أدنو منها قرب باب الحمام. رأيت الظل الغامض الذي بدا من خلال

سروال الآنسة موزارت الحريري الأبيض، وشعرت بجسد يوليكا البارد والسلبي ذي الخمسة عشر ربيعاً الذي فشلت في ولوجه. أصابتني ذكريات رحلتي الطويلة ملتوية المسالك بالشلل، فأصبحت بلا عون لدقائق بدت طويلة مرعبة. كما لو أنها أحست بما يعتريني، راحت مايا تلمس خلف عنقي وعمودي الفقري بأناملها الدافئة حتى انتصبت ثانية.

قادتني داخل جسدها، وما أن أصبحت هناك حتى شعرت بالرضا فلم أبد حراكاً خشية إفساد كل شيء. بعد وهلة قبلت أذني وهمست «أظن أني قد أرهز قليلاً».

ما أن تحركت حتى قذفت مباشرة. ضمتني مايا بعاطفة كما لو أن أدائي كان أعظم ما مرّ عليها. سألتها، وقد شجعني رد فعلها السعيد إن لم يزعجها فارق السن بيننا.

«أنا فاسقة أنانية» قالت معترفة «وكل ما أهتم به هو مسرتي».

ثم مارسنا الحب من بعد الظهر المتأخر المشمس حتى حلول الظلام. لم أتعلم كثيراً منذ تلك الساعات السرمدية: كانت مايا تعلمني كل ما هناك لتعلمه. مع ذلك «تعليم» هي الكلمة الخاطئة: كانت بكل بساطة تمتع نفسها وتمتعني، وأنا غير مدرك أني أفقد جهلي في اكتشافي دروب مناطقها الغريبة. سرت لكل حركة ـ أو مجرد لمس عظامي ولحمي. لم تكن مايا من تلك النساء اللاتي يعتمدن على بلوغ الذروة كمكافأتها الوحيدة على عمل مضنٍ: وليس ممارسة العادة السرية الباطنية بين غريبين تقاسما سريراً واحداً.

«راقبني الآن، ستستمتع بذلك» حذرتني قبل أن تبلغ الذروة.

خلال إحدى فترات راحتنا، سألتها متى قررت الاستسلام لي.

هل في اللحظة التي كدت أن استسلم فيها وطلبت منها أن تعود للنوم إن كانت تريد ذلك؟

«كلا، اتخذت قراري عندما أخبرتك أنك تكبر بسرعة وطلبت منك الوقوف بجانبي قرب صندوق البريد».

صعقت، فلقد جعل هذا كل مشاكلي وألاعيبي تبدو عديمة الجدوى وسخيفة، وعنى أيضاً أننا أهدرنا أسابيع طويلة ثمينة. لماذا لم تعطني إشارة تشجعني؟» أردتك أن تطلب مني. أفضل لك أن تغوي امرأة، خاصة في المرة الأولى. لم ينس بيلا قط أنه بدأ حياته مع غانية بأجر. لن تتعرض لمشاكل من هذا القبيل. يمكنك الفخر بنفسك».

«كيف يمكنك القول إني فخور؟».

«من المؤكد أن تكون كذلك» قالت.

بقولها مدحت كلينا، حضنتني مايا بذراعيها وفخذيها، ثم التفت دائرة دون أن تبتعد عني، وبذلك صارت فوقي. «ينبغي أن تأخذ غفوة» قالت «ودعني أتكفل بالعمل كله ». توقفنا أولاً لأن مايا شعرت بالجوع، وبينما كانت تحضر شيئاً لنا لنأكله، اقترحت أن أرتدي ملابسي وأهبط لأخبر والدتي أني لم أضع. قالت إن بإمكاني العودة لأن عند زوجها عشيقة (كما شككت) وسيقضي الليلة عندها. أخبرتها أن من غير المفهوم أن يتركها وحيدة من أجل امرأة أخرى. «آه، لا أدري إنها فتاة جميلة» قالت مايا مذعنة دون أي اشارة لمرارة.

على كل، شكراً لتلك الفتاة الجميلة، إذ أصبح بإمكاننا قضاء

الليلة معاً. ذهبت لأكلم أمي. لم أدخل شقتنا، أخبرتها من الباب أني موجود في العمارة، أن لا تنتظر عودتي ولا تقلق.

«أنتم معشر الشعراء» هزت رأسها وابتسمت بحزن، مقدمة الاعتذار الوحيد الذي يمكنها أن تفكر به لتبرير مسلكي الخاطئ. أخذت على نفسي عهداً وأنا متجه إلى فوق، سأشتري لها هدية جميلة غداً.

تناولنا العشاء بعد أن عدت ورجعنا للفراش كي نحس بوجود بعضنا ونتبادل الحديث. بالطبع أخبرت مايا أني أحبها، كما كنت ولا زلت. وسألتها إن كانت تحبني.

«نعم» قالت بجدية «لكنك ستتعلم أن الحب نادراً ما يدوم وأنه من الممكن أن تحب أكثر من شخص واحد في وقت واحد».

«تعنين أن لك صديقاً آخر؟» سألتها برعب.

«حسناً زوجي» أجابت فاتحة عينيها قليلاً «لكن عليك أن لا تقلق. فكرة أن بالإمكان حب شخص واحد هو سبب عيش معظم الناس في حيرة».

أخبرتني أنها تمنت لو أن لهما أطفالاً وتفكر في العمل كمدرسة.

«متى؟»

«ليس الآن، عندما تتركني».

مارسنا الحب مرة أخرى وأخرى، قبل أن كان عليَّ النهوض للذهاب إلى المدرسة.

لم يكن بإمكاننا الخروج معاً «بيلا سيحتج على ذلك» قالت مما جعل الشك يساورني أنه يعرف بأمرنا. كان في غاية الأدب كلما

تقابلنا وغائباً معظم الوقت لمساعدتي. لكن حتى ضمن هذه الجدران الأربعة كان عندنا كل ما نحن بحاجة إليه ـ الطعام، الموسيقى، الكتب وسرير كبير. أذكر جيداً، كممارسة حبنا، احتكاكنا معاً وشم بعضنا بعضاً كما تفعل الكلاب ـ خاصة عادتنا في تقليم أظافر أرجلنا معاً، وأيدينا وأرجلنا متشابكة ومن العجيب أننا لم نجرح بعضنا أكثر مما كنا نفعل.

لا بد أن كل هذا قد ترك أثره على مظهري، أو على الأقل سلوكي: بدأت ألاحظ اهتمام النساء بي. ربما لأني فقدت خشيتي. وفي حين كنت أستمتع بالنظر إلى النساء الغريبات، لم أصب بالمغص في معدتي بعد ذلك. في المدرسة، دهش المدرسون للثقة التي وجدتها في نفسي جديداً، وقرروا أني أتحلى بصفات القيادة.

في كوني مشوشاً ووحيداً

حلو هو الانتقام ـ خاصة من النساء

لورد بايرون

كوني عشيق مايا، كان لزاماً علي الشك بالإمكانيات الاعجازية عند كل النساء. منحني كمالها التام فكرة أن كل النساء لا بد وأنهن مثلها رائعات في داخل أشكالهن ومظاهرهن المختلفة المثيرة. أظن أن أحد أسباب حذر النساء الأكبر سناً من الشباب اليافعين ـ ولماذا على الأزواج أن يكونوا حذرين من العرائس العذراوات ـ كثيراً ما يعود إلى أن معظم الصفات الاستثنائية تفقد عند من لا يملكون قاعدة للمقارنة. كما كانت كلاري ابنة عم مايا تقول: «لا يمكنك الاعتماد على الشباب».

كانت كلاري تزور مايا مرة في الأسبوع، وبدا أن وجودي هناك يزعجها دوماً. كانت ترتدي فساتين بأكمام طويلة مرتفعة الياقات حتى الرقبة كي تحفظ قوامها النحيل المثير لنفسها، وكان شعرها الأسود مصففاً دوماً كما لو أنها آتية من عند مصفف

الشعر. كانت تصغر مايا ببضع سنوات، لكن جفنيها الأسودين كانا يلقيان بظل قاتم حول وجهها المدور الصبياني.

«آمل أن تغفري لي قولي» سمعت كلاري مرة تخبر مايا وأنا من المفترض أن أكون نائماً في حجرة النوم «إنك فقدت صوابك تماماً بإضاعة وقتك مع هذا الولد. ينبغي أن تحصلي على طلاق وتبحثي عن زوج جديد. لا بأس إذا رقدت مع ولد مثل أندراش من حين لآخر، أفهم ذلك ـ هناك شيء مثل حب الاستطلاع. لكن الاستمرار في علاقة معه ـ هو الجنون بعينه. كما تعلمين أنت لا تملكين وقتاً كافياً لإضاعته».

عندما عدت إلى حجرة الجلوس مقاطعاً حديثهما، ابتسمت لي كلاري ابتسامة تنم عن نفاد صبر. كنت اعتقدت أنها جميلة بطريقة لئيمة. بعدما غادرت تشاجرت مع مايا بسببها في واحد من شجاراتنا النادرة.

«آه، اهدأ، كلاري تقصد خيراً» قالت لي في النهاية.

«إنها تكرهني»

«لا تكن سخيفاً، كلاري ابنة عمي، وهي تحاول حمايتي. تحذرني من عدم الاعتماد عليك. لكنني أعرف هذا على أية حال ـ لذا لا ينبغي أن تقلق لما تقول».

ثم قبلتني على الأنف، ما كان يضع دوماً حداً لمناقشاتنا.

مع ذلك، لم يكن بوسع مايا تجاهل عدم رضا كلاري أيضاً. لتبرير ولعها بي، كانت تخبر كلاري أني عاشق مدهش، وتختلق قصصاً يمكن أن تهدئ من شكوك راهبة باردة. في حادثة أخرى

عندما كنت أسترق السمع لحديثهما، سمعت مايا تقول إن بإمكاني ممارسة الحب لمدة ساعتين دون انقطاع.

لا بد أن هذه القصص العاصفة أثرت على كلاري، لأنها بدأت تنظر إليَّ بذاك الوميض في عينيها، الذي صار الآن بإمكاني معرفته، وراحت تذكر تعليقات حول أنوثتها دونما صلة بالموضوع الذي يجري الحديث عنه. في أحد عشاءاتنا، أعلنت عرضياً (لكن بخجل أيضاً) أن زوجها مارس الحب معها وهو نائم، وفي الصباح لم يصدق أن هذا حدث بالفعل. سواء كان هذا صحيحاً أم لا، لا يمكنني القول. لكني دهشت لتغير لونها المفاجئ وبالطريقة التي يلين بها وجهها ويضطرب، كما لو كانت تمارس الحب ـ بينما في الواقع جلست منتصبة في العشاء تقطع لحم طبقها بأناقة مفرطة. كان بإمكاني معرفة أن سروالها الداخلي مبلول بالنظر إلى وجهها.

لعل أكثر ما أمتعني، في محاولة إقامة صداقة مع كلاري، حقيقة أن بإمكاني الآن مبادرة امرأة دون الشعور بالخوف. أحياناً، بإيماءة ودية وبشرود ذهن، كنت أحيط خصرها بذراعي. لم يكن ذلك صعباً. كانت مختلفة عن مايا، ومثيرة مثلها. دوماً، كانت تدفع يدي بعيداً بضحكة عصبية. في أحد الأيام، بينما كانت ابنة عمها في الحمام، قالت لي: «أتدري، أعتقد أني بدأت أفهم مايا» لكن بسرعة غيرت الموضوع.

لم يكن هناك مزيد من الهفوات غير اللائقة حتى بعد ظهر يوم سبت، حين تركتنا مضيفتنا لوحدنا وذهبت للتسوق. بقيت كلاري لأنها كانت ستتناول العشاء معنا، لكني تعجبت لماذا شعرت بالتعب ولم ترافق مايا واختارت البقاء معي في الشقة ـ توقعنا أن يمتد غياب مايا إلى ساعة أو أكثر.

«حسناً، لقد تركت في عهدتي» قالت بضحكة خجولة إلى حد ما «ما الذي سأفعله بك الآن؟».

لم تكن الضحكة وحدها ما جعل جسدها يهتز: رأيت وجهها يلين ويضطرب مرة أخرى. ثمة جاذبية لا تقاوم بالنسبة لي في تعابير عري المرأة عندما تكون مرتدية كامل لباسها. وكلاري كانت تسألني ماذا عليها أن تفعل بي.

«اغويني»

بدت عليها الجدية. «أنا مندهشة منك، أندراش».

«حسناً، إنك سألتني ماذا ستفعلين بي»

«كنت أريد حديثاً ودياً فقط»

«ماذا يمكن أن يكون أكثر ودية من طلبي منك أن تغويني؟».

«من الواضح أنك عديم المشاعر والأخلاق، لكن هذا ليس سبباً كافياً للحكم على الجميع مقارنة بك. أنا أحب زوجي وأحب ابنة عمي. لن أخونهما ابداً حتى لو أحببتك. في الواقع، ليس بوسعي فهم كيف يمكنها الاستمرار في ما تفعله. هذا غباء، ولا أكترث بإخبارك أني أخبرتها ذلك. ينبغي أن تجد رجلاً لطيفاً يمكنها الزواج منه وترك زوجها العفن».

«ربما ستفعل»

«حسناً، لا تبدي أي إشارة تدل على ذلك! لقد منحتك سنة كاملة من حياتها، وما الامتنان الذي تحصل عليه منك! هذا مقرف».

كان بوسعي رؤية أنها عنت كل كلمة قالتها، ولم أكن مختلفاً معها. مع ذلك عندما استرسلنا في الحديث على هذه الوتيرة لبضع

دقائق، كان كلانا يحمر وجهه بتواتر متعاظم. أخيراً نهضت كلاري من الأريكة وذهبت إلى خزانة الكتب، حيث انهمكت في تصفح العناوين. في وقوفها هناك، لم أقدر على عدم الشعور بأنها تنتظر مبادرتي ـ حتى لو لم تردني فعل ذلك. لا شيء سوى التقدم في السن كان بإمكانه جعلي أقاوم هذا الوضع. دنوت منها وقبلت كتفها، لكنها انسحبت بعيداً.

«أنت كريه. علاوة ليس بوسعنا فعل شيء حتى لو أردت ذلك بسبب العادة الشهرية».

كانت كذبة أمينة. في الغالب كانت ستستريح لو صدقت ذلك، لكن حيث أني لم أصدق (أو بالأحرى لم أكترث بشكل أو بآخر) لم تبد مقاومة أكثر. عندما مارسنا الحب لم يكن علينا أن نتحرك. كان جسدها يهتز بالانفجارات من البداية وحتى النهاية. ربما لأننا لم نبغ اللقاء ثانية (فلقد اعتقدت أني عديم الأخلاق، واعتقدت بدوري أنها غبية)، كان لهذه الدقائق حسية لقاء المرة الوحيدة العنيفة.

عادت مايا مبكرة من التسوق ووجدتنا في الفراش. عندما فتحت الباب علينا ويديها مليئتان بالحاجيات، قالت مبتسمة «آه، أظن من الأفضل الانضمام لكما ـ يبدو أنكما مستمتعان».

«تفضلي» تمتمت بلا وعي.

لكنها تراجعت للخلف وأقفلت الباب. نهضت كلاري، ارتدت ملابسها وغادرت.

بعد فترة غامرت بالخروج من حجرة النوم ووجدت حبيبتي العزيزة تستمع لأسطوانة، تقرأ وتدخن لفافة من التي تدخنها أحياناً.

انحنيت أمامها وهي جالسة على أريكتها الصغيرة، لكنها أوقفتني قبل أن أنطق حرفاً.

«لا تكن تراجيدياً. كانت هذه غلطتي ـ فلقد عدت قبل مما هو متوقع.»

«أحبك»

«الآن تبدو مرتبكاً. لا زلت غير مؤمنٍ أن بإمكان المرء حب كثير من الناس في الآن نفسه، أليس كذلك؟».

لتثبت أنها غير غاضبة مني، قبلّت أنفي ثم نهضت لتفرغ الحاجيات التي اشترتها. جلبت معها كل أنواع اللحوم المجمدة والخضار والفواكه الطازجة : نقانق الفلفل، لحم بقر للشواء، بصل أخضر، خيار، بندورة حمراء كبيرة، خوخ وعنب. أكلنا كل شيء مادحين الطعام بين فينة وأخرى. بدا أن كلينا يتمتع بشهية فوق عادية.

من ذلك اليوم تغيرت علاقتنا بشكل غير مدرك تقريباً. لم تلق مايا علي اللوم أو يقل اهتمامها بي أبداً ـ في الواقع، أصبح ممارسة حبنا أكثر كثافة ــ لكنها بدأت تعطيني وقتاً أقل. كانت هناك حفلات ومسرحيات وكونسيرتات أكثر وأكثر، أعتقدت أن عليها حضورها. من بين كل الناس، كثر خروجها مع كلاري. تصالحتا رغم أن كلاري لم تعد تُرى في بيت مايا.

في أحد الأمسيات بعد ذلك بشهرين تقريباً، عندما كانت مايا تتوقع زيارتي، وجدت رجلاً غريباً في حجرة الجلوس يشرب القهوة معها. قُدّمت على أني شاعر شاب يسكن في العمارة

ويستعير الكتب، وقدم لي على أنه صديق قديم. عائداً إلى مهمتي الأصلية، طلبت كتابين وغادرت.

صاحبتني إلى الباب وأخبرتني هامسة: «لا تقطب وجهك الآن، أحبك مثلما كنت دوماً» عندما وقفت في الباب طلبت مني المغادرة بقبلة على الأنف. كان لحركتها هذه، التي طالما شغفت بها، وقع اللطمة.

هبطت لشقتنا، وما أن نجحت في الابتعاد عن أمي حتى ذهبت إلى حجرتي وبكيت. أشفقت على نفسي وكرهتها لخسارتها، شتمت وصررت على أسناني. منذ ذلك الحين، كثيراً ما تركت وحدي لأسلي نفسي على هذا النحو، حبي البالغ لصحبة النساء.

في كوني مزهواً ويائساً في الحب

هذا حب من أسوأ الأنواع ـ فهو يسلب شهيتك

هونري دو بلزاك

افترقت مايا عني في الربيع. شغلت نفسي طوال الصيف في الدراسة كي أقفز عن آخر سنتين في المدرسة الثانوية ويصبح بإمكاني الالتحاق بالجامعة في الخريف. عندما نجحت في الشهادة الثانوية وامتحان دخول الجامعة، بدأت في البحث عن امرأة، وبعد شهور من المغازلات غير المحظوظة، وقعت في الحب يائساً، دون أمل وأي أدنى تحريض. كنت مثل السكرتيرة التي كتبت إلى صحفية الاستشارات العاطفية عن الرجل الذي يتكلم معها أحياناً في المكتب وصحبها مرة للغداء. «إنه لطيف وودود، لكنه يراني كزميلة في العمل، لا كامرأة. لم يطلب مني الخروج معه مرة أخرى، رغم أنه يجلس على المقعد المقابل من الساعة التاسعة حتى الخامسة. عزيزتي آنا، أنا أحبه كثيراً، ما الذي علي عمله حتى يوليني اهتمامه؟» من السهل جداً التعرف على مثل هذه العواطف اليائسة من الافتراض البديهي لا المعلن بأن هناك طريقاً، إن من

نحبه يتجاهلنا فقط لفشلنا في عكس قيمتنا الحقيقية ـ لو استطعنا أن لا نظهر سوى شخصيتنا الحقيقية، عمق مشاعرنا ـ من بإمكانه مقاومتنا ولماذا؟

فلا حدود لهذه الروح المتفائلة.

رأيت إلونا تلوح لي بيدها من حوض السباحة في مسبح لوكاش، بعد ظهر يوم شتائي مبكر. كان من عادتي الذهاب هناك للسباحة بين المحاضرات. إنه مكان غير عادي، أثر قديم أعيد ترميمه من مخلفات الإمبراطورية العثمانية: قصر حمام تركي حوِّل إلى مسبح عام. هناك نحو مائة حمام بخاري خاص تحيط بالحوض، الذي يقع في حجرة تشبه الجامع تعلوها قبة زجاجية. كان مسبح لوكاش يكتظ بالناس في نهايات الأسبوع والعطلات، لكن خلال ساعات العمل يكون مرتعاً لأناس غير عاديين: نجوم كرة القدم، الفنانون، الممثلات، أعضاء فريق السباحة الأولمبي، بعض أساتذة وطلاب الجامعة وبنات الهوى رفيعات المستوى. تشترك هذه المجموعة المنوعة من الناس في خاصية واحدة، نظرتها غير الهيابة المفعمة بالحيوية للحياة. في أسوأ سنة من رعب ستالين والتزمت المتعصب، كانت النساء هناك يرتدين آخر صيحات مايوهات البيكيني الإيطالية. تطلب هذا آنذاك بعض الجرأة حتى في معظم مناطق الدول الغربية، في بودابست ١٩٥٠ كان هذا فعلاً ينم عن عصيان مدني. الذهاب إلى لوكاش بعد ظهر أيام العمل كان مثل مغادرة البلاد. فلقد كنا نعزل أنفسنا عن هنغاريا ستالين الكئيبة، خلف الجدران التركية القديمة المزخرفة، هذه التذكارات العظيمة لقوى الاحتلال الفانية.

كنت بعد السباحة أجلس قرب الحوض أحدق بالنساء شبه

العاريات، في البخار الرطب المنبعث من الحمامات الحارة. المحارب القديم الوحيد في علاقة واحدة عظيمة لكن خاسرة، راقب أجسادهن تمر في استعراض أمامه، وبشرتهن المبتلة تلمع مثل سلاح عديم التأثير. في بعد ظهر ذلك اليوم من يناير، كنت أشاهد لساعات بحرمان ونفاد صبر نساء غير مهتمات بي. ثم فجأة، هناك إلونا، تنادي عليّ من داخل الحوض. رفعت يدها من الماء، فملأني تلويحها الودود، مثل ضربة عصا الساحر، بحس عنيف من الأمل. كنت بالكاد أعرفها، ولا أذكر حتى كيف شكلها، لكن وهي تسبح صوبي، طاقية سباحة بيضاء ويدان طويلتان، عزمت على ممارسة الحب معها.

«لطيف أن نرى وجهاً مألوفاً» قالت غير شاكة، وهي تصعد من الحوض وتقف أمامي «أراهن أنك لا تذكرني!».

حقيقة أنها تذكرتني، رغم أننا بالكاد تبادلنا أكثر من عشر جمل في حفلة، جعلني أفكر أني لا بد وأن تركت لديها انطباعاً. راداً التحية بمثلها، اغتصبتها بعيني وانتصبت فجأة. خلعت طاقية سباحتها، انحنت جانباً من خصرها لتهز الماء من كل أذن من أذنيها، وارتمت على الأرضية الرخامية لتلتقط نفسها. ثم التفت واستلقت على ظهرها ناظرة للأعلى، سحرتها النماذج البيضاء متغيرة الاتجاه التي يصنعها الريح فوق رؤوسنا. عاصفاً بالثلج جيئة وذهاباً من وعلى القبة الزجاجية. تكلمنا عن قسوة الشتاء المتغيرة وتبادلنا بعض الإشاعات حول الجامعة. إلونا عاملة في المكتبة في عطلة وخطيبة أحد أساتذتي.

رغم أنها كانت في أواخر العشرين، بدت إلونا مثل فتاة مراهقة. قوام نحيل متماسك ونهدان يثبان مثل كرة المضرب، بشرة

صافية بنمش وشعر أحمر تربطه من الخلف كذيل حصان. مع ذلك لم أر امرأة أكثر منها إثارة. فمها واسع مقارنة بوجهها الناعم البيضاوي الشكل، فم باندفاع علوي حاد، لذا لم تكن شفتها السفلى تلتقي والعليا، وحين تفترق الشفتان قليلاً، بدا أنهما تهبانها قطعة واحدة. في استلقائها على مقربة من حافة الحوض، لم تملك مكاناً كافياً كي تتمدد، فرفعت ساقها للأعلى. منح هذا الوضع بطنها تقوساً داخلياً، وأظهر الانحدار الناعم ارتفاع شكل عضوها المرموق بشكل غير عادي. ضغط الساتان الأسود لمايوهها البيكيني إلى أعلى، فهربت بضع شعيرات حليقة مبتلة من تحته.

«أتمنى لو اغتصبك» قلت معترفاً مقاطعاً كلامي القليل.

«ظننت أنك ترمقني بقوة» أجابت، كما لو أنها وجدت إجابة على أحجية محيرة. مع ذلك، لم تكن أحجية مهمة: لأن صوتها لم يكن مشوشاً.

لم أتصور أن تلقي بنفسها بين ذراعي في الحال، فكرت بعقلانية في سريرتي. على كل، كيف لها أن تعرف أني لن أتكلم عنها في الحرم الجامعي؟ يمكن أن يصل الكلام إلى خطيبها. وجدت حرصها معقولاً. لم أكن أخطط للزواج منها وبالتأكيد لم أود أن أضيع فرصتها مع البروفسور هارجيتيا.

«أشكر لك مديحك» قالت بسخرية لاحقاً عندما كنت أمطرها ببعض الإطراء المبطن بالمغازي.

ممتنة للإطراء، فكرت، لكن دون تأكيد.

كلما رأيت امرأة منجذبة لي، أول ما أفعله أن أنظر في عينيها، باحثاً بأمل عن وميض دعوة. لكني فشلت في فعل هذا الآن. حين

نظرت لوجه إلونا، نظرت لفيها أو أنفها الذي عليه النمش، أو حول عينيها، لكن ليس فيها إطلاقاً. رابضاً بجانبها قرب الحوض لمدة ساعة تقريباً، حبذت تصديق أن الحركات العرضية لأطرافها لا زالت تعبر عن رغبتها المكتومة أو غير الواعية نحوي.

كانت تضم ركبتيها معاً ثم تدعهما يسقطان مفتوحان، وهي مستلقية على أرضية الرخام الخابي وساقاها مرفوعان إلى أعلى. بينما كانت تخفي وتعرض فخذيها، راحت العضلات تتغير تحت بشرتها كما لو كانت تمارس الحب. راقبت موجات جسدها، وفكرت فعلاً باغتصابها. وصلني صوت الآخرين من حول الحوض، صدى ضحكاتهم وصيحاتهم في الحجرة المقفلة، وشجعني على أن أكون خشناً، قاسياً دون سخافة. فكرت في الإمساك بها وولوجها عبر الساتان الأسود، لكن حيث لم يكن بإمكاني اغتصابها، وقعت في حبها. مددت يدي إلى ذراعها النحيل الملقى دون حراك بيننا وراحت أصابعي تلمسه بخفة. عندما وصل لمسي يدها الساكنة، تركت أناملها علي تأثير المساج. استرخيت، استرحت (دائرة الجسد مشحونة جداً بالعنف) وفجأة غمرت بحس سعادة حزين مذل.

«متى سأراك؟» سألت إلونا، وهي تنهض لمغادرة المسبح. تعلمت من مناسبات أكثر حظاً أن من الحكمة الإفصاح عما يدور في خلدي، ولم يترك غزلي بها مجالاً للشك في عزمي. غير أنه لم يثمر للآن بتحديد موعد.

«حسناً، آتي إلى هنا بعض الأحيان، ربما سنتقابل صدفة».

«ما الذي بوسعنا فعله في حوض سباحة؟ أريد أن أكون معك وحيداً».

«الآن أصبحت سخيفاً» قالت وهي تغطي بلباس استحمامها الأجزاء العلوية من كرتي التنس اللتين كانتا على وشك الوثوب من فوق مايوهها. كانت مبتهجة هذه المرة. تأخر الوقت، وكان عليها الذهاب للقاء خطيبها.

«يسعدني لقاؤك بعد ذلك» بادرتها بسرعة.

«لا أضع مخططات بعيدة»

«أنت لا تأخذيني بجدية» قلت معترضاً.

«اسمع، لقد تغزلت بي جيداً بقولك إنك تتمنى اغتصابي. لا تفسد ذلك. لنكن أصدقاء فقط».

قالت إلونا هذا بمسحة ازدراء وخبث، وبدا أنها تستمتع بقول ذلك. في الوقت الحالي، فكرت أن عليَّ الرضا برؤيتها في حوض السباحة.

«على الأقل» أصررت «أخبريني متى ستأتين للسباحة مرة أخرى».

تنهدت بنفاد صبر «إذا أردت أن تراني إلى هذا الحد، سأدعوك إلى حفل زفافنا».

مع ذلك، في حين تعلمت مصارحة النساء، لم أكن قد تعلمت الإصغاء إليهن بعد. كنت أعرف البرفسور هارجيتيا جيداً، كتلميذه وكعضو زميل في مجموعة للأبحاث. فرحت أسعى لصداقته. أصبحت زائراً متردداً على شقته المكونة من حجرة واحدة كئيبة، غير ملائمة إطلاقاً لإلونا وتثبط همتي في أشد اللحظات القاتمة. كان فيها فجوة صغيرة في الحائط عديمة التهوية، مطبخ صغير ملوث بالشحم، حجرة جلوس ونوم مكتظة بالأثاث الذي

بدا كأنه موروث من عمة مسنة متواضعة الموارد، كثير من الكراسي والمناضد الثقيلة، كلها بأرجل مهتزة، ومصابيح صغيرة مغطاة بشرابات. الشيء الوحيد الذي يوحي بأن قاطن المكان أكاديمي كانت الكتب وصفحاتها المفرقة والمنتشرة والساقطة من مكتبه الكائن قرب النافذة. الخطيبة ذات الشعر الأحمر وبشرة النمش والأطراف المفتوحة والمضمومة للترحيب، لم تملك حتى سريراً. كان عنده أريكة كبيرة قديمة لا بد أنه وجدها في الشارع في احدى الليالي. لم يكن بوسعي تخيل آلهة أحلامي الحيوية في هذا الجحر المغبر غير المرتب.

كانت إلونا تحاول تنظيف المكان عندما نجحت أخيراً في العثور عليها هناك. جلست بمحاذاة البرفسور هارجيتيا على الأريكة، وجلسنا نراقبها (عادة أوروبية قديمة) وهي تكافح لترتيب الحجرة. في الضوء الخافت المنبعث من النافذة المغبرة، بدت مثل ملاك غامض حسي مثير يصارع قوى الظلام. لم تكن ترتدي صدرية تحت قميصها الأبيض، وكان نهداها الصغيران يدوران بجنون كلما انحنت للأسفل ونهضت ثانية لوضع الأشياء في مكانها.

«لها قوام جميل» قلت مادحاً مضيفتي، ولأذكر إلونا بمشاعري تجاهها.

«هي جذابة» أومأ البرفسور برأسه، مظهراً حماساً أقل. كان رجلاً وسيماً بعيون زرقاء في أوائل الثلاثين، ميالاً إلى سمنة من النوع الممتلئ التي لم تجعله يبدو إلا قوياً مؤثراً.

«ماذا تقولان عني؟» سألتنا عندما جلست أخيراً لاهثة على الكرسي. أدهشني، وأنا أستعيد الأحداث، أن علاقتنا كانت في معظمها مراقبتي لها وهي تلتقط أنفاسها.

دخلنا في نقاش حول قوامها، موضوع كانت إلونا نفسها فيه مهذارة. «لا أدري ما الذي تشكو منه نساء الصدور المسطحة» أذكر قولها «الصدور الصغيرة مؤثرة مثل الكبيرة طالما لا ترتدي المرأة صدرية. خذ نهدي على سبيل المثال ـ إنهما صغيران لحد تحسب أنهما على وشك الاختفاء. لكني لا أجد هذا نقصاً ـ الرجال ينظرون لي كثيراً لاختلاس نظرة».

ربما لم تدل بهذه الملاحظات حول مواضيع مختلفة في الحديث في اللحظة نفسها التي أعدت فيها أقوالها. مهما كانت الطريقة، فإنها انتهت بالإشارة إليَّ «انظر إلى أندراش ـ إنه دليل حي على ما أقول. يعصرني بعينه بكل ما وسعه ويثقب قميصي بحريقها. الولد الخبيث ذو العيون الجائعة».

«من فضلك إلونا، لا تحرجي أندراش» قال خطيبها متنهداً.

توقفت منذ اليوم الذي قابلت فيه إلونا في مسبح لوكاش، عن محاولة إغواء نساء أخريات وفكرت بها دوماً بشكل متزايد. كلما نسيتها حيناً، تعود صورتها لي بالعنف المباغت لذبحة صدرية دانية. أصبحت الثالث غير المنتظم لرفقتهما، أذهب معهما أحياناً لمشاهدة مسرحية أو للعشاء في شقته. لكن البرفسور هارجيتيا، كان دوماً من يدعوني. بدا أن إلونا تتحملني بكياسة تقارب العداء.

«أعتقد أن صديقك التلميذ واقع في حبي بلا خجل» تذمرت في أحد الأمسيات، وهي تضع المقانق في صحوننا «يغتصبني بعينيه، أمر في غاية القرف. أظن أن عليك أن تبدي بعض الغيرة وتلقي به خارج البيت».

«إنه يمزح فقط» أكد لها المضيف، ناقلاً عينيه الزرقاوين الودودتين صوبي «لا تأخذها على محمل الجد».

بعد ذلك ابتعدت عنهما لمدة شهر أو يكاد. لكن هل أثبط ذلك من همتي؟ على النقيض. ألهمتني حقيقة أن خطيب إلونا أظهر اعتباراً أكبر لمشاعري منها، للاعتقاد أنها إن لم تتركه من أجلي، سيتركها هو من أجل فتاة أخرى. لم أشعر بذنب لانغماسي في تأمل فرح للأيام التي قد يصبحان فيها زوجين. ساعدتني أحلام اليقظة الداخلية هذه للبقاء فترة بعيداً عنها جسدياً. فضلت عدم رؤيتها إبان هذه الفترة الوسيطة من الإذلال لخطبتها من البرفسور هارجيتيا.

حين لم يعد بإمكاني الصبر أكثر، ذهبت إلى شقته في أسوأ لحظة ممكنة. كانت الأريكة الواسعة مفتوحة، غير أن أغطية السرير رطبة ومتجعدة، إحدى الوسائد فوق خزانة الكتب والأخرى على السجادة. كانت إلونا من فتح الباب، مرتدية ملابسها لكن دون مكياج، ومثل كل النساء بعد ممارسة الحب، بدت متوردة الوجه وغامضة، لم أرها شهية أكثر من هذه المرة. كان البرفسور هارجيتيا جالساً خلف مكتبه حافي القدمين، غير أنه مرتدياً بنطاله وقميصه ويشرب كوباً من الحليب.

«أخيراً، أخيراً» هتفت إلونا «أين كنت طوال هذا الوقت؟ لاتسي أفتقدك، وهو بحاجة لمن يذكره كم معبودة أنا. أم أنك لم تعد تعتقد ذلك؟».

وجدت ملاحظتها تحت تلك الظروف ـ والرائحة الخاصة المضمحلة قليلاً لا تزال عابقة في الحجرة ـ بذيئة.

«سأحبك دون أمل للأبد» تمتمت بجرأة، محاولاً الإشارة بإيماءة أني أمزح.

«لماذا دون أمل!» وبختني ساخرة، بهزة من مؤخرتها القريبة البعيدة. «فقط لو يتركنا لاتسي وحدنا، لوثبنا إلى السرير في التو. أم أنك لا تريد ذلك؟».

أجبرت نفسي على النظر إلى برفسورها الهادئ يشرب الحليب «متى سيكون عقد القران؟» سألته متلهفاً كي أبدو عديم الضرر.

قضيت معظم المساءات في البيت، مركزاً على إلونا بكل قوة إرادتي، وبدأت أؤمن أن هناك شيئاً خارج عن نطاق استيعاب الإدراك الحسي، يدل على أنها لابد تدري أني أفكر بها. كنت متأكداً أن إخلاصي لها، رغم وضعي اليائس، قد يغير مشاعرها نحوي. لكن مكافأتي الوحيدة كانت رضا أمي.

«أنت أكثر جدية مما أنت عادة عليه» قالت وقد لاحظت مكوثي في البيت كل المساءات تقريباً «إنك تكبر حقاً».

«أمي أنا عاشق بلا أمل».

«حسناً هذا بالضبط ما أنت بحاجة إليه. كنت قد بدأت أخشى أن تنهك نفسك، وأنت في مراهقتك». ردت.

في الحقيقة، كان وزني يهبط. الشيء الوحيد الذي حافظ عليَّ كان إيماني بأن إلونا وبروفسورها لا يمكن أن يبقيا في الحب إلى الأبد. ولم أغير رأيي عندما تزوجا أخيراً. دعيت إلى حفل الزفاف، تماماً كما وعدتني إلونا في المسبح. كان الحفل، الذي أقيم في قاعة بلدية الحي الواسعة، متحضراً غير ملهماً والنجمة الحمراء وستالين الذي لا يكل يرفرفان فوق رأس القاضي الذي زوجهما. كان هذا

المسؤول مستشاراً قانونياً للزواج أيضاً، أمر وجداه مفرحاً وبدوري رحبت به كفأل حسن. الجو الكئيب والمعرفة المسبقة بأن هذا المسؤول قد يذهب بعد الاحتفال إلى حجرة أخرى لينشغل بإجراءات طلاق أخرى، أكد لي أن الزواج زاد إلونا مني قرباً ـ منذ تلك اللحظة، قلت مقنعاً نفسي (وأنا أحاول توجيه سهامي مرة إلى العريس وأخرى إلى العروس) من الآن وصاعداً عليها أن تقطن تلك الشقة البغيضة، عوض مجرد زيارة متعة تلقي فيها الوسائد على الأرض. من الآن سيكون هناك واقع الزواج المبتذل الممل، السلسلة المتوقعة للمشاكل المالية وتنظيف الملابس الداخلية الوسخة، وليس القصائد القصيرة المتنوعة الفطنة لعلاقة الحب. سيصيبها الملل وخيبة الأمل، عندها ستسنح فرصتي.

غرق فكري بإفراط في مثل هذه المنطق، تاركاً نفسي تهيم في درب الحديقة دون دليل أو حس تام للسير في الاتجاه الخاطئ. أصبحت شريراً حالماً منغمساً في شؤوني الذاتية، ورحت أتجسس على صديقي اللطيف متأملاً أن أراه مع امرأة أخرى كي أخبر زوجته. كثيراً ما كنت أصادف «إلونا» في الشارع، غير أني لم أنجح مرة في تحويلها عن مسارها. وجدتها في أمسية متأخرة وحيدة في الشقة. كانت الأريكة الواسعة مفتوحة استعداداً لتلك الليلة: أغطية نظيفة مفروشة فوقها بطانية برتقالية جديدة فاتحة اللون. كانت إلونا قد تركت شعرها على سجيته وعلى وشك الذهاب للنوم، لكنها طلبت مني الجلوس وقراءة شيء بينما هي تأخذ حمامها وترتدي منامتها ـ تذكرت، وأنا أسير في الحجرة مصغياً لصوت الماء كيف أن هذا بالضبط هو ما فعلته من قبل مع مايا أول مرة مارسنا فيها الحب. رحت أهمهم بنغم من دون جوان.

خرجت إلونا من الحمام مرتدية رداءً فوق منامتها «اسمع» قالت ببرود «أدرك أن هذا وضع يوحي بأفكار لمراهق فاسق جانح مثلك. لكن إذا أبديت أي ملاحظة حول رغبتك في اغتصابي أو شيء من هذا القبيل، سأكسر واحدة من هذه الكراسي القديمة على رأسك ـ وأنا أعني ما أقول».

وعليه، قررت الانتظار لمناسبة أكثر ملائمة، عندما تكون في مزاج أفضل. أجريت محادثة مؤدبة لعدم رغبتي في المغادرة وعيني تحدقان بالسجادة. لم أر إلونا بعد ذلك قط في مايوهها الأسود، مع ذلك تحملت شهوتي سنتين أخرتين.

في سر دون جوان

العبقري لا يتوق قط إلى ما هو غير موجود

سورين كيركيغارد

هل هناك حياة قبل الموت

هنغاري مجهول

لا أود أن أترك انطباعاً بأن قصة حبي كانت من طرف واحد، بل هي برمتها تمريناً غير مجدٍ في خداع الذات. كان ذاك وقت إرهاب مزاجي في هنغاريا، حين لم يكن مسؤولو الحكومة والحزب الكبار فقط، بل الكتاب، الدارسون، الطلاب، مخرجو المسرح وحتى راقصي الباليه وكومبارس الأفلام أيضاً مطلوبين من قبل المخابرات. كطالب جامعي نشر بعض القصائد، عرفت كثيراً من الناس الذين اعتقلوا خلال الليل. في الواقع، إغراءات الهذيان من الرعب كانت هائلة، وأشك أنه كان بإمكاني البقاء هادئاً نسبياً إبان كل ذلك لو لم تكن إلونا مستحوذة عليَّ.

كما قد تذكرون، عشت في العمارة نفسها مع عشيقتي الأولى، مايا. بعد سنة أو تكاد من إلقاء تحية سمجة كلما تصادف

والتقينا في المصعد الزجاجي والخشبي المنحوت، عدت لزيارة عائلة هورفاث ثانية بين فينة وأخرى. من الواضح أن بيلا كان قد انفصل عن خليلته الصغيرة وصار الآن يقضي أمسياته في البيت مع زوجته. عاشا معاً مثل صديقين قديمين محكومين بتعب العلاقات الغرامية خارج نطاق الزوجية. كانت مايا جميلة كعهدها، غير أنها أقل حيوية ولم تعد تتحلى بابتسامتها الدافئة الساخرة. على النقيض، بدا بيلا، الرجل القوي الضئيل الحجم صاحب الإيماءات المتحررة، في غاية النشاط. تخلص من أدبه المحسوب الخطوات في التعامل معي، ومتغافلاً للخلفية الخاصة لعلاقتنا، أصبحنا نميل لبعضنا بعضاً. كان يستمتع، وهو الممثل بالغريزة لا المهنة، برواية القصص وتقليد الناس. كان قد عمل مع حركة الديمقراطيين الاجتماعية السرية خلال الحرب، وكان معظم حديثنا في السياسة وموجة الاعتقالات الأخيرة.

في إحدى الأمسيات ونحن في حجرة جلوسهما المغطاة جدرانها بصفوف الكتب، التي حملت ذكريات مختلفة بالنسبة لي، وصف بيلا اجتماعه مع أحد معارفه القدماء في الحركة السرية، وكيل الوزارة جورج ماروش، قبل اختفائه مؤخراً. طلب ماروش من بيلا البقاء معه في مكتبه، من أجل الأيام الخالية، وهو يجري اتصالاً هاتفياً مع رئيس المخابرات ليحتج على كونه ملاحقاً. أصر رئيس المخابرات على أن صديقه العزيز ماروش، واحد من أكثر رفاقه ثقة، يهذي، وإن كان بالفعل ملاحقاً فلابد أن هذا ناجم عن خطأ غبي. قال إنه سيتحرى الأمر في الحال ويعيد الاتصال به. لم يكن ماروش قد أنهى إعادة ما قاله الطرف الآخر، حتى رن الهاتف. كانت مكالمة قصيرة هذه المرة، ولم يكترث الرجل التعيس حتى بإعادة سماعة الهاتف إلى مكانها.

«ماذا قال؟» سأل بيلا.

«قال أنت على صواب ـ أنت مراقب»

نهض بيلا، وهو يصف المشهد، من خلف مكتبه ليعرض كيف سار في الحجرة جيئة وذهاباً هازاً قبضته. «لماذا يا بيلا، لماذا؟» أراد أن يعرف، فلقد ساعد هذا الرجل على تصفية حزبه العام ١٩٤٨، عند اختفاء كل الأحزاب الاشتراكية في كل أوروبا الشرقية، ولم يكن بمقدوري عدم الضحك على العدالة الشعرية لسقوطه، وتصوير بيلا المتقن لذهوله المر.

«لماذا» كرر بيلا سؤاله العقيم، وانتهى به الأمر لأن يشاركني الضحك.

مايا بقيت جدية. «لا أرى ما تعتقدانه مضحكاً» قالت مكفهرة. غير أننا وجدنا طلب وكيل الوزارة لتفسير أكبر وأكبر مثيراً للسخرية. «لماذا؟! لماذا؟!» داوم بيلا تكرار قوله وهو يسير في الحجرة رافعاً يديه للسماء، ساخراً من الرجل المظلوم بتلذذ جلي. «لماذا؟!».

كانت هذه آخر مرة أرى فيها بيلا. بعد بضعة أيام اعتقل، وحصلت مايا على وظيفة مدرسة في مدرسة ثانوية. كلما ذهبت لزيارتها، كانت تبدد الوقت بالحديث عن الطقس، أو انعدام الأفلام الجيدة أو صعوبة الحصول على البيض واللحم. مرة عندما سألتها ما الذي يمكنني فعله لمساعدتك، رأيت عينيها تومضان ثانية.

«تعال وقبلني» قالت.

كانت ترتدي معطف البيت الأصفر، وفي اقترابي منها فتحت

الزر العلوي، لتدعني أعلم أنها لا زالت تذكر كيف كنت أشرع ممارسة الحب معها بتقبيل صدرها الجميل. قبلتني بعنف كما لو أنها تبحث عن ماضينا بلسانها. مع ذلك، سرعان ما تراجعت.

«أنا باردة عندما أكون بائسة» قالت مذعنة بيأس.

بعد بضعة أسابيع من اعتقال زوجها، تركت مايا العمارة وانتقلت لتقيم مع إحدى زميلاتها المدرسات. أما أنا فقد انتظمت في اجتماعات طلاب كان النقاش فيها يدور حول مستقبل هنغاريا بعد زوال الشيوعية. نما إلى علمي أن المخابرات وصفتني بالعنصر غير الموثوق به، وراحوا يسألون الحاجب وزملائي الطلاب في الجامعة عني. بعد نوبة رعب، حين كنت أتحجر عند سماع أي صوت غير متوقع، أقنعت نفسي بأني لا يمكن أن أكون في حال أسوأ إن هم أوسعوني ضرباً وقطعوني إرباً مما كنت أفكر به. داومت على زيارة إلونا كلما تسنى لي ذلك، ولم أخشَ شيئاً أكثر من سوء مزاجها.

صار البرفسور هارجيتيا أقل ولعاً بمفاتن زوجته. أمسى عصبياً ولم يعد ينظر للناس في العيون «أنت مغرم بإلونا، أليس كذلك؟» سألني مرة عندما كانت في المطبخ. «لا أقصد إحراجك» أضاف بسرعة متهورة «فقط أريد أن أعرف. لا ألومك على انجذابك لها ـ هي حقاً جذابة. لكني أتضرع إليك، أندراش، أتوسل إليك أن تخبرني، من فضلك، إن كنت تأتي هنا لأنك كلفت بالتجسس عليَّ».

«حقاً، لوتسي» اعترضت إلونا، التي عادت وسمعت التماسه الأخير «لا تتحامق».

تجاهلها لوتسي «أتوسل إليك أندراش» قال متضرعاً بكل جدية، وعرق خفيف يتصبب يكسو جبينه «أخبرني ماذا يريدون أن يعرفوا عني».

حاولت إلونا تمرير ذلك كنكتة «اترك خليلي في حاله!»

«يريدون مني أن أعرف لماذا لم تكن لك يوماً صديقة من الحزب» أخبرته.

«هذا هراء! يحتفظون بملفات مثل هذه الأمور؟ أمر يبعث على القرف».

«حسناً، سألتني عما يريدون معرفته».

«لكن ملفهم ليس كاملاً!» قال معترضاً «في الواقع، كان عندي صديقة من أعضاء الحزب لمدة عام تقريباً!»

«بالضبط، هذا ما يريدون معرفته، لماذا تركتها؟».

صدقني. واستغرق إلونا بعض الوقت لتعيده إلى رباطة جأشه ثانية «آسف» قال أخيراً معتذراً بطريقة متأمل. «ليست الدولة البوليسية المستعمرة العفنة وما يفعلونه بك أسوأ ما في هذا كله، بل الذي يمكن أن يفعلوه بك إذا صدف وأن فكروا بذلك فقط ! هذا ما يثير أعصابي».

منحني اعتذار إلونا لعدم ثقته بي رضاً عظيماً. أرادت أن تقبل جبيني، لكني كنت أسرع منها فوجدت نفسها تقبل فمي. ثمة نشوة خاصة في اللمسة الطفيفة للشفاه الجافة غير المستعدة. «أنت أداة استفزاز فطنة» علقت إلونا، عائدة لأسلوبها الساخر المعتاد.

يقال إن هناك طريقاً لكل امرأة، ولما كنت أحسب أني أتحلى بشكل وسيم وفتنة، افترضت أن عدم نجاحي مع إلونا يرجع إلى

بعض الفشل في شخصيتي أو فهمي. كنت معتاداً على استشارة الكتب في مواجهة مشاكلي، وحاولت سبر غموض المقاومة بدراسة أدب دون جوان. لم يساعدني ذلك. كان دون جوان موليير مزهواً جريئاً، لكنه مشاغب جلف، وافترضت نسخة شو أنه حتى يكون المرء ناجحاً مع النساء، ينبغي أن ينفر ويهرب منهن. شعرت أن الفنان الوحيد الذي فهم دون جوان كان موزارت. في النص الأوبرالي، لم يكن دون جوان كثير الاختلاف عن دون جوان موليير، لكن الموسيقى تحدثت عن رجل عظيم. المشكلة كانت في عدم مقدرتي على ترجمة الموسيقى إلى رؤية نفسية ـ ما وراء حب دون جوان للحياة، والمدى الشاسع لأحاسيسه. مقولات التحليل النفسي حول دون جوان لم تكن مفيدة بتاتاً، فلقد قدمته كشاذ جنسي مكبوت، أو مفتون بذاته يعاني من عقدة نقص، أو شخص مضطرب العقل لا يقيم وزناً لمشاعر الآخرين ـ باختصار، كمعقّد عاطفياً يجد صعوبة في إغواء فتاة في جزيرة مهجورة. لم أر كيف يمكنني الاقتراب من إلونا بمحاكاة نموذجه.

أدين لشفائي من الحب اليائس، واكتشاف السر إلى امرأة اعتبرتني «دون جوان».

كانت جوجا ربة بيت قصيرة القامة بدينة في الأربعين. كنت أراها في الحفلات، حيث كانت تصيب المدعوين بالعصبية عند تحيتهم بصرخات فرح أنا مسرورة لرؤيتك! «سمعت إشاعات تقول إنك اعتقلت!» كما كانت تذكرنا أيضاً بإمكانية سيطرة الصينيين على هنغاريا، وحذرتنا من محونا المحتم بالقنابل النووية الأمريكية. «أسألكم» قالت مرة بصوت مرتفع والحفلة قد حمي وطيسها وزوجها يربت على قفا امرأة أخرى، «أسألكم ـ ما علاقة النضال

ضد الشيوعية بحرق هذا البلد حتى الرماد؟ لماذا على الأمريكيين قصفنا بالقنابل؟ ألم نعاني من الروس ما فيه الكفاية؟» كان زوجها مهندساً مدنياً معتبراً، رجلاً وسيماً، طويل القامة، رفيع الأخلاق ومتعدد الاهتمامات ـ متحدثاً لبقاً محبوباً من الرجال والنساء على حد السواء. ولم تكن زوجته العادية المستخفة بالأمور سوى امرأة قلقة. قال أصدقائي إن جوجا كانت عصابية، غير أني اعتقدت أن كلامها المتواصل عن المصائب العامة كان في الواقع عرضاً بارعاً للسيطرة على النفس، إن فشلت في كبح خيبتها الطبيعية، فإنها نجحت في إخفاء يأسها الشخصي في الحوار والنقاش. مع ذلك، كان محتماً عليها الوصول إلى نقطة لا تعرف معها ما يسبب لها القلق.

بعد حفل عشاء حضرته جوجا دون زوجها، حاولت تحذير الناس من ازدياد عصابات الشباب في بودابست. صحافة الحزب البشوشة كالعادة، التي تحجب التقارير المشوشة عن قسم الأخبار الأجنبي، ذكرت مؤخراً قصة سائق حافلة هوجم وهو في طريقه إلى بيته عائداً من العمل في ليلة متأخرة، وسرقت كل حاجياته حتى ملابسه الداخلية، وحيث أن هذه كانت الفظاعة المحلية الوحيدة التي اعترفت بها الصحف الرسمية، وحيث أنها حدثت في أول ليالي شهر أكتوبر الجليدية، استحوذت ورطة السائق العاري على مخيلة الجمهور. في غضون أيام، إذا صدقنا كل الإشاعات، لم يبق سوى قليل من الرجال يرتدون ملابسهم أو النساء غير المغتصبات في العاصمة.مع ذلك، حاولت جوجا دون طائل خلق أكثر من قلق عابر حول العصابات التي تترصد الناس في الشوارع المظلمة. أخيراً، قررت أن تكون أول من يغادر

الحفل، قرابة الساعة الحادية عشرة، وأرادت من أحد أن يوصلها إلى بيتها.

هامت بين الضيوف، مخاطبة الجميع دون تحديد. «ينبغي عليَّ المغادرة ـ لكني لا أجرؤ على الذهاب وحدي».

كانت امرأة صغيرة الحجم غير ممتعة، ولابد أنها تحب الحلويات: كان جسدها لدناً مرتخياً عديم الخصر. على نقيض ذلك، كان وجهها نحيلاً قلقاً لم يذكرني بشيء سوى فأر مسكين. نصحها أحدهم بطلب عربة أجرة، لكنها تجاهلت الاقتراح «هل أحدكم ذاهب في طريقي؟» داومت على السؤال، ناظرة طوال الوقت في اتجاهي.

كنت الرجل الوحيد غير المرتبط هناك، جالساً وحدي في الركن منتظراً على أمل قدوم إلونا.

«تبدو كما لو أنك ترثي حالك» قالت جوجا وهي تتجه صوبي.

«أنا كذلك» أجبت بكآبة.

جلست على حافة الأريكة المجاورة «هذا رائع» أضافت بابتسامة خجولة لطيفة «من الرائع أنك لا تزال تشعر بالرثاء لحالك. ذلك يعني أنك لا تزال في المرحلة التي تعتقد أنك تستحق أن تكون سعيداً».

«كل فرد يستحق أن يكون سعيداً» قلت بشفتين مقفلتين حاسماً الأمر ومحاولاً قمعها.

«آه، لا أدري» سحبت كلامها «لا أعتقد أني كذلك».

«لماذا؟».

«لست جميلة كي ينظر أحد إليَّ»

«هراء. أنت في غاية الجمال».

«من لطفك قول ذلك، أندراش لكن لو كنت حقاً جميلة» أضافت مبتسمة بإغراء «لما وجدت صعوبة كبيرة في العثور على من يوصلني لبيتي».

لم يكن بوسعي معرفة إن كانت جوجا خائفة من العصابات أو أنها تحاول التغزل بي. قررت أن أجرب حظي معها. لكن كان مجرد التفكير بخيانة إلونا ـ مع مثل هذه المرأة غير الجميلة ـ والتأمل بالأمر طويلاً، مذلة.

حين حافظت على صمتي أضافت جوجا بكآبة «زوجي يعمل في البيت. لا أريد أن أزعجه، ربما من الأفضل لي أن أتصل به وأطلب منه القدوم».

لم يكن هناك ما يمكن فعله غير الانصياع وفعل ما تريد. ندمت على مروءتي ما أن خطونا خارجاً في ريح نوفمبر الجليدية. «لم أكن أسمح لك بالسير معي إلى البيت في هذا الجو» قالت جوجا «لكني خائفة من كل تلك القصص الرائجة. لا أريد أن أهاجم من قبل بعض المجرمين». كنا نسير في أفضل الشوارع إضاءة في المدينة كلها، وباستثناء رجل شرطة لم نشاهد أحداً.

«ليس بيتنا على بعد أربع عمارات» أشارت من موقع دفاع، عندما رفعت ياقة معطفي وحاولت إدخال أقل قدر ممكن من الهواء في فمي. مع ذلك، لم يبد تجهم وجهي سوى حافزاً لها، وإن استحالت خجولة.

«أظن أن شاباً مثلك لابد عنده عديد من الصديقات».

«ذلك يعتمد» أجبت بلامبالاة متغطرسة لرجل لم يلمس امرأة لمدة عامين تقريباً. لم أحبذ محاولتها مدحي حين لم أكن متجاوباً.

طرحت عليَّ بعض الأسئلة حول شخصي، أجبت عليها باقتضاب، لكن بنبرة فكاهية. أدهشني أني عاملتها كما كانت إلونا تعاملني تماماً، ورغم محاولتي تخفيف حدة تصرفي بإثارة رغبتها، كما فعلت إلونا، كان نفوري من جوجا حقيقياً. حتى عندما قبلت فظاظة إلونا بمحبة، كنت دوماً أجد عزاءً في يقيني المطلق أنها لا يمكن أن تعني ما تقول. أذهلني فجأة أنها بالفعل قادرة على ذلك، أن مشاعرها نحوي مثل مشاعري نحو جوجا. وجدتها، وأنا سائر بجانبها في الريح الجليدي، أنها بغيضة. رحت أصغي إليها بحس قرابة يائس.

من المحقق أن جوجا أدركت تعاظم اهتمامي بما كانت تقول: فلقد فقد صوتها رتابة نبرته الفجة وتحلى بنغم متعة حذرة. كانت تتكلم عن أطفالها: عندها ابنة في الرابعة من عمرها وابن في الثامنة، كانت وظائفه المدرسية مشكلة «ليس بوسعي مساعدته مثل والده خاصة في مادة الحساب» قالت جوجا حين وقفت قرب عمود كهربائي، وقد قطع تنفسها فجأة. «لا يملك وقتاً كافياً لأطفاله ـ هو دائم الترحال. إنه مسافر هذا الأسبوع أيضاً، يرمم تصدعاً في أحد السدود». في البدء، حسبت أني لم أسمعها جيداً (كان الريح يطغى على صوتها) ثم أضافت بشكل عرضي «نعم، أقضي عدداً لا بأس به من الأمسيات وحدي».

بدت جوجا، في وقوفها تحت عمود مصباح الشارع وعلى خلفية الشارع المهجور وعمارات السكن الحكومية، أنحف في معطفها مما كانت عليه بدونه في الحفلة. وضعت يدي على كتفها.

«كما ظننت» قالت بلمسة ازدراء «قلت لنفسي حين يجد أن زوجي ليس في البيت، سيغير سلوكه». تركت يدي تسقط «في الواقع، أنا أحب امرأة ليس بوسعي حتى أخذ موعد معها، فهي تحب زوجها».

«لا أصدقك» ردت معاكسة بضحكة عصبية. من الواضح أن سحب ذراعي أزعجها «أنت تختلق ذلك» أضافت ممتعضة «لم أسمع قط عن زوجة غير مخلصة لزوجها إذا كانا يحبان بعضهما بعضاً. أنت دون جوان كبير لتبدد وقتك مع امرأة مثل هذه. أعرف نوعك ـ أنت تلاحق المرأة التي تعلم أنك ستحصل عليها فقط».

«ربما لا أحسب خطواتي كما تحسبين».

«لا ترى أنت حتى امرأة إلا إذا كنت تعلم أن عندك معها فرصة».

«أخبرتك في الحفلة أنك جميلة جداً، أليس كذلك؟».

داومنا على المماحكة هكذا حول مقدار الاعتبار الذي نطلبه مقابل التغاضي عن كبريائنا. استسلمت أولاً.

«هل أنت غاضبة عليَّ؟» سألت بحزن مقترباً من جوجا. وضعت رأسي بين يديها داخل القفازات ووقفت على رؤوس أصابعها لتقبلني. من ثم سحبت يديها ووضعتهما خلف ظهرها، خلعت قفازيها وهي لا تزال تضغط نفسها عليَّ. كان بمقدوري سماع قلبها ينبض حتى عبر معطفينا. على ضوء مصباح الشارع. بدت فجأة جميلة: جعلت حمى رغبتها وجهها النحيل يبدو مدوراً. بعد أن تخلصت من القفازين، فتحت أزرار معطفي

وبنطالي ومدت يدها لعضوي. عندما لمستني راحت ترتعش. شعرت بتواضع لجذبي لها بهذه القوة.

«من المضحك ما يمكن للرجال فعله بي!» قالت متنهدة، كما لو أنها تتألم رافضة سلوكها.

بعد وهله تراجعت للخلف، متجهمة «لا ينبغي أن تقبلني هنا، من المرجح لأي عابر سبيل أن يعرفني» كنا كما صدف واقفين قرب البيت الذي تقطنه، تحت مصباح الشارع تماماً ولم يكن بوسعي سوى تقدير عدم حرصها. مع ذلك وحتى بعد هذا الإعلان الصريح عن نواياها، عرضت عليَّ دعوة تقليدية عادية: «الجو بارد هنا ـ لم لا تأتي إلى البيت وتشرب شيئاً».

حين دخلنا شقتهم، قادتني إلى المطبخ، حيث راحت تخرج زجاجات مختلفة من الخزانة «أنا لا أشرب، عندما كنت صغيراً شربت مرة حتى الثمالة، ومنذ ذلك الحين لا أستطيع لمس المشروب» قلت معترفاً.

«تختلق هذا أيضاً. لست من نوع من يمتنع عن الكحول».

في مطبخهم الأبيض اللامع، شعرت بالارتباك، مثل مريض في مستشفى بحاجة إلى طبيب ليخبره ما ينبغي عليه فعله. تمنيت لو كان بإمكاني الرحيل. ألم أكن واقعاً في حب إلونا؟ ألم أجد جوجا غير جذابة قبل نصف ساعة فقط؟ لعلها تعرف نمطي، لكنني لم أعرف ذلك شخصياً، لذا عزمت على جعلها تعرف على أفضل وجه ممكن. أخذت قدح البراندي الذي قدمته لي، جرعته جرعة واحدة، ورحت أسعل.

«اهدأ» همست جوجا وهي تطفئ النور «ستوقظ الأطفال!»

عندما توقفت عن السعال، وضعت رأسها على كتفي. «لست مكبوتة مثلك، أنا بحاجة لشراب» لمست وجهي بأناملها كما لو أنها تريد رؤيتي بها «من حسن الحظ أننا تقابلنا الليلة. جورج غائب منذ أسبوعين ـ وأنا أتلهف لحدوث أمر ما! لكن لم يحدث شيئاً. سيعود غداً».

كانت تخبرني بسيل من الكلمات (وجعل لمسها ذلك أسوأ) إن كل ما تريده رجل قبل عودة زوجها. أظن أنها عرفت أني لا أبالي.

حين لم أستجب وهنت حركتها فجأة.

«زوجي يقول إني لست جميلة. هل تعتقد أنه على صواب؟»

«هراء» رحت أقبلها وأعريها «هراء».

قادتني إلى غرفة صغيرة تحاذي المطبخ.

«ثمة سرير منفرد هنا، لكنه بعيد عن حجرة الأطفال. لن يقلقنا خشية سماعهم لنا».

في وقوفنا في المساحة الضيقة بين الجدار والسرير، كنا ملتصقين ونحن نخلع ملابسنا. «أنا متزوجة منذ ثماني عشرة سنة» همست «لكنك عشيقي الرابع فقط».

«لا زلت متقدمة عليَّ بواحد» دنوت لأدفن نفسي في جسدها الضخم.

«لا ينبغي عليك الكذب لإرضائي. أعرف كم من النساء عرفت! لكني لست غيورة».

استلقينا على السرير الضيق، وظهري للحائط الجليدي البارد.

لكن حين قلبت نفسي فوقها، أحاط جسدها الدافئ بي مثل غطاء مريح ورحت أقبل صدرها.

«عرفت» قالت بدهشة فرحة «عرفت أنك قاضم!» ثم دون سبب بإمكاني التفكير به، حاولت دفعي بعيداً عنها وبان الارتباك عليها.

«لا أعتقد أن عليَّ السماح لك. أنت لا تريدني حقاً»

«يبدو أنك تعرفين كل شيء عني» بادرتها بحدة «إذن عليك أن تعرفي كيف أشعر».

تغيّر مزاج جوجا ثانية بالسرعة ذاتها. «أظن» قالت وهي تفتح فخذيها بثقة «تريد ما يمكنك الحصول عليه».

في العيش بيسر

الحرية إدراك للعوز

فردريك انجلز

لم تستمر علاقتي بجوجا طوال الشتاء. لم ينظر زوجها لها كامرأة، لكنه كان غيوراً. حدث أن تقابلنا بضع مرات. رغم أنها كانت قادرة على القدوم إلى منزلي في وقت مبكر من بعد الظهر، حين تكون والدتي في العمل وأطفالها في الخارج، توجب علينا اللقاء في بيتها كي يمكنها الرد على الهاتف إذا اتصل زوجها. كنا نجتمع في حجرة الخادمة السابقة بمحاذاة المطبخ. سرني أنه لم يكن بوسعي رؤية الحجرة في الظلام أول مرة التقينا. كانت هذه كالزنزانة، بارتفاعها، جدرانها البيضاء الضاغطة، أرضيتها الخشبية العارية والكوة الصغيرة المربعة قرب السقف، من المخلفات المعمارية لغرف الخدم في هنغاريا قبل الحرب، ولم تصلها يد التحسين لتصبح حجرة ضيوف. لم يكن فيها ستائر ولا سجاد، والزينة الوحيدة لوحة زيتية لمنظر طبيعي سوقي، نمط من الفوضى الخضراء التي يبيعها التجار الجوالون على الأبواب. لم يكن هناك مكان حتى

لكرسي : يتألف الأثاث كله من خزانة وسرير ضيق. وحيث لم يكن هناك أحد آخر في الشقة عند لقاءاتنا، تعجبت لماذا علينا ممارسة الحب في هذا المكان الكئيب.

«من المؤكد أنك لا تريدين ضيوفك أن يمكثوا طويلاً» قلت مرة لجوجا.

«هنا أسهل لي كي أرتب الحجرة بعد خروجك» أجابت.

فكرت أن بإمكانها قول «بعد خروجنا» على الأقل.

لفترة، لم يؤثر أي من هذا على لحظاتنا المباركة. من الممكن أن جوجا كانت سمينة، لكن هذا الشحم كان يحرق. كنت أؤكد لها بكل حماس مخلص أن ليس عليها أن تشعر بالنقص إزاء أي امرأة. مع ذلك، لم أكن أدلي بالحقيقة كاملة. بدا أن زوجها المشهور يقوم بوظيفته تماماً لتدمير ثقتها بنفسها، وليس بوسع موعد سريع مع صبي في التاسعة عشرة أن يعيدها لها. منة جوجا ونارها كانت هبات لحظة غير عادية. في الظروف العادية، بدت دوماً شاحبة قلقة، كما لو أنها تأخرت على موعد القطار. كانت تمتع نفسها بشهوة إلى أن تبلغ ذروتها ـ ثم بعد ذلك مباشرة تتحول إلى خادمة عجوز تعيسة «لو لم أسرع لتركتني هناك» كثيراً ما كانت تقول متذمرة مرتعشة. إما بسبب أنها احتاجت لازدراء الآخرين كي تشعر بثقة في نفسها، أو لأنها كانت قلقة خشية خسارتي، نجحت دوماً في تمرير ملاحظة وداع عدوانية «راعِ أن لا تتفاخر بعلاقتك بي أمام أصدقائك» أو «تبدو في وضع مهلهل ـ لم لا تقص شعرك؟» بدأت هذه الملاحظات تزعجني.

«لا أريد أن أكون مسؤولة عن التوازن العاطفي لصبي» قالت لي

آخر مرة كنا معاً في تلك الزنزانة العارية. كانت في أفضل حالاتها، وقد انتهت لتوها من ارتداء فستان مخملي قاتم الزرقة يومض على بشرتها الشاحبة ويمنحها مظهراً مدهشاً على خلفية الجدران البيضاء. «لا أريدك أن تعتمد علي كثيراً» أردفت ليس للمرة الأولى. «ينبغي أن تكون لك صديقة أخرى بجانبي».

«عندي واحدة» أعلنت بصدق، منتهزاً هذه الفرصة لإخبارها.

ذاك الشتاء تعرفت على أصدقاء جدد. كان طلاب كلية فنون السينما والمسرح يدرسون حول الماركسية ـ اللينينية معنا في جامعة بودابست، فكنا نتبادل الحديث خلال المحاضرات المملة. اعتقد الممثلون والسينمائيون الشباب أننا في غاية الوقار، لكنهم كانوا لطافاً معنا، وكثيراً ما دعونا إلى حفلاتهم، هكذا تعرفت على أحد أساتذتهم، امري فاداش، مصور قوي البنية، يأكل اللحم نيئاً. كان شاباً فلاحاً متورد الوجه من بوستا، غير أنه كان يتكلم فرنسية راقية ولغة كل النساء. شعار حياته كان : «لا شيء سهل جداً مثل الحياة السريعة». أصبحنا أصدقاء مقربين. أحب امري عندما كان في مزاج حسن أن يقصَ عليَّ بعضاً من مغامراته، ووجدت إحداها مدهشة حقاً.

أرسل قبل شهور لتصوير فيلم تسجيلي ملون حول عرس قروي. شاهد أثناء رقص العرس فتاة جميلة استهوته وبادلته بدورها نظراته الشريرة بمثلها. بعد التصوير رقص امري معها، لكن لم يكن هناك ما بوسعه فعله، لأنه سيغادر غداً. كانت الفتاة مدرسة في المدرسة المحلية المكونة من حجرة واحدة. أي طيش متهور أو عرض مباشر كان خارج الموضوع، إذ يمكن أن يثير فضيحة وأراد امري أن يغادر تلك القرية الموحلة التي نسيها الله والمخيفة أيضاً كما وجدها.

«تورطت» أذكر أني سمعته يقول بشك «لكن جاءتني فكرة. كانت طاولات احتفال الزفاف مصطفة على طول الجدران، وفوق كل منها مزهرية مليئة بباقة زهور ضخمة ـ من المفترض أنها هدايا العروس. لم لا أقدم عرضي بواسطة الزهور؟ سألت نفسي. كان ذلك سخفاً، لكن يمكن أن ينجح. حتى لو صدم عرضي الفتاة، قد تقصيها هذه الباقة الكبيرة من الزهور عن الاحتجاج بصوت مرتفع جداً. لذا وقفت في وسط رقصة ـ أردت أن أربكها ـ سرت صوب إحدى الطاولات. خطفت الورود من المزهرية وعدت. رفعتها لها ـ لا تزال تقطر ماءً وشوكها يخزني ـ قلت «سأعطيك هذه الزهور، إذا سمحت لي بقضاء الليلة معك».

«ماذا حدث؟».

«وافقت. تورد وجهها بلطف طبعاً. يا رجل، أقول لك كانت تلك الزهور تستحق ذلك». تركت تلك القصة انطباعاً قوياً عليَّ، قررت اتباع أنموذج امري في المرة القادمة التي تكون فيها زهور تحت متناول اليد. بعد قرابة أسبوع، صدف وأن توقفت في مقهى الزنبقة في وقت متأخر من المساء. كنت جالساً وحدي عندما رأيت شقراء مطلقة سعيدة انفصلت مؤخراً عن عشيقها، كما تقول الإشاعات. من حين لآخر كنت أرى بوبي، هكذا كان اسمها المستعار الغريب. قرب حوض سباحة لوكاش، حيث وقعت بالخطأ في حب إلونا. كانت بوبي في الرابعة والثلاثين والنظر إليها متعة عظيمة، خاصة في لباس السباحة البيكيني الأزرق، صدرها مدهش وأردافها تهتز لدرجة كثيراً ما شعرت برغبة في قطعها وأخذها معي إلى البيت. كانت دوماً في صحبة رجل وسيم يتبعها على بعد بضع خطوات. كانت تتحرك أسرع من معظم الناس. تعرفنا على

بعض في إحدى الحفلات، كانت تطرح عليَّ سؤالاً أحياناً عندما نلتقي. بوبي عازفة كمان صف ثان في فرقة بودابست السمفونية، امرأة حسية لكنها مستقلة التفكير تهمل الرجال الذين لا ينسجم تصرفهم وما تحبه. قبل أيام طردت النحات الذي كانت تعيش معه. والآن، إذا لم تكن معلوماتي قديمة، هي حرة.على أي حال، كانت وحدها في المقهى مع صندوق كمانها الملقى على الكرسي المحاذي لها. لابد أنها جاءت بعد الكونسيرت لتشرب آخر فنجان قهوة ليومها.

ألقيت التحية على بوبي بانحناءة احترام وسمحت لي بالجلوس معها. يمكن أن تكون سريعة الخطى في السير لكنها ليست من النوع المرح ـ كانت تتحلى بوقار ثقيل، خاصة عندما تجلس. كان من الممكن أن أذهب إلى السجن وأمزق إرباً من قبل المخابرات، لو تسنى لي النوم معها أولاً، مع ذلك لم أكن متلهفاً. بعد التسكع حول إلونا دون أدنى نجاح لمدة عامين، ثم إغواء جوجا في أمسية واحدة، اقتنعت أن لا امرأة تريدني إلا إذا كانت بحاجة لرجل وتستجيب لي حتى قبل أن أفتح فمي. أذكر أني تأملت بسعادة وسكينة حقيقية كيف كنت سأنهك فكري قبل بضعة شهور في محاولة إيجاد وسيلة للإيقاع بها. الآن وقد عرفت أن المسألة قد حسمت قبل أن تطرح، كان كل ما عليّ فعله أن أجد الإجابة.

كانت بوبي ترتدي رداء الأوركسترا الأسود ووجهها الأشقر المدور بدا متعباً: لم تعبر عيناها عن رغبة أكثر من رغبة الرقاد. مفتقراً لأي معلومات من ذاك النبع الأزرق العميق، ومتذكراً قصة امري، نظرت حولي باحثاً عن زهور. رغم أن اسم المقهى كان الزنبقة، لم يكن في المكان القديم البالي أي نوع منها. لم تكن

هناك حتى زخارف ورقية أو بلاستيكية على الطاولات. كنت أعرف أن في ركن الشارع محل زهور لا يزال مفتوحاً، لكن قد يكون من الغريب الانطلاق للخارج وشراء باقة ورود ثم العودة بها لطرح سؤالي. علاوة، النقطة كلها تكمن في العفوية. لاحظت أن بوبي بالتأكيد غير معتادة على شباب يافعين يهتمون بمناظر أخرى في حضرتها. ملتفتاً لمواجهتها ثانية، محدقاً بأعلى الطاولة الصغيرة المتصدعة بيننا، تعجبت عما يمكنني أن أقدمه لها. لم أر سوى أقداحنا، نصف ممتلئة بالقهوة، ومنفضة سجائر قصديرية بالية مطبوع عليها دعاية جعة، مما يعني أنها لابد مصنعة أيام الرأسمالية قبل ١٩٤٥. منفضة قصدير عمرها سبع سنوات فيها أعقاب سجائر بعض الضيوف السابقين. لكن ألم تحسم المسألة ؟ أخذت المنفضة، أفرغت محتوياتها على الأرض ومددتها لها.

«سأعطيك هذه المنفضة العتيقة الجميلة إذا أصبحت عشيقتي» أخبرتها بصوت واضح قوي.

كنا نناقش قبل لحظة لماذا يظن كلانا أن كوداي كان موسيقياً أعظم من بارتوك، فلم تدرك ما الذي قلته. أجبرت على تكرار عرضي.

«سأعطيك هذه المنفضة العتيقة الجميلة إذا أصبحت عشيقتي».

هذه المرة فهمت «عفواً» سألت.

إلى تلك اللحظة، كنت متأكداً أن حديثنا البريء سمح لبوني التساؤل عما كان يجول في فكرها قبل قدومي للجلوس معها. ربما كانت تفكر بفوضى شقتها، تدريب اليوم التالي، أو ماذا ترسل من الملابس للمصبغة. لابد أن هناك مشاكل تشغل تفكير حتى امرأة

جميلة معروفة جيدة المزاج ـ بعد نهاية الزواج، بعد نحات غبي قالت إن حاجياته ألقي بها في الشارع، بعد كونسيرت طويل ـ بينما هي جالسة وحيدة في مقهى، في الخامسة والثلاثين، بعد الساعة الحادية عشرة ونصف ليلاً. رغم ذلك، لم تبد بوني دلالة على تشتت فكرها.

«يتوجب علي القول» قالت وهي تحدق بالمنفضة التي أقدمها لها «إن هذا عرضاً لم أسمع به من قبل».

«إذن عليك أخذه بعين الاعتبار».

كانت الطاولات القريبة شاغرة، وكما لو أن الفضاء الخاوي حولها أمسى صحراء مقفرة، لقد وضعتها في ألفة اللحظة. يمكن للنساء اللاتي مشاعرهن دفينة آمنة أو هامدة أن يتعاملن مع مثل هذا الوضع بطريقة أو أخرى. لكن بوبي كانت من النساء اللاتي ترتبط أفكارهن بحالتهن العصبية. كانت الأشياء تزعجها، وعندما تواجه بعرض مفاجئ، لا يمكن لشكلها عدم المعاناة من تبدل عاطفي. ليس الرجل بل الفكرة نفسها ما يعري تلك النسوة من شخصياتهن، كما لو أنهن يأخذن صورة أشعة لأنفسهن، حس إدراك ذاتي مكثف لكن مخفف. وعليه، انزعاجهن من غزل عابر، هو بمثابة إرباك حقيقي. يشي ذلك بكثير عن شخصية بوبي، وقارها الصامد أمام التهديد، عجزي عن معرفة ما كان يعتريها من مشاعر وأنا أمد تلك القطعة البالية من القصدير إليها. غير أنها لم تجد عرضي يرقى للمستوى المطلوب.

«المنفضة ملك إدارة المحل» قالت.

راضياً عن عرضي لوجهة نظري أعدت المنفضة إلى الطاولة.

مدت يدها لتنهي فنجان قهوتها، وكذلك فعلت ـ بجذل أيضاً. خطر على بالي مدحها بعبارات ناعمة (يمكن أن تأتي بسهولة) حسبت أنها قريبة لدرجة يمكن لصوتي أن يلمس بشرتها. يمكن لحديثي أن يجد سبيله إلى رقبتها الطويلة، إلى شعرها الأشقر، المربوط بعقدة مرتخية، يمكن لصوتي أن يلمس شحمة أذنها تحت قرطها الحجري الأسود. يمكن لمسها بصوتي ـ ولم تكن فكرة غير ملائمة تماماً، ربما ذلك، آخذين بعين الاعتبار، أنها عازمة كمان. لكن لماذا عليَّ تبديد الوقت بأمور زائدة غير ضرورية؟ كنت متهيئاً لمغادرة المكان وسعيداً لقضاء لحظات مع امرأة مثيرة ومن ثم نسيان الأمر. حولت نظري حتى عن بوبي لأراقب الحشد المتضائل، وقابلت تحديق نادل بعيد، رجل نحيل أصلع ينظر إليَّ بابتسامة مطلع.

«ما رأيك؟» سألت بوبي.

«حسناً، لكن عليك أن تسرق هذه المنفضة لي» قالت.

لابد أن قوة نبرة صوتها حذرتني أن الجزء السهل من قضيتنا انتهى.

هذا الدرب درب الموت، كثيراً ما فكرت خلال الليلة وقلبي ينبض بالسعادة في عقلي. «لا تخرجه» قالت بعدما بلغنا الذروة أول مرة معاً «أحب أن أحس به صغيراً». لكن سرعان ما راحت تحرك مؤخرتها ثانية، بينما وجهها يبتسم لي بسكون. «كنت أرتعب من الجنس» أفضت بهمسة. لم أصدقها «حقاً هذا صحيح. كنت خجولة رعديدة بشكل سقيم. كانت الحياة أبي وأمي والكمان فقط» ثم قلبتني على جانبي بأطرافها وداومت على الابتعاد مما جعلني أدفعه بسرعة حتى لا يخرج منها. «الآن علينا

أخذ قسط من الراحة» قالت بعد وقت برضا «دعنا نمارسه على الطريقة الفرنسية ».

كانت جالسة تضرب ساقي بأصابع قدميها وتحاول اطعامي الفراولة، عندما هجعت بعد الشروق بقليل.

قرع المنبه في تمام التاسعة. كان عند بوبي تمرين وأنا متأخر على المحاضرات. غادرنا شقتها بسرعة دون تناول الإفطار. «لنذهب للسباحة عند الغداء» اقترحت ونحن هابطين الدرج، وكلانا منطلق في سبيله. نمت خلال مقدمة فيشي« Wissenchaftslehre».

اشتريت شطيرتين تفهتي المذاق، التهمتهما في الحافلة، وقابلت بوبي في مسبح لوكاش الساعة الواحدة والنصف. وصلت قبلي ووقفت قرب الحوض بلباس السباحة الأزرق، شعرها الأشقر أكثر بريقاً من شمس الشتاء الشاحبة البراقة عبر القبة الزجاجية المكسوة بالصقيع. حدق الغرباء بها، ومن يعرفها حياها بتحية مبجلة. تساءلت إن كنت أحلم بها فقط، لكن عضلاتي المتألمة كانت الإثبات المبارك.

اقترحت أن نتسابق على طول الحوض. أخيراً عندما خرجت من الماء، محاولاً التقاط أنفاسي، كانت تجفف شعرها بمنشفة. متجاهلة المعجبين من مشاهديها، قبلتني قبلة طويلة.

«الفضل يعود لك أني في لياقة تامة» قالت.

«لماذا؟»

«ألم تسمع في حياتك قانون أنشتين؟ المتعة تتحول إلى طاقة».

اقترحت أن نستلقي قليلاً. تمددنا على بطوننا، أذرعتنا معقودة وأكواعنا متلامسة. لا أدري كيف لم ألاحظ ذلك من قبل: كان

هناك رقم موشوم على ذراعها السفلي. لابد أنها رأت اتساع حدقتي، لأنها أجابت قبل أن أطرح أسئلتي.

«ألم تعرف؟ لست مثقفة، لذا أعتقد أنه من الصعب معرفة أني يهودية».

«لا يمكنني تخيل أنك عشت في مخيم موت».

«أسشويتز ـ مائة وسبعة وعشرون يوماً وأربع ساعات».

رأيت بعين عقلي، وهي تتكلم، صورة جماعة من اليهود، رجال ونساء برؤوس محلوقة، دون ملابس، هياكل عظمية عارية، تقف أمام الثكنات، كثيراً ما كانت الصورة تنتابني، تجعلني أشعر بأني لو كنت واحداً منهم لما كان بمقدوري الاستمرار في العيش حتى لو بقيت على قيد الحياة. محاولاً تخيل ما مرت به ومشاهدتها مستلقية بجانبي بعد سنوات فقط تنضح بالصحة والطاقة، أشعرني بالخجل من نفسي لأني تعب.

عندما غادرنا المسبح، ذهبت بوبي إلى البيت لتتدرب وأنا إلى الجامعة. أعطتني تذكرة لكونسيرت المساء، بعد ذلك ذهبنا للعشاء في مقهى الزنبقة. أخبرتها كيف توصلت إلى فكرة تقديم المنفضة لها. في وقت متأخر من الليل، حين داهمني النعاس، أيقظني وكز وضرب خفيف على الضلوع «أعتقد أن علي مقابلة صديقك المصور» قالت بوبي شاكية بصوت مرتفع «عليك أن تعرفني عليه يوماً ما».

بعد ذلك جافى النوم عيوني، جلسنا نتبادل الحديث. كل يروي قصص حياته. كانت بوبي لا تزال عذراء حتى السادسة والعشرين وتعيش مع والديها، حين استولى الغستابو والنازيون الهنغار في

أواخر صيف ١٩٤٤ على البلدة التي كان والدها يعمل فيها مدرساً للموسيقى وكانت هي عازفة الكمان في الأوركسترا السمفونية المحلية. تذكر وهي تقف مع أمها قدام ملصق يأمر كل اليهود بالانتقال إلى الغاتو، أمها التي لم تكن يهودية كانت تضحك على الإعلان الخاص الذي يخبر غير اليهود المتزوجين بيهود أن بإمكانهم الطلاق بمجرد إعلان في صالة البلدية، وبهذا يمكنهم البقاء والتمتع بحقوق الآريين. «عشت مع والدك سبعاً وعشرين سنة ـ كيف يمكنهم تخيل تركي له حتى ليوم واحد؟» انتقلوا إلى الغاتو، لكنهم بقوا معاً أمسية واحدة فقط. في منتصف الليل، أيقظهم نباح الكلاب والصراخ : كان على الرجال المغادرة إلى معسكرات العمل. ساد ارتباك عام، لكن الحرس أكدوا لهم أنهم سيلتقون في بضعة أيام. عانقا والدها، شاهدوه في صف تحت الأضواء الساطعة، ولم يروه بعد ذلك أبداً. في صباح اليوم التالي أقفل على النساء والأطفال في عربات قطار شحن، فتحت بعد قرابة أسبوعين عند ألواح جدران أسشويتز. على منحنى وقف رجل أنيق يرتدي بزة بيضاء ليصنف القادمين الجدد بالإشارة إليهم بسوط جواد. عندما سأل والدة بوبي بتعاطف إن كانت تشعر بأنها قادرة على القيام بعمل شاق، دهشت لهذا الاهتمام غير المتوقع براحتها ـ بعد أن حجزت أسبوعين مع الموت والموتى في عربة الشحن ـ أجابت بابتسامة امتنان أنها تفضل القيام بعمل خفيف مثل الطهي أو الخياطة. قادها الرجل المؤدب إلى مجموعة من كبار السن، النساء الحوامل والأطفال الذين سيقتلون بالغاز في الحال. أو هكذا علمت بوبي لاحقاً، لم يعرفوا آنذاك ماذا حدث لهم. لابد أن أمها اعتقدت أن بوبي على وشك الالتحاق بها، لأنها لم تبحث عنها.

كان عمل بوبي الأول في اسشويتز سحب الجثث المجمدة خارج حجر الغاز وتكديسها للحرق. ارتعبنا، وهي تتذكر ذلك وتعانقنا كما في عاصفة.

أخبرتها عن جريمة مقتل والدي وبكينا عليه وعلى والديها. كان العالم تافهاً غير محتمل، لكننا وجدنا مأوى لنا في بعضنا. في الصباح سألتها أن تتزوجني. بدا عليها السرور. لكنها رفضت طلبي. «أنت محظوظ لأني لست أصغر ببضع سنوات، سأصدق كلمتك، لكن ليس عندي اعتراض على المبدأ. إذا بقينا معاً سنة أخرى من الآن يمكن أن نتزوج».

قدمت بوبي لي قهوة وتفاح على الإفطار، وتقابلنا ثانية عند الغداء في مسبح لوكاش. بدأت اشعر بالدوار «تبدو شاحباً» لاحظت باهتمام حقيقي «أنت حقاً بحاجة للسباحة».

في المساء أخذتني إلى حفل حيث لم أكن أعرف إلا قليلين هناك وقدمتني كصديقها. «في حالة تعجبكم» أضافت كلما بدا الاستغراب على أحد «أنا أكبر أندراش خمس عشرة سنة، لكنه يسوي الفرق بجرأته». في الواقع، شعرت بالتهديد. كان في حفل الجميع واقفاً على قدميه، ووجدت من الصعب البقاء كذلك.

كان أحد الضيوف ناقداً موسيقياً بارزاً بعيون فطنة، لحية سوداء كثيفة وزوجة بدينة قصيرة. عند رؤيتنا نتأ هذا الرجل لحيته أمام صدره، ترك زوجته وذهب ليتبع بوبي بين الحشود. حاولت التركيز على السيدة التي تركت لي للاعتناء بها، لكن كلانا تابع زوجها الخسيس، الذي كان يتكلم بسرعة مع عشيقتي.

«بوبي امرأة غير عادية» قالت الزوجة، رافعة جسدها البالوني قليلاً وكذلك صوتها.

«نعم، هي كذلك» أجبت وتعبي يمنعني من التظاهر بشيء آخر. «أنا مسرورة لأنك تشاركني قلقي».

بعد ذلك سمعنا صوت بوبي يعلو فوق الضجيج. استطاعت أن تتكلم بنبرة حديث عادي مع ذلك شدت انتباه كل من في الحجرة.

«هل كنت يوماً غير مخلص لزوجتك ؟» سألت الناقد. حين التفت الضيوف لهما، ساد الجو صمت مجسم مفاجئ ـ عرف صداه من قرقعة مكعبات الثلج المنتشرة في الأقداح. أمسك الناقد بلحيته محرجاً ـ أو ربما ليحميها من النشاط الإشعاعي الذي كانت ترسله زوجته له.

«لماذا؟ بالطبع لا!»

ضحك بيأس «لم أكن قط غير مخلص لها».

«إذن لا تضع وقتي هباء» أعلنت بوبي ببهجة وهي تبتعد عنه.

اقترحت بوبي، ونحن نغادر الحفل، أن أذهب للبيت وأنام إن كنت أشعر بالتعب، لكني لم أعر ذلك انتباهاً. كان يوم جمعة، وفي الليل قررت أن نذهب للتزلج على الجليد في عطلة الأسبوع. كنت قد تزلجت بضع مرات في حياتي، مع الجنود الأمريكيين في النمسا، ولم يكن عندي لا ملابس تزلج، لا معدات ولا نية لقضاء يوم السبت في تلال بودا العاصفة. مع ذلك، كان عند بوبي سروال تزلج زائد ومعطف على مقاسي، وكانت تعلم أن بإمكاني

استئجار حذاء ومعدات تزلج في النزل. وصلنا التلال قبل الساعة الحادية عشرة، وعدنا إلى شقتها نحو الساعة الثامنة مساءً.

كانت شقة بوبي صغيرة، نظيفة ومليئة بالألوان المدهشة. غطاء أسود منسوج على نول يمتد من جدار إلى آخر ويغطي، ليس حجرة النوم فقط، بل الحمام أيضاً. كان للأثاث لون أزرق برتقالي حيوي. لم يبد أن لشيء حافة حادة، كما لو أن القطع الصلبة على وشك الذوبان في الألوان السائلة. على الأقل هكذا رأيتها ذاك المساء، في حالة التعب والنشوة التي اعترتني.

سلقت بوبي بيضاً، حمصت خبزاً وعملت شاياً، تناولنا الطعام جالسين على السجادة أمام المدفأة الاصطناعية، التي في داخلها مرسل تسخين مركزي. فوقها، على سلسلة فضية، كانت المنفضة معلقة بعد أن صقلت ولمعت، كما لو تذكرني بتحرشي العفوي بالنساء.

«هذا رائع» قالت كما لو صرحت ببعض الأخبار المثيرة.

«لا أرى ما الرائع فيها»

لم توضح ذلك إلا بعد أن كنا في الفراش «أنت بارد كالجليد» همست «لكن داخلي دافئ، سيكون هذا ألطف» كانت على صواب.

قضينا يوم الأحد في الفراش، حيث كان بإمكاني أخذ غفوة وهي تستحم أو تبحث عن شيء نأكله، غير أني لم أحصل على فرص أخرى للنوم في الأسبوع التالي سوى في الفصول وحفلات الكونسيرت. ذهبت للبيت في نهاية الأسبوع الثاني، واسترحت من حين لآخر، لكني بدأت أشعر بأني دائم الثمالة. ليس شيء غير

مسر، رغم ذلك. علاوة، كنت فخوراً لمجاراتي بوبي، وشعرت بمكافأة سخية على جهودي. كانت تسير في شقتها عارية، باستثناء سروالها الداخلي، وأنا مستلق على الفراش، أراقب بسحر أصابع رجليها البيضاء الطويلة، تلك الجذور العشرة الحية لجسدها كله، وهي تغوص وتنبثق من السواد العميق للقماش المنسوج. لا زال بإمكاني رؤيتها، من خلال السديم، مثلما كانت تماماً. ولا زال بمقدوري الشعور بلمسة أصابعها اليقظة على كتفي ونحن نتكلم أو نمارس الحب.

إذا لم أحب شيئاً في بوبي، فهو أنها لم تجد ما هو ليس خارج العادي في مقدرتي على البقاء مستيقظاً معها كل ليلة، والذهاب للسباحة والسير طويلاً وبرشاقة خلال النهار ـ بالإضافة إلى حضور معظم محاضراتي في الجامعة. تمنيت لو أنها تعترف أن ليس هناك كثير من الرجال يمكنه أو يود فعل ما كنت أقوم به.

«أنت أحمق» قالت لي بعد ظهر يوم في نهاية شهر مايو، ونحن نسير في الحديقة في آخر ساعة قبل الغروب. «أنت تقتل نفسك من أجلي، هذا سخف».

«هراء» قلت بإصرار عصبي. لاحظت مؤخراً أنها غير مرتاحة في صحبتي، ويستغرقها بلوغ الذروة وقتاً أطول وأطول وإرادة.

«أشعر بالذنب بسببك أندراش» بدا صوتها أكثر قلقاً منه نادماً.

«أحياناً أنام بعد الظهر، كما تعلم، لكن ماذا عنك ؟ أصبح الأمر برمته مضراً لك وإن بدا جيداً، ألا تظن ذلك؟!»

«كلا، لا أظن ذلك» اعترضت ببؤس «لكني سعيد لقلقك عليَّ»

كانت المرة الوحيدة التي رأيتها تفتقر للكلمات. كنا صامتين برهة واستمرينا في السير تحت الأشجار، تحت وخارج أشعة الشمس الخابية.

«كيف تريدني أن أخبرك» انفجرت أخيراً بإحباط «ألا تعتقد أن الوقت قد آن لتأخذ الأمور بشكل أبسط؟».

لم أحاول الدخول في نقاش معها. عزمت، دون مرارة، أن وقت التضحية بنفسي من أجل بوبي هو وهي لا تزال تحبني. أظن أنها توقعت أن أشكو، لكني لم أقو على ذلك أيضاً. في الواقع، ما الذي يمكنني الشكوى منه، بعد تلك الشهور الشبيهة بالحلم والدوار.

في العذارى

أيتها الطهارة، إنك موجعة نازفة

باري بين

لا زال الإجهاض الموضوع الذي يستحوذ على الاهتمام العظيم في حرم جامعتنا هنا في آن آربور. ينشر في صحيفة الطلاب، المعنونة، ربما ببعض التضخيم المتكلف «ميشيغان ديلي» عدة رسائل حول الموضوع كل يوم. ورغم أن معظم الرسائل ترد من جماعة مؤيدة لحق الخيار، فإن ثمة تأييد متعاظم لوجهة نظر الحق في الحياة. بوجود هذه المشكلة الشائكة التي تجول في ذهن كل فتاة، لم أدهش لرؤية مقالة منشورة تحت عنوان رئيسي: العذرية: أسلوب الحياة الجديدة. ردت جماعة من طلاب طب السنة الثانية تسمي نفسها «الأطباء الذكور المؤيدون للاختلاط الجنسي غير الشرعي» برسالة تعلن نيتها النضال ضد الانبعاث الخطير لهذا المرض النادر، العذرية، التي اعتقد سابقاً أنها اجتثت. ولأن بعض طلاب الطب فحصوا ومحصوا محاضراتي، اتهمت في اجتماع الكلية التالي بوجود ضلع لي في هذه النكتة عديمة الذوق التي تميز بين الجنسين،

ولأبرئ ساحتي وأصون شرف قسم الفلسفة، كتبت في رسالة إلى صحيفة ميشيغان ديلي «صدمت لعنجهية جمعية الأطباء الذكور المؤيدين للاختلاط الجنسي غير الشرعي وعرضهم لشفاء الشابات من العذرية. إن كانوا لا يقيمون وزناً لمشاعر الشابة والمبادئ الأخلاقية، دون ذكر مخاوفها المشروعة حول مستقبلها، ينبغي أن يولوا بعض التفكير إلى الجزاء المرعب الذي سيجلبونه على أنفسهم». كانت هناك بعض التعليقات الأخرى حول الموضوع، لكن النقاش الكبير انتهى إبان أسبوع الشواذ والسحاقيات.

في أيام دراستي الجامعية في بودابست، عرفت ممثلة شابة تدعى ميتسي، حمراء الشعر طويلة الساقين والذراعين. تبادلنا التحية سنتين قبل أن نتعرف على بعض بشكل أفضل. كان من المفترض أن تكون موهوبة وجميلة حارة ـ لكنها بديهية لا تثير الفضول. عرفتها من دروس الماركسية ـ اللينينية فقط، التي كان طلاب كلية الفنون المسرحية والسينمائية يدرسونها معنا. مع ذلك شعرت بأنني أعرفها جيداً بما فيه الكفاية، ولو بالصورة والصوت فقط. كانت مغرمة بالتفوه بالكلمات البذيئة بصوت مرتفع، ترتدي تنورة قصيرة غير عادية وينتظرها رجل مختلف بعد الدروس كل أسبوع. خلال تلك الفترة أقمت علاقات مع فتيات من عمري، علمتني أن لا فتاة، مهما كانت ذكية ودافئة الفؤاد، يمكنها في العشرين معرفة أو الإحساس بنصف ما تعرفه في الخامسة والثلاثين. مع ذلك، لم أعد أخشى وجهاً شاباً، وإذا بقيت بعيداً عن ميتسي فذلك لأني لم أر ما يجذبني إليها.

غيرت فكري في أمسية يوم جمعة في نوفمبر. كان يوم جمعة مشهود بالنسبة لي، إذ كان بإمكاني أخذ فتاة معي إلى البيت

لقضاء الليلة هناك، فلقد ذهبت أمي إلى الريف لزيارة والديها ومساعدتهما في قطف العنب، وتركت وحيداً في شقتنا يومين لكن جلب فتاة إلى حجرتي وأمي في البيت، كان خارج نطاق التفكير. سنحت لي بعض الفرص لمضاجعة نساء منذ أن تعبت بوبي مني، والآن حيث الشقة تحت تصرفي، كنت متلهفاً للاستفادة من تلك الفرصة في متعة حميمة. مع الأسف، كانت المرأة التي أعاشرها آنذاك متزوجة، ولم يكن بوسعي الطلب منها ترك زوجها وأطفالها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معي. خططت للعثور على صديقة في حفلة المسرح القومي، التي عقدت ذاك المساء للاحتفال بافتتاح الموسم الجديد. كان هذا أعظم حدث اجتماعي سنوي في مجتمع بودابست الفني، ويجذب أكبر حشد من النساء الجميلات رأيته في مكان واحد في حياتي. كان طلاب كلية الفنون المسرحية والسينمائية مدعوين أيضاً للاختلاط بعظماء القوم، ونجحت في الدخول كواحد منهم مع مجموعة من الأصدقاء. كانت حفلة كبيرة تقام في مكان تاريخي - في المسرح القومي لبلد محتل من قبل قوات أجنبية. عنى المسرح القومي لنا تحت الاحتلال النمساوي، ثم الألماني فالروسي، ما عنته لاسكالا ميلانو إلى الإيطاليين وهم يرزحون تحت الاحتلال النمساوي. كان السياسيون الهنغاريون يعينون من قبل فرق الدبابات السوفيتية القابعة خارج المدن الكبيرة، لكننا كنا التجلي الخالد لأرواحنا الحرة هنا، داخل جدران شهدت انتصارات لغتنا، والأيام العظيمة لتاريخنا الممتد ألف سنة التي يثيرها شعراء الدراما في بلادنا. إبان ثورة ١٨٤٨ ضد النمساويين وثورة ١٩٥٦ ضد الاتحاد السوفيتي، كان المسرح القومي واحداً من النقاط المضيئة بعروضه التحريضية

غير المبرمجة للكلاسيكية الهنغارية: «بانك بان» التي تدور حول ثورة قرنوسطية ضد حاكم أجنبي. بعد أن أخمدت ثورة ١٩٥٦ وأقيم نظام كادار من قبل الروس هدم المسرح الوطني وحلت مكانه محطة قطار أنفاق، لكن البناية المهيبة القديمة التي كانت في غاية الخطورة على الحكومة البوليسية المستعمرة أيضاً، كانت (وللسبب ذاته) مصدر إثارة جنسية فعال بالنسبة لنا. شع انتصاب الأعمدة الرخامية بالكبرياء الروحي والشهوة، رغبتان توأم تنبعان من أعماق الروح ذاتها.

استعمل البهو بأعمدته، تماثيله البرونزية وثريات الكريستال، كقاعة رقص وعزف للأوركسترا، وحولت حجر إيداع المعاطف والقبعات إلى بارات ومطاعم وجبات سريعة واستخدمت صناديق المسرح المعتمة كحجر تبديل ملابس فورية لمن يريد الانسحاب من بين الحشود. قضى كثير من الناس أعظم اللحظات العاطفية والمرحة في حياتهم هناك. لم يكن ذلك مثل لقاءاتنا في الجامعة، وكنت متلهفاً للانضمام إليه لكن الحظ لم يحالفني.

كنت دون رفيقة حين قامت مدام هيلدا، ملكة شكسبيرية متفوقة بخروجها المشهدي. كانت تلك النجمة السحاقية ملكية حقاً، تعامل الجميع باحتقار تام وتملك من الأعصاب ما ينم عن ذلك، دون اعتبار إن كان من تزدريه عديم الأهمية أو من رجال السلطة الذين يتحكمون بحياة وموت البشر. كانت وقاحتها جلية تمكنها من تجاوز أي أمر كان. شاع أنها زجرت مرة راكوسي (ديكتاتور الكرملين المحلي في الوقت الذي كان يعدم وزراءه على أمور أقل أهمية) والسفير السوفيتي عندما ذهبا خلف الكواليس لتقديم التهاني لها بعد العرض. كما لم تكترث بإخفاء نزعتها

الذكورية القوية. كانت تتغزل بالفتيات بانفتاح أكثر من معظم الرجال. أخيراً في الثانية صباحاً، اختارت فتاتين راغبتين من طالبات التمثيل وقادتهما أمامها وهي تربت على أردافهما بيدها الصلبة. سارت مدام هيلدا في الردهة تحت ثريات الكريستال ساطعة الضياء، في عباءتها الساتنية الخضراء الداكنة، بخطى واسعة، تحث وديعتيها الشاحبتين أمامها، غير آبهة بنظرات المجتمع الفني الهنغاري الواقف على الجانبين. ركزت عينيها ويديها على أرداف غنيمتيها المهتزة الخرقاء. كانت مدام هيلدا معروفة بطريقة مغادرتها التي تجعل من تخلف وراءها في المسرح غير بادياً.

سجلت مغادرتها الحفل تغيراً في السلوك الأقل رسمية، إذ شرع الرجال والنساء المتفاهمين يخرجون أزواجاً، وتبعتهم النساء الوحيدات، فأصبح الجو ـ دون وجود من يعتمد عليه ـ أثقل من يتنفس. مصحوباً بأنغام فالس شوبرت المحتشمة، صحب الرجال الفتيات للرقص أو إلى علب المسرح المعتمة. كانت وجوههم لا تزال تحمل التعبير الحجري لمعبودي الجماهير، غير أن عيونهم كانت تحترق بلهيب خامد، مثل الشموع في قداس أسود. وحيداً في هذا الجو الشهواني، لم يكن بمقدوري الشعور إلا بالتعاطف مع متوحد آخر ـ تعاطف ودهشة، ذلك أن ميتسي لم تكن فتاة يتوقع المرء أن تترك وحيدة دون رفيق.

مرتدية فستاناً من الشيفون الأبيض الذي لا يكاد يغطي الظهر أو ما فوق الخصر، سارت ميتسي بخطى واسعة بين الراقصين بنوع من الملل النكد. عندما رأتني مدت ذراعيها بإيماءة عظيمة لا يمكن إلا لممثلة فقط القيام بها. «أندراش» قالت كما لو أنها ولدت خصيصاً لتسليم نفسها لي فقط جسداً وروحاً. قبل أن أملك

الوقت للرد، وضعت ذراعيها حولي وراحت تتحرك والموسيقى. لم ندر أكثر من مرتين حتى راحت تهمس في أذني «أنت رائع... طالما ملت إليك، هل تعلم ذلك؟» عندما انتهى الفالس مالت عليَّ: «هل يمكن أن أتكلم معك بجدية؟»

«عن ماذا؟»

«عنك وعني» تراجعت وبدت كئيبة. فجأة عزمت على أن الوقت قد أزف لإعطائها فكرة عني «اسمع، لماذا لم تحاول قط نكحي؟».

«لم أعتقد أني أعرفك بما فيه الكفاية لفعل ذلك» قلت متورد الخد.

«هذا عذر أقبح من ذنب»

«لنذهب إلى شقتي» اقترحت بحالة من قلق مثير.

هل وضعني شكلي الوسيم أخيراً بين يدي مهووسة جنسياً؟ ما أن دلفنا عربة الأجرة حتى بدأت في تقبيلي، وفي الآن ذاته، أخذت يدي وقادتها إلى ما تحت تنورتها.

«أنا سعيدة كوني معك وحيدة» همست بصبر نافد.

لكننا كنا في عربة أجرة. أظن أن الشهوة كانت قد أعمت ميتسي، فلم تر نظرات السائق الفضولية المختلسة ـ كما لو أن الشهوة يمكنها تجاهل ظرف يمنع اشباعها. ولم آخذ بعين الاعتبار معنى عكس حركة تقليدية، عندما أخذت يدي ووضعتها على عضوها، عوض مد يدها إلى عضوي. شوش توقعي فكري فلم أتأمل في الأمر: يدي في سروالها الداخلي، أصابعي تلمس تلك المنطقة الرطبة، مثل كشافة يرسلون أمام القوات الرئيسة.

أخيراً عندما أصبحنا في المصعد، تذكرت ميتسي أمها فجأة فتراجعت. «لن تحب أمي تأخري إذا علمت به» (لابد أن الساعة كانت تقارب الثالثة صباحاً) «فهي تؤمن بالقول القديم ـ نام بكير واصحى بكير وشوف الصحة كيف بتصير».

«هل تسكنين مع والديك؟».

«أعيش في منزل الطالبات. فتاة من بلدة صغيرة بعيدة عن بيتها. لا يسر هذا والدي، ولا يحبون فكرة أن أصبح ممثلة».

حين خرجنا من المصعد وسرنا في الرواق المنحني، تحول وجه ميتسي إلى ما يشبه الشمع تحت ذاك الضوء الأصفر الخاص المميز لعمارات الشقق السكنية. فكرت أن وجهي لابد كان كذلك أيضاً، فلقد كان الوقت متأخراً. شعرت بأن جسدي قد شحن بتيار مماثل. استمرت في الحديث عن صديقاتها في بلدتها. سررت لأنها احتاجت أيضاً لوقفة لجمع نفسها بعد لمسنا الحميم في عربة الأجرة. كانت في طريقها إلى فراش زميل دراسة غريب، وتوطد توازنها الداخلي باستعادة ذكريات رفاق طفولتها، كما يفعل الغطاسون بحني أقدامهم على العارضة الخشبية المرتفعة أولاً ليتأكدوا أنهم يقفون على شيء صلب قبل القفز.

عندما وصلنا حجرتي، نظرت ميتسي حولها لتقييم الغرفة بلمحة سريعة وعملية، ثم اتجهت رأساً إلى الفراش بنوع من المباشرة الاحترافية ذكرتني بالآنسة موزارت. جلست على السرير وخلعت الجزء العلوي الضئيل من لباسها. قبل أن أتمكن من الجلوس بجانبها كانت قد خلعت صدريتها أيضاً. عارية إلى الصرة، جعلت ظهرها في خط مستقيم ودفعت نهديها الصغيرين إلى الأمام. قالت، وأنا

أرمقها شاعراً بالتراجع والتقدم معاً، بابتسامة غريبة: «أريدك أن تضيء كل الأنوار، أريد أن أرى وجهك».

أضأت كل الأضواء، جلست بجانبها، وشرعت في خلع ملابسي. رغم ذلك، سحبتني إليها، محركة حلمتي نهديها العاريين على معطفي.

«أفضل أن تخلع أنت سروالي الداخلي».

أطعت في التو. حين فعلت ذلك، ارتفعت تنورتها إلى أعلى وفتحت فخذيها النحيلين الشاحبين، ثم أغلقتهما ثانية. مع ذلك، لم تتخل عن ردائها الشيفون الأبيض الذي صار الآن صرة غريبة حول عجزها. حاولت ولوجها لكن تلك الصرة كانت تحجب الطريق. «كانت حفلة مثيرة جنسياً، أليس كذلك؟» همست ممسكة بعضوي المستعد وشدته إلى بطنها. أحست به، لمسته وضغطته إلى الأسفل ليبقى ثابتاً. أغلقت عينيها وأبقتهما مقفلتين. ماذا رأت؟ رأت شيئاً ـ علمت من طريقة ابتسامتها. هل كانت بحاجة إلى محفز آخر من الصور الموحية، حافظت على عينيها مغمضتين كي يمكنها أن ترى خلف رموشها أجساداً أخرى، بينما تحس بجسدي ؟ يقال إن الفتاة صاحبة المخيلة الخصبة قادرة على المشاركة في جماع جماعي حتى مع رجل واحد.

بعد ساعة أو نحو ذلك، بدأت اشعر بنفاد صبري مع ميتسي، مدركاً الثقل المتعاظم لحركاتي، قلبت نفسي إلى الجهة الأخرى من الفراش ووضعت ساقاً على أخرى. فامتعضت.

سرت مترنحاً إلى مشغل الأسطوانات القديم الذي يدار باليد ورحت أديره للعمل. كان ذلك جيداً لحفظ توازني. شعرت، وفتاة

في عجلة لبلوغ ما تريد، أن من واجبي تجاهها أن أدعها تختار توقيتها.

«انظر إليَّ» سمعت ميتسي تقول «أريد أن أرى وجهك»

نظرت إليها واقترحت عليها أن تغطي نفسها بالبطانية ـ وإلا ستصاب بالبرد.

«لا يمكن»

«لماذا؟»

«أنا متدينة»

«ماذا تقصدين، أنك متدنية؟»

«أنا عذراء»

عدلت ملابسي المهلهلة، شاعراً بالخجل من حماقتي.

«انظر إليَّ، أريد أن أرى وجهك» أصرت ميتسي فاعتراني شك لماذا.

غير أنها أحبطت أي شيء ممكن كان بإمكاني فعله. «حتى إذا لم تنظر إليَّ، بوسعي معرفة أنك غضبان. لكن ذلك يثبت أنك لا تحبني. لو كنت تحبني لرضيت بمجرد اللعب».

«حسناً، لقد لعبنا» قلت بمرارة وأنا أقف في وسط الحجرة، خارج منطقة الأرض المحايدة «ما رأيك بلعب شيء آخر لمجرد التغيير؟ هل تريدين الاستماع إلى الأسطوانات؟ نجلس ونتكلم؟»

«لابد أنها الرابعة صباحاً، الوقت متأخر للحديث» قالت ميتسي باستياء.

«حسناً، هل تودين العودة للبيت؟».

«من اليسير عليك قول ذلك، فأنت شاب» رفعت فستانها إلى أعلى ثانية، لكن دون صدرية، وشدت تنورتها للأسفل» لن يكون بوسعي النظر في وجه أمي ثانية، إذا نسيت نفسي، لا تضحك (لم يكن بمقدوري ذلك) «أنت لا تعرف أمي. خططت لتصبح راهبة، حتى عندما كانت تخرج مع والدي. لكنه نكحها وكان ما كان» أضافت بتكشيرة ترضية «أظن أن بإمكاني القول إني كنت خطابة قبل أن أولد».

«يبدو هذا زائفاً مثل كل ما تفوهت به».

«وماذا إذا حملت؟ لم تفكر بذلك طبعاً».

«لم تحمل أي امرأة مني من قبل؟» اعترضت صادقاً «الراهبات لا يخبرنك عن تحديد النسل، أليس كذلك؟».

«أنا معجبة بك لكني لن أفعل ذلك».

«أظن أنك كنت تشكين في حفل الرقص أني لم أنكحك!».

«كنت أشكو عدم محاولتك».

لم يكن بوسع ميتسي كتم ضحكة انتصار لقولها ذلك. أعادني الصوت إلى الوراء ثمان سنوات حين بدأت مع الفتيات المراهقات.

«اسمعي ميتسي. سأطلب لك عربة أجرة».

«لا أريد الذهاب».

«ميتسي، إما أن تغادرين أو سأدعو الشرطة».

«وماذا ستقول لهم؟» صمت «لو كنت تعرف أي شيء عن النساء لعلمت أني أحبك».

«حسناً، إذن أنا سأغادر».

أمسكت بي قرب الباب ومالت عليَّ، حزينة جريحة. راحت تفك ربطة عنقي، سائلة بصوت أجش «لم لا تخلع ملابسك؟».

غلب عليَّ وهم بأني أحقق تقدماً، عريت نفسي. قادتني ثانية إلى الفراش من عضوي وعادت للمناوشة مرة أخرى، كان كلانا عارياً باستثناء تلك الحزمة حول خصر ميتسي. ليس بوسعي تذكر ما حدث بالضبط وبأي ترتيب، لكني أذكر صداعي القوي الآخذ في التعاظم وبعض حركاتنا الأكثر عنفاً. نجحت ميتسي في إغوائي مرة أخرى. لفت جسدها حولي، وحافظت على فخذيها مغلقين لمنعي من ولوجها. حاولت إغواءها ولم تحاول هي إغوائي. اتهمتها وأنا أرتجف غضباً، بالسادية. هل تكره كل الناس أم الرجال فقط؟ ولماذا؟ هل كان والدها يضربها في طفولتها، دعوتها بالعاهرة العذراء، فبكت.

«أفضل النكاح معك أكثر من أي شخص آخر، لكن عليَّ المحافظة على نفسي لزوجي» قالت وهي تمسح الدموع بصدريتها «تزوجني غداً، عندها يمكنك مضاجعتي في مكتب القاضي. ليس الأمر أني خجولة أو شيء من هذا القبيل. سأفعله في المكتب وأعني ذلك».

«نعم، أنا متأكد أنك تحبين ذلك. سنضئ الأنوار حتى يمكنك رؤية وجه القاضي».

ضحكت، لكنها لم تقدر على السماح لي بالابتعاد عنها طويلاً: ربما أرادت أن تثبت أن بإمكانها إثارتي حتى بعد أن رأيت ما بسريرتها ـ أو ربما ودت الاستمتاع على طريقتها الخاصة. ذهبت للجلوس على المكتب وظهري لها. جاءت خلفي وراحت تقبل خلف عنقي وشحمة أذني. عندما تهيجت بما فيه الكفاية، عدنا

إلى الفراش. كان بمقدورها أن تكون لهيب الشهوة بعينه حتى لحظة المواجهة. ثم بعد ذلك، لاحقاً. أقتبس من ابراهام كاولي، كانت المثال الصارخ للمرأة الخارجية.

يمكن رؤية الحب دوماً في كل أطرافها الخارجية لكن، أواه، لم يدلف قط داخلها.

عوض ذلك عرضت القيام بمصه، كنت قد بلغت مرحلة عظيمة من الشك لأصدق ذلك «هذه حيلة أخرى من ألاعيبك السادية الصغيرة ـ ستعضينه».

«لو كنت سادية، لما عرضت الترويح عنك» قالت معترضة.

«أفضل ان تفسري لي دينك أولاً، لقد أردت مرة أن أصبح قسيساً، ربما سأفهم».

«حسناً هل تريدين القيام بذلك أم لا؟».

«لا أحلم بإزعاجك».

«في الواقع أحبه. لقد قمت به مع عديد من الشبان. كان من الممكن فعل ذلك لك ما أن دخلنا البيت، لو فكرت في طلبه. فعلت هذا أول مرة عندما كنت في الخامسة عشرة مع شاب قال إنه سيقتلني إذا لم أستسلم له. كان عليّ فعل شيء ما لتخفيف هياجه. لم أستمتع به آنذاك لكني أحبه الآن».

ثم أو لاحقاً، مارسنا الحب على الطريقة الفرنسية. بلغ كلانا الذروة، لكن ذلك لم يسعفني، فلقد زاد صداعي سوءاً. ميتسي كانت في غاية الرضا. ذاك ذروة أحلام طهارتها على ما أعتقد: الحمل الغامض دون دنس.

في السابعة صباحاً أخبرتها أني ذاهب للنوم، يمكنها المغادرة، البقاء أو الذهاب للنوم معي.

«سأنام على الأريكة» قررت.

استيقظت عند الظهيرة وبي أشد صداع مؤلم عرفته في حياتي. شعرت أن عقلي يتحرك في جمجمتي. الأسبرين لم ينفع وأخيراً انتهيت في قسم الطوارئ في المستشفى، حيث قرروا إعطائي حقنة مورفين. كان هذا في وقت متأخر من مساء اليوم نفسه. حين استيقظت رأيت صورة ضبابية لميتسي جالسة فوق مكتبي، تأرجح ساقيها إلى الخلف والأمام.

«كيف حالك؟» استفسرت.

«مريض جداً. يصعب عليَّ رؤيتك».

«وأنا اشعر بالمرض أيضاً. كان عليك أن تستخدم قوة أكبر في اللحظة المناسبة» مع ذلك، كانت على استعداد للمشاركة في تحمل اللوم. «منذ أن استيقظت وأنا أفكر في كل الرجال الذين خسرتهم، وكل ذلك بسبب زوج المستقبل الذي لا أعرفه بعد».

«ثواب الفضيلة في ذاتها، ميتسي».

«لا تهزأ مني» تذمرت بمرارة.

كيف يمكنني ذلك؟ كشف لي صداعي أني لا أملك لا إرادة ولا إدراكاً عند مواجهة امرأة عارية.

«راقبني بعد أن أتزوج، سأنام مع كل رجل يطلب مني ذلك، ولن أكترث حتى لو كان أحدباً».

هذه ترجمة حرفية لما قالته. أنا على يقين أني لا أذكر كل ما

قالته بالضبط تلك الليلة، لكن هذا التصريح كان مذهلاً بحيث لا يمكن أن يمحى من الذاكرة، خاصة أنها قامت بما قررته.

تركت كلية الفنون المسرحية والسينمائية بعد نحو عام، ولتوفر دخلاً بجانب بعثتها عملت مغنية في ملهى ليلي، حيث تعرفت، من بين كل الناس، على ملحق عسكري لقوة أوروبية جنوبية في حلف الناتو. لم أجد سبيلاً لمعرفة صدق كل تلك الشائعات، لكن من المؤكد أنها بعد زواجها من صاحب المقام الرفيع هذا، كان بالإمكان رؤيتها كل ليلة تقريباً مع الدبلوماسيين الشيوعيين والغربيين في بارات أفضل الفنادق. في الواقع، أصبحت صداقاتها قضية في الحرب الباردة، لأن الشكوك حامت حولها من قبل الطرفين بتسريب معلومات إلى العدو. أخبرنا أحد الأصدقاء، كان والده وكيلاً في وزارة الشؤون الخارجية، أن ميتسي روقبت فترة من طرف المخابرات السوفيتية والناتو بسبب علاقاتها الحميمة. عندما استدعي الدبلوماسي من طرف حكومته للعودة غادرت ميتسي هنغاريا معه، بعد شهور من زواجهما.

أما بخصوص التحولات في حياتي بعد ليلتنا التي لا تنسى معاً، لم أحاول قط فض بكارة عذراء مرة أخرى، ولم أفكر بالزواج من واحدة. مهما فعلت، لكني أقصيت نفسي عن الفتيات الطاهرات. هن خائفات من النتائج، وأنا أرتعب من المداعبات الأولية.

في خطيئة الكسل المميتة

دمرت حياتي في الافراط الأخلاقي منزوياً في ركن دوستويفسكي

لابد أني كنت في الثامنة عشرة آنذاك، ولا أزال واقعاً في غرام إلونا اليائس، وبي توق لعناق أي امرأة، عندما وجدت نفسي يوماً وحيداً في الجناح المقفر من مكتبة الجامعة مع طالبة أصبحت لاحقاً لاعبة كرة مضرب ونجمة، مارجيت إس. تبادلنا الحديث والقبلات والعناق. كانت سمراء تخطف البصر، بشفاه حمراء وحلمتين سمحت لي بتقبيلهما ومصهما، لكني توسلت إليها دون جدوى أن تذهب معي إلى مكان ما، داومت على قول «هذا كاف، هذا كاف» ولم يكن عندها وقت، ثم غادرت فجأة. أصبت بالدوار من طعم ورائحة صدرها، ونادراً ما شعرت بتوق إلى امرأة بمثل هذا الشوق. أحسست بدوار بحر، فلقد ألقت بي في محيط من الرغبة، أثارت عاصفة. كان بإمكاني الشعور بموجات الدم تتسابق في مخي، ثم تندفع إلى أسفل. مارست، وأنا جالس على طاولة القراءة، العادة السرية بسرعة. من كل الأطفال الذين كان

بمقدوري إنجابهم، قليلون يمكن أن يكونوا مفعمين بالحياة مثل هؤلاء: امتلأت يداي بالحيوانات المنوية حتى حوافها. بينما أنا جالس ويداي مملوءتان، متسائلاً عما ينبغي عليَّ فعله، عادت مارجيت إس. لتقول إنها غيرت فكرها ويمكننا الذهاب إلى بيت عمتها الخالي.

اليوم كنت سأعترف لها بما حدث وقد تجد ذلك مسلياً أو ربما إطراءً لها، لكن آنذاك شعرت بالخجل، وخشيت أن تقترب أكثر وترى ما في يدي، فأخبرتها بامتعاض أني عدت إلى كتابي وأود الاستمرار في القراءة. اتسعت حدقاتها، التفت، غادرت مسرعة لتصبح من ألد أعدائي. منذ ذلك الحين آمنت أن ممارسة العادة السرية فرص ضائعة. من جهتها شكتني مارجيت إلى سكرتير الحزب الشيوعي في جامعة بودابست، واتهمتني أني تفاخرت أمامها قائلاً إني اخترعت اقتباسات من «رأس المال» في امتحانات الماركسية ـ اللينينية مفترضاً أن لا أحد من الممتحنين باستطاعته قراءة الكتاب كله. أنكرت ذلك بطبيعة الحال، لكني كدت أن أطرد من الجامعة.

ذكرني بهذا الحدث غير المجدي مجلة اباحية أرسلها لي أحد طلابي مع ملاحظة تقول «ما رأيك؟» كان في المجلة مقالة طويلة تطري بإفراط ظفر «ثورة العادة السرية». أُرسلت المجلة لي بعد أن نشرت «ميشيغان ديلي» دفاعي عن الامتناع عن العذرية، وربما أراد تلميذي أن يسألني عن اختيارات بديلة. ما جعلني أدرك شيئاً كنت على علم به بطريقة غير واعية فقط: هناك عدد كبير من الشباب والرجال كبار السن ـ في حرم الجامعة وحولها، بدا أنهم يعيشون مثل بطل «ملاحظات من تحت الأرض» وحيدين يقضون على

أنفسهم في أركان الحجر. ليسوا مقعدين، بشعين مشوهين غير محظوظين لا يثيرون انتباه أحد، بل رجال وسام لطاف تجد كثير من النساء سعادة في عناقهم. يبدو أن المجلة الاباحية، رغم أنها لا تقول ذلك، كانت على صواب: إذا وجدت ثورة جنسية، فإنها من النوع البالغ الوحدة.

قررت عندما يطلب مني في المرة القادمة مخاطبة جمعية رجال معتزة بنفسها أن أقول ذلك عبر قصيدة، عنونتها «موعظة» لأصدمهم وأحثهم على التفكير.

موعظة في اجتماع مجهول للقذف في الخارج منعاً للحمل

- ١ -

الروح القدس تقطن
العصير النفيس لأعضائنا التناسلية
تلهمنا قهر خطيئة الكسل المميتة
لنسارع خطواتنا ونقوي أطرافنا
ـ يملؤنا العصير بحب الاستطلاع
الشجاعة على الامتداد
الجرأة للوثب إلى المجهول.
حين ينتصب عضو رجل، نسمو نحن أيضاً
فوق لامبالاتنا والغرباء
نتعلم أن نتسامح، نكترث، نحب،
أحياناً حتى أن نفهم
ونحن في توقع المتعة:

النساء تفتح والرجال يغطسون،
أفخاذ وجبهات تنضح بالعرق
ومن أي أوضاع جماع نأخذها نجني
براعة العيش مع الأحياء.

- ٢ -

كخيال فنتازي، خذ امرأتين
واحدة سحاقية قليلاً تقحم عميقاً
في بئر أخرى، صوتها
يعلو ويهبط
بينما عجز الفتاة مربوطة اللسان يتأرجح
حين تتراجع للاستنشاق كي تضغط مرة أخرى
ـ وتلج فقط حين تنفجر.
أو تخيل أعظم حفلة عربيدية مفعمة بالحياة
أقيمت على شرف ذوقك الفريد
وإن سخت
ما تدركه في الوحدة
يخون مخيلة ضحلة
في نعيم عناق أو قبلة
لأنك الواهب والجاني لمتعتك
تهزل ساقاك
حين تلاحق رفيقة.

أمواج بهجة الوحدة
تحملك إلى جزر مهجورة.

- ٣ -

يقولون إن الأقوياء لا يعتمدون على أحد
ولا حتى في البهجة
يعرفون أسرع وآمن طريق مؤكد تماماً
للربح.
يحفر المغتصبون بذكورهم،
إن كان أحبتهم خياليين
دون اعتبار لكون ضحاياهم حقيقيين.
أقول إن القوياء يتحلون بالصبر
ينتظرون يتوسلون
يفضلون الصد الشجاع
المناقشات المزاجية، عناء الحب
على التحليق عالياً وحدهم
- يقامرون لكسب رفيقة
يعهدون حتى بأكثر أعضائهم حساسية
لصديق كي يعتني بها.

في أمهات الأطفال الصغار

«تعال، تعال» قال والد توم «لا عذر لمثل هذا اللهو الخليع في حياتك. لقد أزف الوقت كي تفكر باتخاذ زوجة» «لماذا، إذا كان الأمر كذلك يا والدي زوجة من سآخذ؟».

توماس مان

قيود الزواج من الثقل لدرجة تحتاج إلى اثنين لحملها

الكسندر دوما

أثناء ما تبقى من سنوات دراستي، مررت بتجارب محبطة عديدة، لكن قليل منها مع النساء. أدين بحظي السعيد إلى الزوجات العزيزات اللاتي شاركنني أفراح وأتراح حياتهن الزوجية. كانت علاقات حبنا بلا مشاكل ولا سحب كدرة، ولم يكن هناك نكد، شجار أو إبخاس من قدر أحد ـ فقبل كل شيء ما فائدة العلاقات غير الزوجية إن كانت مثل الزوجية ؟ علاوة، لم أكن مجبراً على القيام بمستلزمات المسؤولية الاجتماعية، في وقت عليَّ فيه الدراسة، مساعدة أمي واشغال نفسي بأنشطة لا مفر منها لأي

شاب. حمياني من الخطأ التراجيدي للزواج المبكر قبل الأوان، رغم عرضي الزواج على عدد منهن. كما حمياني من الإفراط في الشهوة. كقاعدة، الزوجات مشغولات جداً ليتعبن عشاقهن. كان بمقدوري توفير تسلية مؤقتة تقصيهن عن أمراضهن الأسرية فقط، غير أنها مجرد مسرة دون خشية من دفع الثمن. كان بإمكانهن ضمي دون أن يجلبن على أنفسهن عبء غسل جواربي. وهكذا، قضينا وقت فراغنا في خطايا سعيدة.

مع ذلك، بؤس بعض هؤلاء الزوجات أكثر ما بقي واضحاً في ذهني، خاصة اللاتي عندهن أطفال صغار. كقاعدة، تمر أم الأطفال الصغار بأسوأ أزمات حياتها. تحمل مرتين أو ثلاثة بتعاقب سريع، وهذه فترات أول خيانات زوجها الغرامية. يضاعف خبو حماسه الملتهب من قلقها حول قوامها وعمرها، لأن العالم الحالم للحب الخالد والشباب يتداعى إرباً. وتواجهها المهمة المستحيلة لكسب زوجها ثانية في الوقت الذي تدنو فيه من سلسلة أخرى من القلق الجديد ومسؤوليات العناية بأطفالها. تحاول وهي تعلمهم المشي، أن تجد توازنها في أرض زلق لواقع جديد. هل سيقضي زوجها الليلة في الخارج ثانية ؟ ألم يعد مرغوباً بها جنسياً؟ لا أحد بحاجة ماسة لتأكيد الحب الجديد أكثر منها، مع ذلك مأزق سخرية الأقدار المرير يكون حين يتجاهلها زوجها، والعشاق المحتملون قد يفعلون ذلك أيضاً: يميل الرجال لرؤيتها كأم فقط. ها هي، امرأة أكثر من أي وقت مضى، مع ذلك يفترض بها أن لا تعتني بشيء سوى الأطفال وأشغال البيت.

صحيح أني عرفت مرة امرأة ليس لديها ما يدعو للتذمر : زوج محبوب ساحر، خمسة أولاد جميلون طيبون تجد متعة في

امتلاكهم والعناية بهم، وبيت نظيف مرح. رغم كل ذلك، كان لها من العشاق عدد لا يحصى. من الجلي أن ليس عندها من المشاكل سوى طاقة مفرطة خارقة. كما عرفت أمهات أيضاً لم يكن العقار المسكن لعلاقة مجدياً في التغلب على بؤسهن الطاغي. نوشي كانت واحدة منهن ـ وإن كان وضعها في أي تصنيف ظلم جائر.

قابلت، أو بالأحرى وجدت، أطفالها أولاً. كنت خارجاً للمشي في جزيرة القديسة مارغيت (حديقة جميلة معروفة على الدانوب بين بيست وبودا) ورأيتهم يهيمون دون اتجاه بين الحشود: ولد كئيب المنظر في الخامسة أو يكاد، يجر بنتاً باكية أصغر منه من يدها. حاولت معرفة المشكلة، لكن الولد لم يكن يتكلم مع الغرباء، تحولت إلى البنت الصغيرة، التي أخيراً أخبرتني أن والدتهما ذهبت إلى الحمام وطلبت منهما الانتظار في الخارج، غير أن الأخ شعر بالملل وسحبها بعيداً. كانا يبحثان عن والدتهما منذ أكثر من ساعة، وحتى اللحظة لم يعيرهما أحد من المارة انتباهاً. وحيث أنهما كانا سيستمران في عدم العثور على أمهما إذا داوما على الدوران في الحديقة، قررت أن أرسو بهما قرب بائع مرطبات قرب جسر عليها أن تمر منه قبل مغادرة الجزيرة. كانت أمسية حارة من منتصف يوليو، وعندما عرضت على الطفلين صودا التوت المثلج وافقا على الانضمام إليَّ. حل الشراب البارد عقدة من لسان الولد فطلب شطيرة.

تصرف كلاهما كما لو لم يريا الطعام من قبل. في الواقع كانا شاحبين سيئي التغذية ودلت ملابسهما الصيفية الرخيصة، رغم

نظافتها وترتيبها، على فقر كثير. مع ذلك تحلى كلاهما بعيون رائعة: واسعة، عميقة ومفعمة بالحياة.

«هل أنت سكير؟» سأل الولد وهو يقضم شطيرته.

«كلا، لست سكيراً».

«إذا أنت مجرد ولد أيضاً»

«أعتقد أن بإمكانك القول إني بالغ»

«أنت تكذب» واجهني بازدراء «البالغون كلهم سكارى»

«كيف تعرف ذلك؟».

«أبي سكير».

«وهل أمك سكيرة أيضاً؟» سألته.

«كلا، إنها امرأة».

«أطفال الأزقة البائسة» قالت السيدة اللطيفة بيضاء الشعر من خلف القاطع حين سمعت حوارنا. «إنهم الآن جميلون، لكنهم يتحولون إلى وحوش لاحقاً، سترى».

بعد أن تناول الطفلان كل ما استطاعا من الشطائر والشراب، قدتهم بضع خطوات بعيداً عن كشك المرطبات. البنت، نوشي، تعلقت بيدي، لكن أخاها يوشكا راح يحوم في الجوار مما دفعني للركض خلفه عدة مرات.

«دوماً يسير بعيداً» علقت أخته «إنها حالة هوس».

«لا تبرح مكانك هذه المرة» أخبرته أخيراً «وإلا سأقطع أذنيك!»

هز يوشكا كتفيه استخفافاً، أذعن دون اكتراث.

«الكل يضربني».

«من يضربك؟».

«والدي وكل الناس».

«وأمك، هل تضربك؟».

«كلا، وجدتي لا تضربني أيضاً ـ لكنهما امرأتان».

بدأت أشعر بالأسف على الولد وأمه. «حسناً أنا رجل، ولا أضربك. في الواقع، لم أضرب أحداً في حياتي. أردت أن أخيفك فقط حتى تبقى هنا».

«أنت تكذب» كرر قوله السابق.

«كلا، لا أكذب، حقاً لم أضرب أحداً في حياتي».

«إذن كنت تكذب عندما قلت إنك ستقطع أذني».

«نعم، هنا كذبت».

«تعني أنك لم تضرب أحداً أبداً؟».

«أبداً» قلت بإصرار.

فكر الولد برهة، نظر إليَّ بارتياب «هل أنت يهودي؟».

«كلا، لماذا؟».

«والدي يقول إن اليهود غريبو الأطوار».

«لعله لا يدري»

قبل يوشكا ذلك بإذعان «ربما لا يعرف، تقول جدتي إن والدي يثرثر بسخافات».

علمت أن والدهما يعمل ميكانيكياً في مصنع، ولديهم ليس حجرة واحدة فقط، بل مطبخ أيضاً. وأن والدهما كثيراً ما يقضي الليل في البيت المجاور حيث توجد فتاة تصبغ نفسها، حتى شعرها.

قال الوالد إنها أجمل من أمي، التي أكد لي الولد مراراً أنها مجرد امرأة.

عندما ظهرت الوالدة أخيراً، كانت مفاجأة. جاءت تركض صوب كشك المرطبات. كانت ترتدي فستاناً قصيراً عاري الكتفين من قطن أزرق خابي اللون، دون قميص فوقه. في البدء حسبت أنها مجرد فتاة ظمآنة أخرى. رغم أن طفليها كانا ذا بشرة بيضاء، كانت نوشي سمراء وشعرها الأسود الداكن الكثيف مسدل على كتفيها العاريين. كانت عيناها كبيرة سوداء مثل طفليها. اضطربت قليلاً لمدة ثانية وهي تشكرني على مرافقة الطفلين. فكرت أنها امرأة قوية مثيرة حسية. عظام خديها فقط أظهرت أنها سيئة التغذية أيضاً. أخبار الطفلين حول الشطائر والمشروبات المرطبة أزعجتها.

«ما كان عليك أن تشتري لهما شيئاً، حتى لو طلبا ذلك، ينبغي أن تعرف أن الأطفال لا يسددون الديون، أظن أنك تتوقع أن يدفع لك مقابل ذلك». قالت مدافعة.

من البديهي أن الشك سمة في العائلة. غادرت الجزيرة معهم ـ بينما الولد يسحب أخته أمامه ـ أخبرت نوشي أنها فاتنة. كان رد فعلها عنيفاً وغير متوقع.

«يا يسوع ! لابد أنك محروم لتلاحظ حطاماً مثلي!».

«أكره النساء اللاتي ينتقصن من قدر شكلهن بالمساحيق. هذا تزييف».

«من المؤكد أن لا شيء فاتن فيَّ» قالت بهدوء أكثر، ثم انفجرت غاضبة مرة أخرى «من أنت، منحرف؟».

«كلا، فقط محب للفتيات ذوات الصدور الجميلة».

«إذن تحوم في الحدائق لتوقع بالنساء، آه؟».

«لا أذهب إلى أي مكان لأبحث عن النساء، أنا مشغول جداً. لكن أجرب حظي في أي مكان إذا رأيت أحداً أود معرفته».

أدارت رأسها صوبي لمدة ثانية فقط. كان الناس يفرقون بيننا وبين الأطفال، مما فرض علينا الإسراع للحاق بهم. وصلنا الجسر المفضي إلى بيست، كنا نسير فوق النهر عندما عادت للموضوع.

«إذاً أنت واحد من هؤلاء، آه ؟».

«نعم، واحد من هؤلاء» أقررت.

ثم ثانية بشك وبرودة «ماذا تعمل لكسب عيشك؟».

«أنا طالب، أعيش على البعثة الدراسية».

«هذه مهنة جيدة» لم تثق بي بعد بالقدر الكافي لتعطيني موعداً «لماذا يتوجب عليَّ فعل ذلك. أنا على يقين أنك ستغير رأيك ولن تأتي» أرادت أن تتفحص وجهها في المرآة، بحثت عن واحدة في حقيبة يدها دون نجاح، أخيراً قالت «لن أعطيك موعداً لكن يمكنك المجيء معنا إلى البيت. سأترك الطفلين مع والدتي، عندها يمكنك دعوتي لمشاهدة فيلم أو شيء من هذا القبيل».

كان هذا أكثر مما حلمت به «ألن يحتج زوجك؟» لم نكن قد تكلمنا عنه حتى تلك اللحظة. خشيت أن يحسب أني يهودي فيوسعني ضرباً. لم يقلق نوشي مثل هذا الاحتمال. «لن يكون في البيت».

«وماذا عن أمك؟».

آه، تقول دوماً لم لا تخرجين وترفهين عن نفسك. لكني لا أحب الخروج وحدي ولا أتحمل الخروج مع الصديقات».

«هل تحملون جميعاً شيئاً ضد النساء؟ ابنك دعاك بمجرد امرأة؟».

«هذا وصف والده».

لاحظت أن فك نوشي قوي وناتئ، وأنا أسير بجانبها. أخذنا عربة طويلة يجرها حصان سارت بنا خلف المدينة إلى جحيم من المصانع، الأحياء البائسة، الدخان المخلوط بالضباب وطبقات كثيفة من السخام. كانت البنايات، لوحات الإعلان وحتى أطر النوافذ كلها سوداء. كانوا يقطنون في عمارة مكونة من خمسة طوابق، بناية مربعة مثل سجن. صعدنا درجاً معتماً مهدماً عابرين عدة أبواب مفتوحة تفضي مباشرة إلى مطابخ مظلمة. الباب المحاذي لشقتهم الكائنة في الطابق الثالث كان مقفلاً. تمنيت أن تكون شقة الفتاة المصبوغة وأن زوج نوشي إما فيها أو خارج العمارة. حين دلفنا المطبخ، رأيت منظراً لن أنساه. كان بلا نافذة وكل الجدران مكسوة برفوف مكشوفة مليئة بالأطباق، قدور طبخ، طعام، ملابس وأغطية أسرة. من الواضح أن الرفوف كانت تستخدم كدواليب لكل حاجيات البيت الصغيرة. كان بجانب الطباخة مائدة المطبخ وخمسة من المقاعد الخشبية العالية عديمة الظهر، أريكة عتيقة (حجرة الجلوس) وفي الزاوية سرير تنام عليه أم نوشي، كما علمت. في زاوية أخرى كان هناك صنبور ماء مثبت على الحائط (الحمام). الحمام العام كان في نهاية رواق كل طابق. كان بإمكاني رؤية حجرة النوم وأنا جالس على الأريكة: سريران وحافة دولاب قماشي، كل شيء مرتب بدقة ونظيف بقدر الإمكان. لم يكن زوج نوشي في البيت. «أمي» قدمتني نوشي أولاً «هذا الرجل

اللطيف وجد الطفلين في سانت مارغيت، لذا دعوته إلى كوب من الشاي».

كانت الجدة عظيمة الشبه بنوشي، باستثناء كونها أسن وأقوى. بدا عليها الانزعاج «طهوت عشاءً لواحد زيادة، وإن كنت لا أعرف أنك قادم».

«في الواقع أود أن أدعو نوشي للعشاء في الخارج، إن كان هذا ممكناً».

«طبعاً، إذا أرادت ذلك» أومأت العجوز برأسها مرتاحة.

«حسناً إن كنا ذاهبين للعشاء سأرتدي قميصاً» قالت نوشي واختفت في حجرة النوم. أقفلت الباب وسمعت دورة المفتاح في المزلاج، مما أدهشني كتواضع زائد عن اللازم.

«متى سيأتي والدي» سألت نوشي الصغيرة.

«لا تقلقي، سيأتي لتناول الطعام».

حاولت القول إنني لا أريده أن يفتقد زوجته (كانت ليلة سبت) وربما نذهب مرة أخرى، لكن السيدة العجوز قاطعت قائلة «لا تقلق، سيسر جوشكا أن يأكل حصة زيادة».

نظرت إلى الصبي، لكنه هز رأسه «تعني أبي».

عادت نوشي في قميص أبيض جميل تحت جرزة زرقاء لنغادر في التو. كنت متلهفاً للخروج من المطبخ وإن اعتدت لاحقاً عليه وصرت حتى أذكره بحنين، عندما توقفت عن الذهاب إلى هناك.

عُدنا إلى المدينة، ذهبنا إلى مطعم هادئ وطلبنا دجاجاً بالفلفل وشموعاً. ذكرت نوشي ونحن في انتظار الطعام أني محظوظ

لكسبي المال وفعل ما أريد، الدراسة. سألتها ما الذي يمكن أن تفعله لو قدر لها كسب عيشها بفعل ما تود عمله.

«أعتني برجل يحبني ويربي أطفالي» عندما وصلت الشموع وضعها النادل بحيث تصنع إطاراً مضيئاً لوجهها الشاحب وعينيها السوداوين الواسعتين، أضافت بشراسة «غير أني أكره أحلام اليقظة، فهي لا تؤتي ثماراً». حين قدم لنا الطعام، انهمكت في تناول الطعام ومهمة استجوابي. كان عليَّ، وأنا أناضل لآكل الدجاج بالفلفل الزلق، الإجابة على سؤال كم استمرت علاقتي مع امرأة (بلغت لب كل مسألة).

لم يكن بوسعي الإجابة على سؤال دون دلق بعض سلطة الطعام على قميصي «أبقى مع الفتاة طول ما يمكنني الاحتفاظ بها ويمكنها الاحتفاظ بي».

«تعني أنك تحصل على امرأة تلو الأخرى؟».

كنت فريسة سهلة لهذا النمط من الأسئلة، وقامت نوشي باستجوابي بقسوة. مع ذلك ـ كما علمت لاحقاً ـ كانت قد قبلتني قبل بدء حديثنا بوقت طويل. إذا كانت تحاول معرفتي، لم يكن ذلك حكم جبان بما لي وما عليّ، أرادت أن تعد نفسها فقط.

«أحب أن أعرف ما يمكنني توقعه من الرجل» قالت

«وماذا تعتقدين يمكنك أن تتوقعي مني؟».

«لا أدري» اعترفت بكآبة مغرق بالتفكير «لكن مهما كان لن يكون كثيراً».

إذا وجدتني غير ما تتوقع، جال بفكري، من الأفضل أن

أصمت. من الواضح أن نكوصي إلى الصمت الكئيب قد سرها. «تأذيت؟» سألتني بتعاطف مفاجئ.

«نعم».

«حسناً هذا دليل على اهتمامك بي قليلاً، أليس كذلك؟ زوجي لا يكترث» قالت بلمعة مرارة «غير مهتم بتاتاً. بوسعي شتمه بأسوأ الكلمات ولن يصغي حتى إلى ما أقول». في وقت لاحق سألتني نوشي عن الجامعة «أخبرني شيئاً يستحق المعرفة، مثل ماذا تدرس؟» كانت تعمل في محل تجاري كبير، تلف البضائع، لكن حين نتكلم، لم يكن ذلك مثل الحديث مع أحد زملائي في الدراسة. كان بوسعها التفكير بدقة وسرعة وأظهرت شهية أصيلة لمعرفة الحقائق والأفكار. لم يستغرقني هذا وقتاً لرؤيتنا مثل اليزا دوليتل والبرفوسور هيجنز. تصورت أنفسنا نتناول الطعام في المطعم ذاته بعد سنوات: نوشي ترتدي رداءً جديداً أنيقاً، مدرسة ربما، وشقة جميلة نأوي إليها. بدد الفقر وزوج غير حساس إمكانياتها في الماضي بطريقة إجرامية، لكن في المحصلة الأخيرة استقلت بقدراتها. امرأة لا تتوقع الكثير مني، مع ذلك غيرت حياتها. فقررت فعل ذلك.

مع ذلك، استخلصت نتيجة أخرى من حديثنا «حسناً، أظن لا ينبغي عليَّ القلق كونك أصغر مني» قالت نوشي عندما نهضنا لنغادر. «ربما أنت لا تعرف كثيراً عن الحياة والناس، لكنك تعرف على الأقل الأشياء التي تتعلمها من الكتب أكثر مني. هذا يوازن الأمور على ما أعتقد. لا يمكنني تحمل رجل أغبى مني».

غادرنا المطعم وحيث لم يكن هناك مكان نذهب إليه وجو النهار الحار تحول إلى ليل دافئ، قررنا العودة إلى جزيرة سانت

مارغيت. أخذنا الحافلة إلى الدانوب وسرنا فوق الجسر متشابكي الأيدي. كانت رائحة النهر طازجة مثل جدول جبلي. والقمر الشاحب وكتلة الجزيرة الناعمة السواد تمتد أمامنا مثل سرير كبير، وذوائب الأشجار الداكنة منتفخة مثل الوسائد. ربما أحست نوشي بالتداعيات نفسها، لأنها توقفت فجأة.

«أحذرك، لن تحصل على شيء مني الليلة. لا أنام مع رجل إلا إذا عرفته لمدة شهر على الأقل.» كانت مستعدة للعودة ولن تستمر حتى نجحت في إقناعها بقبول شروطها.

«أنت بحاجة إلى امرأة مثلي لتقومك» قالت

كانت الجزيرة هادئة وتبدو مهجورة. ربما كان هناك رجال ونساء آخرين، لكن إذا صدق ذلك، فإنهم نجحوا في الاختفاء جيداً. إذا أرادت نوشي أن تعرف كل شيء عني، عليها أن تخبرني كل شيء عنها. كانت بها مرارة ويائسة بكل ما تتفوه به، لكن طريقة بوحها به كانت إلى حد ما بشوشة.

بدأ زوجها يواجه المصاعب عند حصول حملها الأول «كان يعرف أني حامل، لكنه استمر في الشكوى من أني متينة. أصابني ذلك بالجنون، كل تعليقاته حول قوامي. كان ذلك بسبب ابنه وكل ما بوسعه قوله إني امرأة سمينة». بدا أن الأمور تحسنت لفترة بعد مولد ابنه. صار جوزيف يراعي مشاعرها. قرر حتى العمل وقتاً إضافياً، والبقاء في المصنع حتى منتصف الليل، لتوفير بعض المال من أجل ابنه. شعرت نوشي بالثقة حتى أخبرتها صديقة أن جوزيف يعمل وقتاً إضافياً مع فتاة لكن ليس في المصنع. بمولد ابنتهما لم يحاول حتى اختلاق الأعذار للبقاء خارج البيت. «عندما

لم يحاول حتى الكذب أكثر من ذلك، علمت أن الأمور قد بلغت حدها».

«لماذا لم تطلبي الطلاق؟».

«من أجل من؟» سألت ناظرة إلي بتمعن.

لم أقدر على كبح نفسي، فقبلتها على تفكيرها العملي. استجابت للقبلة بفيها الناعم غليظ الشفاه. كان ذلك تساؤلاً أكثر من سؤالها. كان من الممكن تخيل شروعنا في حياة جديدة معاً، ونحن سائرين متشابكي الأيدي في ممرات الحديقة تحت ضوء القمر فوق الأعشاب الباردة العميقة.

لم يكن راتبها جيداً، لكن جوزيف صار يجلب راتبه إلى البيت مؤخراً ـ منذ أن عاشر الجارة العاهرة «هي التي دفعته لذلك لأنها لم تبغ أن تتعارك معنا في الرواق خشية كلام الجيران». داوم جوزيف على تناول وجباته في البيت وترك حاجياته فيه أيضاً «أحياناً ينام معي عندما يكون ثملاً ولا يدري ما يقوم به».

حين تعبنا من الحديث، جلسنا تحت شجرة بلوط عملاقة محاطة بالشجيرات. اتكأت على الشجرة. تبادلنا القبلات، مددت يدي تحت جرزتها ـ ثم سحبتها بسرعة حين ترهل فمها، تذكرت قرارها بمدة شهر المعرفة «لا تقلق» قالت نوشي «لقد هيأت نفسي عندما ارتديت قميصي» زحفت للأمام وافترشت الأرض «أردت أن أعرف فقط إن كنت تميل إليَّ بالقدر الكافي لتبقى معي شهراً» عندما ولجتها، انقبض جسدها كما لو أنها شقت قطعتين، واستمتعت بشكل كبير. قالت وهي تنفض الأعشاب عن قميصها عابسة «كنت أمارس الحب خلف الشجيرات عندما كنت في

السابعة عشرة ـ الآن أنا في الواحدة والثلاثين ولا زلت أمارسه خلف الشجيرات. أحقق تقدماً كبيراً، أليس كذلك؟».

بقيت مخلصة لزوجها حتى آخر سنتين، حيث تعرفت على بعض الرجال «لكن الأمور لم تجر على ما يرام. لا يفهم الرجال إذا كان عندك أطفال أن ليس بالإمكان الجري إليهم كلما أرادوا ذلك. على الأقل قالوا إنهم لا يفهمون ذلك ـ هذا عذر جيد لقطع العلاقة».

أعدت نوشي إلى بيتها بعربة أجرة. تقابلنا ثانية في اليوم التالي، الأحد. أخبرتني أنها تركت الدراسة قبل الشهادة الثانوية بسنتين، من أجل الزواج، وأقنعتها بالانضمام إلى الدراسة المسائية للحصول على شهادتها. بهذا يمكننا الذهاب إلى شقتنا بالكتب والدفاتر. حين تكون أمي في الخارج، نمارس الحب، وعندما تكون في البيت أساعد نوشي في دراستها. تغيرت كثيراً، أصبحت أصغر، أجمل وممتلئة أكثر، لكنها بقيت شاكة كسابق عهدها «تفعل كل ذلك حتى لا تشعر بالذنب عندما تتركني».

قابلت زوجها مرة واحدة على العشاء في مطبخهم، ورغم معرفتي به «بالسكير» كان في كامل وعيه. قدمت إليه كمدرس من المدرسة. نظر جوزيف إليَّ نظرة عارف، ثم إلى نوشي قبل أن يجلس لتناول طعامه. كان وسيماً قوي العضلات في الخامسة والثلاثين ويبدو التعب عليه.

«المدرسة! لا تثيري ضحكي نوشي. لن تنجحي في ذلك أبداً».

«إنها ذكية» قلت.

«مثل مؤخرتي» قال حاسماً الأمر ثم انكب على تناول طعامه. تظاهرت بنبرة عادية معلقاً «لعلك غبي كبير فلم تدرك ذكاءها».

تباطأت فكاه لكنه استمر في الأكل، اكتسى محيا نوشي بابتسامة رغم عدم تأثره. حدق الطفلان في طبقيهما وتناولا شوكتي الطعام بأناقة.

«هل أنت أعزب؟» سأل جوزيف في وقت لاحق. كان بوسعي العلم من صوته أنه يحضر رداً لاذعاً.

«نعم» أجبت بحذر.

«حياة سهلة؟ اليوم دجاجة، غداً كتكوت؟».

«البعض يدعوهن نساء» أجبته بازدراء لمحاولته النيل من نوشي عوضاً عني. لكنه كان يعلم أنه يقصد كلانا، تسارعت حركة فكيه.

التفتت نوشي صوبه ونظرة قاتلة في عينيها «لا أظن أن حياة السيد فايدا الخاصة من شأنك» عكست نظرة زوجته كامل ذنبه، فراح يضحك بعصبية «ماذا فعلت؟ أليس بوسع الرجل الحديث في بيته؟».

«بيته!» علقت السيدة العجوز.

التفت إلي ثانية «هكذا هو الحال عندما تتزوج، يا صديقي، الدجاج يتكالب عليك. لا تتزوج أبداً. ما الذي يمكنني دفعه حتى أعود عازباً ثانية! طليق كطير، لا شيء يعادل ذلك».

لم تقدر والدة نوشي على كتم تعليق آخر «أود أن أعرف من العازب إذا لم تكن أنت! من المؤكد أنك تتصرف كواحد.... لم أر قط طيراً سجيناً مثلك إلى يومي هذا».

هز جوزيف رأسه ساخطاً «الأمر ليس سواسية يا أمي، ليس سواسية» هز كتفيه استهزاءً، مشيراً إلى أنه مهما كان الذي أحصل عليه، لا قيمة له في حسابه.

«أنا لست أمك. ولو كان الأمر بيدي لطلبت منك الانتقال إلى الشقة المجاورة».

«كيف يمكنني ذلك؟ كيف يمكنني ترك نوشي؟» خاطب حماته، لكنه كان يرمق زوجته بنظرة شفقة عظيمة. «سأشعر بالأسف عليها ـ من سيعتني بها إذا تركتها».

لم ينبس أحد ببنت شفة. بعد العشاء غادر جوزيف «سأعود» خاطب نوشي مشيراً إليَّ بحركة وداع وخرج.

«ذاهب إلى بيت صديقته» همهمت السيدة العجوز «ويقول إنه ليس عازباً».

أطلقت نوشي العنان لسخطها «ألم تسمعيه؟ يأكل هنا لأنه يأسف لحالي! يأسف لحالي؟» كانت غاضبة، ضربت الطاولة بقبضتها فانبعث من الصحون طرطقة. «أتمنى أن يكون هناك إله ليعاقبه على ذلك إن لم يكن على أي شيء آخر!» دفعت مقعدها للخلف وراحت تخطو في المطبخ ملتفة حول نفسها مثل سجينة في زنزانة تذكرت أنها محكومة مؤبد. «دمر حياتي ويريد أن يبدو كما لو أنه يعمل ذلك خدمة لي!» رفعت يديها إلى السماء مكررة «أتمنى أن يكون هناك إله» عندما حاولت أن أهدئ من روعها تحولت إليَّ «لا أكترث إن كنت ستتركني أم لا، لكن لا تكن في الجوار إذا كنت غير قادر على أن تكون لطيفاً ! هذا أسوأ ما يمكن أن تفعله بامرأة» ثم أخيراً انفجرت باكية وانحنى ظهرها كما لو أن

كل ثقل هذا المطبخ المكتظ عديم النوافذ قد انهال عليها. كانت نوشي الصغيرة تراقب هذا وهي بين ذراعي جدتها، خائفة مترددة. أخيراً حررت نفسها، سارت ببطء إلى أمها، حضنتها من الركبتين وقد فشلت في الصعود إلى أعلى.

استأجرت في اليوم التالي حجرة في الفندق حتى يمكننا أن نبقى وحدنا أربع وعشرين ساعة على الأقل. كان بمقدوري إسعادها بسهولة وأنا أحبها وأريدها. قضينا أياماً سعيدة قبل أن تتساقط الثلوج.

ثم بدأت أقابل زوجة رجل شاذ.

كانت أماً لطفلين. لم يلمسها زوجها قط بعد أن اصبح أباً وعنده ما يبرئ ساحته من تهمة الشذوذ، لكنه منعها من إقامة علاقات، لأن ذلك سيجعل الناس تشك فيه. مثل كل ديكتاتورية، كان النظام بالغ القسوة والطبيعة البشرية، يعاقب كل انحرافات مفرطة، ولم يبغ المجازفة بوظيفته التي تمنحه فيللا وسائق خاص معها. كي يتأكد أنها لن تقوم بما يهدد موقعه الحساس، طلب من أخته العيش معهم. كانت مهمتها أن لا تدع زوجة أخيها تغيب عن ناظرها. كان والداً يهتم بأبنائه، يسألهم كل مساء كيف قضوا يومهم: ماذا فعلوا، ماذا فعلت أمهم، هل قابلوا أناساً مثيرين للاهتمام؟ كان مهيباً رجولي الهيئة يحضر الاستقبالات والحفلات الرسمية مع زوجته ولا يتركها وحيدة أبداً. كان غيوراً عليها ولا يخجله إبداء ذلك، يبتسم بتواضع عندما يدعوه الناس عطيل الهنغاري. «أظن أنني زوج تقليدي» كان يقول نصف معتذراً «أنا مجنون في حب زوجتي» كانت زوجته امرأة جميلة وغريبة. تناقصت مقابلاتي مع نوشي. صرت أبذل مجهوداً لأبدو متحمساً

ومهتماً. اتهمتني بفتور الهمة ونفاد الصبر معها، وبدأ الشجار يدب بيننا. لكني لم أقدر على تصديق كلمة نوشي وتركها كما قالت عندما لم يعد بإمكاني أن أكون لطيفاً معها. كانت تذهب للمدرسة الليلية وتحقق نجاحاً، ولديها فرصة جيدة للحصول على وظيفة سكرتيرة في غضون عامين. ساعد هذا، كما توقعت هي بدهاء، على تلطيف شعوري بالذنب، لكن ليس للحد الكافي الذي يسمح لي بالانفصال عنها. إن كانت هناك امرأة عانت من خيبة الأمل والحرمان ما يكفي للبقاء معها ما عاشت، فإن هذه المرأة هي نوشي. غير أني عجزت عن الاحتفاظ بانتصاب من شعوري بالذنب والمسؤولية. أحياناً ذهبت معها للفراش، بعد مناقشات معقدة انتهت بالاعتذار عما لم يبدر مني.

«ليس هناك حيوان حقير مثل الرجل الذي يفقد حبه لامرأة» قلت مرة في مناسبة لزوجها، والآن صار الوصف يلائمني. كان الفرار المرحب به من بؤس الزواج يتبلور هذه المرة إلى ورطة لا تقل بؤساً عن الزواج نفسه.

حين اعترفت بمشكلتي إلى عشيقتي الجديدة، متسائلاً بتفجع عن عدم معرفتي ما هو أسوأ لنوشي ـ الفراق أم الاستمرار أجابت متنهدة «يا عزيزي، هذه ليست مسألة أخلاقية ـ إنها حالة نزوة متطرفة».

بعد بضعة أيام جرى نقاش عنيف مع نوشي. اتهمتني بالضجر منها، اعترضت بأني أحبها كسابق عهدي ومشكلتنا الوحيدة تكمن في طبيعتها الشاكة. وحيث لم تصدقني أقررت أخيراً أنها على صواب واقترحت قطع العلاقة.

بعد لحظات من الروية القاتمة، نصبت قامتها ونظرت إليَّ

بعيونها الكبيرة «حسناً، تنتهي كما فكرت دوماً أنها ستنتهي عليه. أتمنى أن يباغتك أحد بمفاجأة يوماً ما».

في القلق والتمرد

فزع الحياة، فزع المرء من نفسه

سورين كيركيغارد

في موهاش ضاع أكثر

مثل هنغاري قديم

قد يترتب علي وصف كمٍّ عظيم من التجارب غير المتعلقة بالعشق لأفسر لماذا تركت هنغاريا ثانية دون رجعة ـ بعد أن وهبت نفسي للموت في سبيلها بوقت قصير. يبدو أنني أحببت بلادي بغيرة ودون تقلب كما لو كانت امرأة.

لما كان الحب لمحة عاطفية من الخلود، لا يسع المرء سوى نصف الإيمان بأن الحب الحقيقي خالد إلى الأبد. حين لا يكون ذلك مثلما حدث معي دوماً، لم أقدر على تجنب الحس بالذنب لعجزي عن الإحساس بالعواطف الحقيقية والدائمة. لم يجاوز هذا العار بقوته سوى شكوكي إن كانت عشيقتي قد أحبتني بالفعل أم لا، وذلك عندما تضع حداً للعلاقة بنفسها. أشبه في هذا معظم معاصري الشاكين: نقوم بضرب أنفسنا بعصا البصيرة النفسية، ولا

نلوم أنفسنا عند فشلنا في التكيف مع التعاليم الأخلاقية المطلقة. في الحب، نرفض التمييز بين الأخلاقي وغير الأخلاقي مفضلين التمييز بين «الأصيل» و«السطحي». إدراكنا عظيم! فلا ندين أفعالنا، بل حوافزنا. نخضع، وقد حررنا أنفسنا من أنماط السلوك المرعية، لمجموعة من الحوافز لتحقيق حس العار والقلق الذي عرفه أسلافنا بوسائل أقل تعقيداً. رفضنا أخلاقياتهم الدينية لأنها وضعت الإنسان ضد غرائزه، وأثقلته بعبء ذنب خطايا كانت في الواقع نتيجة القوانين الطبيعية. مع ذلك، لا زلنا نكفر عن الخلق: نعتقد أننا فاشلون عوض التنكر لاعتقادنا بإمكانية الكمال. نتعلق بأمل الحب الخالد حين ننكر حتى صلاحيته المؤقتة. التفكير «أنا ضحل» «هي أنانية» «لم يكن بوسعنا التواصل» «كان الأمر كله جسدياً فقط» أقل ألماً، من قبول الحقيقة البسيطة أن الحب إحساس عابر، وذلك لأسباب فوق طاقتنا وحتى فوق شخصياتنا. لكن من يمكنه أن يطمئن نفسه بمنطقه الشخصي؟ لا يمكن لأي حجة أن تملأ فراغ الشعور الميت ـ هذا المذكِر بالعقم التام، عدم تقلبنا النهائي. نحن غير صادقين حتى مع الحياة.

قد يعلل هذا لماذا نفضل تركيز تفكيرنا على مواضيع سريعة الزوال أكثر من أنفسنا. شخصياً، وجدت راحة عظيمة في التأمل بما هو مجرد، وحصلت على الليسانس والماجستير بالدراسة الجادة، مع تركيز على كيركيغارد. كما كنت عظيم القلق بسبب بؤس أمتنا.

ليس بوسعي البدء بإخباركم كم كرهنا الروس! لا يحب طلابي حديثي عن هذا الموضوع لاعتقادهم أني أدعو للحصول على مزيد من الصواريخ النووية. لست كذلك، فأنا لا أؤمن بها،

لكن لا فرق، فالروس أكبر الاستعماريين هذه الأيام، وهم أكثر الحكام المكروهين في مستعمراتهم، إذ لا يكفيهم سرقة وحكم الشعوب، بل يريدون أن يكونوا محبوبين أيضاً. كانت مسيرة عرض القوات يوم ٧ نوفمبر كل عام، احتفالاً بالمولد العظيم للاتحاد السوفيتي، واحدة من نزواتهم الكريهة آنذاك. كان ذلك اليوم عادة بارداً عاصفاً، لكن الحزب يخرج الجميع بوسيلة بسيطة وهي أمرهم بالمسير في جماعات من مكان عملهم أو دراستهم كي يتمكن المسؤولون في شؤون الموظفين معرفة من لا يأتي. أتذكر مسيرة ١٩٥٢، حين سار قسم الفلسفة خلف مكتب الإحصاء وشاهدت أحد الكتبة ـ رجل قصير القامة متوسط العمر وجهه أزرق بلون الحبر ـ يكافح لرفع لائحته الخشبية الضخمة. كاد أن يتعثر عدة مرات بمقبضها الطويل في محاولته الحفاظ على صورة راكوسي الورقية مستقيمة لا تثنيها الريح، ويقع خلفاً بين صفوفنا. ثم، دون سابق إنذار، خرج من الصف وراح يضرب اللوحة في عمود كهرباء صائحاً «تعبت من المغفل البشع، رجل العصابات الأصلع! في اليوم الوحيد الذي يمكنني فيه النوم متأخراً يجروني إلى الشوارع!» كان يضرب اللوحة بقوة مجنون مفاجئة، فمزقها إرباً. «إنه عميل روسي! أتسمعون؟ مجرم!» من حيث لا ندري وفي لحظة ظهر رجلان في لباس بوليس الأمن الرسمي الأزرق، وأمسك كل منهما بأحد ذراعيه. راح يئن وهما يقودانه بعيداً بصوت امرأة عجوز «كانت ثقيلة، أيها الرفاق، هذا هو السبب الوحيد، صدقوني كانت ثقيلة جداً».

لا يستطيع المرء رؤية مثل هذه المشاهد دون أن تعتريه رغبة متعاظمة لتغيير الأمور. في أوائل خمسينيات القرن العشرين،

سادت البلاد فعلاً أجواء ما قبل الثورة، وتعاظم قلق السكان وقوات الأمن. كما ازداد عدد الذين يستشهدون بقصيدة بيتوفي التي أشعلت شرارة الثورة ضد إمبراطور هابسبورغ في ١٥ مارس ١٨٤٨.

قف على قدميك أيها المجري، فإما الآن أو قط!

أخمد النمساويون ثورة ١٨٤٨ بمساعدة إمبراطور روسيا، بيتوفي نفسه قطع إرباً من قبل الخيالة القوقاز في معركة جرت في ترانسلفينيا (الجزء الشرقي من هنغاريا، الذي تحتله الآن رومانيا). رغم ذلك، لا ذكرى الهزيمة ولا صغر مساحة بلدنا المجتز جعلنا نذعن ونميل إلى الاتحاد السوفيتي. على أي حال، فشل الأتراك في السيطرة علينا، ولا حتى بعد موهاش.

موهاش كلمة شفرة تلهب مشاعر الهنغاريين بكبرياء عنيد، كلمة انغماس وحياة آتية، اسم معركة قديمة تركت ندباً باقية ومجداً مريراً. في العام ١٥٢٦ وفي مستوطنة صغيرة تدعى موهاش على نهر الدانوب جنوب بودابست، أباد الأتراك كل الجيش الهنغاري من الخيالة والمشاة. في السنوات الأربع والسبعين بعد المئة اللاحقة أصبحت هنغاريا مقاطعة في الإمبراطورية العثمانية. إبان هذه الفترة، لقي نصف سكان البلاد تقريباً حتفهم، قضى ملايين البشر من الجوع والطاعون أو سيقوا إلى أسواق العبيد في شمال إفريقيا. مع ذلك لا وجود اليوم للإمبراطورية العثمانية وهنغاريا لا تزال باقية. بالنسبة للهنغاريين، هذه أهم معلومة تتعلق بالتاريخ والسياسة، يتعلمونها صغاراً قبل أن يبلغوا سن دخول المدرسة. سمعت عن النكبة في موهاش والسقوط النهائي لغزاتنا الأقوياء أول مرة من الآباء الفرنسيسكان، الذين طردوا لاحقاً من ديرهم بأمر

من الروس. لكن هذا لا يجعل أي شخص ينسى الدرس الأخلاقي للإمبراطوريات.

كان لايوش كوشوت، قائد ثورة ١٨٤٨ يقول إن للهنغاريين شخصية تاريخية ـ أي انهم يفكرون بمصطلحات تاريخية، بقرون وألوف السنين، ليشدوا أزرهم ضد القوى المميتة الراهنة. ليس بوسعهم النظر للخلف ألف سنة من التاريخ المدون كأمة فقط، بل القصة نفسها تتكرر في كل العهود، لذا يمكن حتى لبليد الفهم تذكرها، إنها قصة الخسارة وتحمل الأعباء. تاريخ هزائمهم وبقائهم هو نوع من الديانة بالنسبة لهم مثل اليهود، رؤوسهم مليئة بالنكبات التي تعجز عن تدميرهم لقد عوقبنا على ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر.

يقول النشيد الوطني المعبر عن رثاء الذات غير الهياب، الذي يجعل من الهنغاريين مواطنين قلقين متمردين مهما كثرت هزائمهم. لحظات انتصاراتهم قليلة كي تؤازر كبريائهم، لكن مجدهم يكمن في صمودهم أمام الغزو التتري (١٢٤١)، الاحتلال التركي (١٥٢٦ ـ ١٧٠٠) الاحتلال النمساوي (١٧١١ ـ ١٩١٨) والاحتلال الألماني (١٩٤٤ ـ ١٩٤٥). يميل مواطنو الدول العظمى للاعتقاد بأن الانتصارات خالدة، بينما يركز الهنغاريون تفكيرهم على انحلال القوة، على السقوط المحتم للمنتصر وانبعاث الممحوق، مما يفسر قلة من يتخيل منا أن الروس سيبقون للأبد، السؤال فقط، هو متى سيرحلون وكيف.

باختصار، كرهنا الروس بجرأة فائقة ونفاد صبر كبير.

مثل معظم الدول التي تفتقر للصحافة الحرة وكل وسيلة مفتوحة للتعبير عن آراء الجمهور، تكون الجامعات المرتع الخصب

للتحريض على العصيان. قلنا في لقاءاتنا إن هنغاريا ستكون أفضل حرة مستقلة، طالبنا بوضع حد للاعتقال الاعتباطي والإعدام، وتوجب دفع الروس ثمن القمح واليورانيوم الذي يأخذونه من البلاد، كما ينبغي عدم وجود قواعد وقوات أجنبية في الأراضي الهنغارية، وإجراء انتخابات حرة. تظاهرنا ضد هيمنة القدرات الضعيفة العادية لكل من يحتلون مقاعد السلطة، وأقسمنا على التخلص من الفقر. أحسسنا بعيون عالم متفائل ترمقنا (وعيون البوليس أيضاً) وحلمنا بمجد مضاعف لتحرير بلدنا والمساهمة في تقويض أركان الإمبراطورية السوفيتية ـ حتى ولو كان ثمن ذلك حياتنا. لم يكن هناك طالب واحد في اجتماعاتنا لا يذكر ما قام به الكونت ميكلوش زريني في العام ١٥٦٦، حين صمد سنوات في قلعة صغيرة في سيغيتنار وهو يقارع الأتراك حتى قرر سليمان القانوني أخيراً القضاء عليه بنفسه بجيش مكون من مئة ألف رجل. صمد زريني وأتباعه أمام هذا الجيش الجرار أسابيع، وعندما نفد طعامهم وذخيرتهم، ارتدوا بزات عروضهم العسكرية، وضعوا قطعاً ذهبية في جيوبهم ليأخذها الجنود الذين كانوا من الرجولة بمكان لقتلهم، وانطلقوا قدماً من بين الدمار في هجوم فرسان انتحاري. توغلوا عميقاً في مخيم الأعداء قبل أن يصرعوا، أما سليمان القانوني العظيم الذي صدمه الهجوم المباغت، وكان يعاني من تفاقم الوضع لعدم تقدمه لوقت طويل بسبب «كثيف نمل»، فلقد خر ميتاً بسكتة الدماغ خلال الهياج المحيط بخيمته. استراح الهنغاريون بضع سنوات بسبب تصارع القادة الأتراك على السلطة، علاوة، لم يخطط الكونت زريني لهزيمة ناجحة مشهدية، لكن حفيده كتب قصيدة باسلة حول المعركة، ومنذ ذلك الحين صار

الرجل العجوز يقود هجوم فرسانه مظهراً لهم كيف يمكن حتى لفئة قليلة أن توقع ضربات قاتلة بفئة كثيرة.

كلنا سمع نواقيس هونيادي تقرع في الظهيرة. أباد يانوش هونيادي، قائد مرتزقة في القرن الخامس عشر، وأكثر بارونات هنغاريا ثراءً وجنرال جيش جيد التدريب مرتفع الرواتب، الأتراك في العام ١٤٥٦ في العاصمة الهنغارية الجنوبية ناندورفاهير، التي تدعى الآن بلغراد، وبذلك حفظ النمسا وإيطاليا من غزو القوات التركية المؤكد. للاحتفاء بذكرى انتصار هونيادي العظيم، أمر البابا كاليكتس الثالث بقرع النواقيس في عز الظهيرة حتى يوم القيامة - مما يعلل قرعها في الكنائس الكاثوليكية حتى الآن. لم ينتصر هونيادي بطبيعة الحال على الأتراك بل على الزمن، وذلك بحفظه قرع النواقيس وإبعاد اليأس عنا. الديكتاتورية توبيخ رسمي متواصل يأمرك بالتنكر لمشاعرك، أفكارك ورغباتك، بأنك عديم الشخصية عليك العيش كما يقرر الآخرون لك. تعلمك الديكتاتورية الأجنبية اليأس بشكل مضاعف، إذ لا اعتبار لك ولا لأمتك. غير أن نواقيس هونيادي كانت تخبرنا شيئاً آخر، وتظهر المدى الشاسع للفعل التاريخي: اربح أو اخسر. كان من الممكن فعل أشياء تحفظ سلالتنا من اليأس مئات السنين بعد ذلك.

لعب الماضي دوراً في ثورتنا كما الحاضر، حين صاغ أحلامنا وشخصياتنا. كان الهونياديون مثل الأقارب الأحياء، أناس نتطلع إليهم. أصبح ماتياش، ابن القائد المرتزق، حاكم عصر نهضة عظيم. كان ماتياش كورفينوس (١٤٩٠- ١٤٥٨) راعي الفنون والآداب، حامي الشعب، أول ملك يحرر القن ويفرض الضرائب على النبلاء عوض الفلاحين، بطل القصائد الغنائية والأغاني

الشعبية ومن عادته القيام بجولات مرتدياً لباس الفلاحين، حتى لا يتأكد علية القوم وأصحاب السلطة بأن الرجل المسكين الذين هم على وشك إساءة معاملته ليس الملك بنفسه. في الواقع، كانت فكرة ماتياش أن كل هنغاري ملك، لا زال بعض الهنغاريين حتى يومنا هذا يعانون من زهو الأمراء، رغم أنها تتوافق وفكرة ملوكية جسورة. كان جورج دوجا الرجل الذي كثيراً ما كنا نراه مصوراً على عرش، فلقد توج في العام ١٥١٤ على عرش حديدي أبيض ساخن بتاج حديدي أبيض حار ـ ملك فلاح شواه الأرستقراطيون المنتصرون حياً لقيامه بثورة للدفاع عن حقوق الفلاحين التي منحهم إياها الهونياديون.

يعج التاريخ الهنغاري بالجرائم التي سببها الطمع وحب الملكية، لكن في الوقت الذي كنا نخشى فيه فقدان رخائنا، كان لنا من الأبطال من ألهمونا التضحية ليس بأرواحنا فقط، بل بممتلكاتنا أيضاً. كان أول هؤلاء فيرنس راكوتسي، الذي ولد وهو يملك خمس أراضي هنغاريا، وكان في زمنه واحداً من أغنى أرستقراطيي أوروبا. ضحى الأمير راكوتسي (ابن حاكم ترانسيلفينيا وفتاة زرينية، هي نفسها جنرال عظيم) بكل شيء لقيادة حرب تحرير ضد النمسا (١٧٠٣ ـ ١٧١١). اختار في النهاية التخلي عن أراضيه وقضى ما تبقى من حياته في المنفى على أن يخضع للهابسبورغيين. «يمكن لله أن يقرر مصيري كما يشاء» قال لايوس كوسوث العام ١٨٤٨، مردداً صدى مقولة راكوتسي «يمكن لله أن يجعلني أعاني، أشرب الشوكران السام أو العيش بعيداً في المنفى. غير أن هناك شيئاً ليس بوسع حتى الله فعله، أن يجعلني مواطناً نمساوياً».

لم يكن من الممكن خلق عبيد مطيعين من شعب يملك سلفاً مثل هؤلاء يقتدي بهم. ولما كنا نتماهى بأبطال ماضينا، فإننا نشبه كذلك طغاتنا بطغاة أسلافنا، هم شيء واحد متماثل، أجانب يحاولون السيطرة علينا. وعليه، كان الهابسبورغ مكروهين وجوبهوا بمقاومة ليس لذاتهم فقط، بل لأنهم مثل التتار والأتراك. والروس والنمساويين والألمان.

كل القضايا كانت واضحة جلية، لكن حين تحولت مظاهراتنا إلى ثورة في أكتوبر ١٩٥٦، أضحى كل شيء ضبابياً مرة أخرى. قاتلت مثل الآخرين، لكن رعبي العظيم وأنا تحت وابل نيران الدبابات والمدفعية الثقيلة حرمني من الإحساس بالبطولة. إذا شعرت بشيء فإنه لعنة المحظوظ بين رفاق موتى مسجيين على الرصيف لا زالوا ينزفون دماً. كما لم أشعر بأني على صواب: وجدت نفسي وأنا أحارب ضد الاحتلال الروسي وديكتاتورية شريرة غير شرعية، أطلق الرصاص على شباب من الفلاحين الأوكرانيين المحتارين لأنهم مثلنا يملكون من الأسباب الكافية لكره ما نكره ونحارب لأجله. حسبت أني أعرف الحروب من ١٩٤٤، لكن الصدمة المريرة كانت حين وجدت أن المرء غير قادر على مواجهة العدو الحقيقي حتى في ثورة. مع ذلك صمدت خلال ثلاثة أسابيع حرب الشوارع، اقتنعت بعد فترة، وأنا أقفز، جائعاً والخوف يعتريني، من بيت مدمر إلى آخر، بعدم قدرتنا لا على النصر أو البقاء أحياءً. لكن زريني ودوجا حافظا على بقائي صامداً على قدمي. ثمة لحظات اختبرت فيها نوعاً من الصلة الحميمة الصوفية مع موطني، حين سررت لأني إذا فشلت في القيام بالمزيد، يمكنني على الأقل الالتحاق بركب من قضوا في سبيل هنغاريا في

الألف سنة الأخيرة من المجد وسوء الطالع. في الثالثة والعشرين كنت لا أزال أعتقد أن لكل إنسان بلداً حقيقياً واحداً فقط.

خلال عبوري الثاني للحدود النمساوية ـ الهنغارية، تحولت إلى مغازل دولي. كنت أفر ثانية عبر الجبال نفسها مع اللاجئين هذه المرة في يوم بارد مماثل من شهر ديسمبر. في الواقع، تملكني حس غريب بتكرار تمثيل حدث من طفولتي. كانت السماء كئيبة كما في شتاء ١٩٤٤، الشجر الساكن لا زال سامقاً، بهياً غير مضطرب، كما لو أنه من عالم آخر. الصخور الثلجية تردد صدى طلقات البنادق الرشاشة، كأن إطلاق النار لم يتوقف منذ أن كنت صبياً. لم نكن بحاجة هذه المرة للخوف من الرصاص الطائش للجيوش المتحاربة: دوريات الحدود غير المرئية كانت تصوب رصاصها صوبنا مباشرة. فاق غضبي خوفي، حين أدركت أني مجرد حيوان طريد طالما هناك أرض وطن أم أقف عليها. «قضي الأمر، وداعاً هنغاريا!» رحت أتمتم بيني وبين نفسي متعجباً إن كان الرصاص الذي يهسهس يضرب الأرض أم جسدي. حاولت الزحف تحت الثلج ثم ركضت دون تغطية ـ فلقد استهلكت عاطفتي تجاه هنغاريا.

في الجانب النمساوي من الحدود وجدنا درباً حملتنا منه شاحنة حليب عابرة أوصلتنا إلى أقرب قرية. كانت ساحة القرية تعج باللاجئين الذين راحوا يضربون الأرض بأقدامهم اتقاء الصقيع، والمحدقين بصف من الحافلات الجديدة فضية اللون مخطوط عليها باليد كلمات تشير إلى نقطة اتجاهها: سويسرا، الولايات المتحدة، بلجيكا، السويد، إنجلترا، استراليا، فرنسا، إيطاليا، نيوزيلندا، البرازيل، إسبانيا، كندا، ألمانيا الغربية ثم ببساطة فيينا. في مركز

الشرطة على الجانب الآخر من الساحة، كان مسؤولو الصليب الأحمر يقدمون المساعدات الأولية من القهوة الحارة والشطائر، بينما الممرضات المرتديات المعاطف السوداء والقبعات البيضاء ينطلقن مسرعات بين الجموع بحثاً عن الجرحى والأطفال المحتاجين للمساعدة. راح بعض المسؤولين الأقل تعاطفاً يحثون اللاجئين على اختيار حافلة والصعود إليها.

أصابنا منظر ساحة القرية الموحل بحافلاتها المتجهة إلى أصقاع العالم الأربعة بالحيرة. قبل أقل من ساعة كنا غير قادرين على التحرك دون أن تطلق النيران علينا، والآن نحن مدعوون لاختيار أي مكان تحت الشمس. لم يكن ذلك منطقياً، فالأشياء كانت بلا ترابط.

«ليست هناك وسائل نقل كافية لكل هؤلاء الناس» صاحت سيدة بهستيرية مفاجئة «سيحملون الحافلات فوق طاقتها ونقتل في هذه الدروب الجبلية المتعرجة!» لم يضحك أحد، فلقد أظهرت الحياة كثيراً من الاحتمالات لدرجة لم يعد أحد يشعر بالثقة.

«تلك الحافلة مكتوب عليها البرازيل ـ هل يخططون قيادتها عبر المحيط» سألت فتاة مستديرة الوجه تبدو مرتعبة تقف بجانبي. ضحكت بعصبية وقالت إن الحافلات تذهب حتى محطات القطارات المختلفة ومخيمات اللاجئين، حيث قد نجبر على الانتظار للتصنيف وأخذ وسائل نقل أخرى.

أين يقضي المرء ما تبقى من حياته؟ رجل وامرأة معهما طفل صغير، كانا في الحافلة الذاهبة إلى بلجيكا، هبطا وانطلقا إلى حافلة نيوزيلندا. آخرون ساروا صوب الحافلات جيئة وذهاباً، يقرؤون ويعيدون قراءة أسماء الدول بحرص ودراسة دون أن يقدروا على

أخذ قرار . أين أخيراً سأحصل على شهادة الدكتوراه؟ بأي لغة؟ كان من المستحيل تصديق أني سأجيب على هذه الأسئلة بالسير بضع خطوات في هذا الاتجاه أو ذاك. حدث أني كنت أقف بمحاذاة الحروف الصفراء «السويد»، إذا دلفت هذه الحافلة، سأقابل نساء في استكهولم ونحب بعضنا بعضاً ـ لكن إذا سرت نحو الحافلة التالية، لن نعرف بوجود بعضنا بعضاً ابداً. أخيراً قررت الفتاة مستديرة الوجه الذهاب إلى البرازيل. سرت معها إلى الحافلة وقبل أن تصعد أمسكت بها وقبلتها ـ تخفيفاً لعجزي أكثر من أن أجلب المسرة لها. قبلتني كي نذكر بعضنا أننا لا زلنا رجل وامرأة، وأن هناك رجالاً ونساء في كل أرجاء المعمورة. فكرت بسؤالها عن اسمها، لكني وضعت يدي على صدرها المندفع عبر المعطف، وراقبتها تصعد الحافلة، تجد مقعداً بمحاذاة النافذة، وتبتسم لي مظهرة سناً أمامياً مكسوراً. لولا ذلك السن، لكنت أكتب هذه الذكريات الآن بالبرتغالية. غير أن حس معطفها كان لا يزال يبعث الدفء في أصابعي وأنا سائر دون شعور بالضياع الكبير، إلى الحافلة المكتوب عليها «إيطاليا». بعد أسابيع في البرد، تاقت نفسي لحرية الشمس.

في اليوم التالي كنت في روما، مع ثلاثة مئة من الهنغاريين القلقين الآخرين، الذين لم يسبق وأن قابلت أحدهم. رأينا حين وصلنا محطة القطار الناس يحتسون القهوة على مناضد مغطاة بقماش أبيض على جانب الخطوط الحديدية. وحدها القطارات الكهربائية كانت تسير، وبدت المحطة النظيفة اللامعة مكاناً يبعث على السرور حيث تصب أشعة الشمس عبر الجدران الزجاجية. أخذنا الحافلات مرة أخرى، لتوصلنا إلى البيرغو باليسترازا، فندق

قديم مريح في شارع ضيق متفرع عن فيا فينيتو. وجدنا صعوبة في دخول البناية: كانت الطريق ممتلئة بالشاحنات التي تحمل الهدايا ومئات الناس الذين قدموا لرؤية اللاجئين المساكين. وضع رجل مسن، وأنا أكافح للدخول، في يدي حزمة من الأوراق المالية (ثمانون ألف ليرة كما اكتشفت لاحقاً). ذهلت لرؤية الرثاء على وجهه. لماذا عليه الرثاء لحالي، تساءلت، لكن سيطرت على نفسي وحاولت عدم التفكير بالإجابة. شكرته باللاتينية ودلفت الفندق. كان البهو مثل مجمع تجاري، أكوام من الأطقم، الملابس النسائية والمعاطف الثمينة مع تحيات تجار روما. المناضد مغطاة بقمصان الرجال والنساء والأحذية، كل ما يتمنى أن يجده المرء عندما يصل مدينة غريبة دون حقيبة. مع ذلك، عندما انضممت إلى مواطني في الانقضاض على السلع، سمعت امرأة تشكو بصوت مرتفع عدم وجود قفازات أطفال بيضاء تناسبها. أخذت حقيبة كبيرة أولاً، تفحصت بعناية المقاسات والأنواع، واخترت ستة قمصان بيضاء، ربطات عنق، ملابس داخلية. جوارب، حذاءين. ثلاثة أطقم، ستة جرازي سوداء ومعطفاً أنيقاً. ساعدت الهدايا على تأخير الإدراك التام بأننا ابتعدنا عن كل ما نعرفه، نفهمه، نهتم به، نكرهه أو نحبه. تشبثنا بممتلكاتنا الجديدة وكست وجوهنا، التي بدت متواضعة مرتعبة في القطار، الهيئة المعتدة بالنفس القلقة للمالكين. لاحظت، وأنا أناضل لشق طريقي عبر الجمع بغنائمي، عاملاً نحيلاً طويلاً في الفندق يحملق بي بازدراء واشمئزاز. ها أنا ذا، أجنبي يأخذ أفضل ما هناك دون مقابل، فهل سبق وأن سأله شخص عمّا بإمكانه استخدامه؟ شعرت بالذنب، وفي الآن نفسه، غمرني إحساس بالراحة والرضا لحسن طالعي.

منح كل منا حجرة خاصة جيدة التأثيث دون مقابل، أُغرقنا بكل أنواع الهدايا وكمية كبيرة من النقد، ولم يكن علينا سوى الاسترخاء والاستمتاع وانتظار التغير العظيم القادم في مصائرنا.

بعد الغداء في اليوم التالي، طلب من الطلاب المتمردين في البيرغو باليسترازا الحضور إلى بهو الفندق لمقابلة صحفية كانت تكتب سلسلة من المقالات حول الحياة الجامعية في هنغاريا. كان البهو قد استعاد وضعه العادي، حجرة استقبال واسعة يتعذر تفسير وسعها في بيت طبقة وسطى متواضع: مرايا يعوزها البريق في إطارات خشبية سميكة، سجادة رثة وعدد كبير من المقاعد باهتة قماش الأغطية. كانت هناك امرأة مستريحة على أحد الكراسي. لم يبد أنها لاحظت اقتراب مجموعتنا الصغيرة، وإن وقفت في اللحظة الأخيرة لتلقي علينا التحية، تصافحنا وهي تكرر اسمها الأول.

«باولا»

لم تكن ملامح باولا إيطالية إطلاقاً: جميلة، وجه مستقيم، طويلة، شقراء، وكما سنعرف لاحقاً غير متعاطفة. ولما لم يكن هناك من يتكلم الإيطالية بيننا، سألت إن كان بإمكان أحد منا الترجمة لها بالإنجليزية. عرضت خدماتي، نظرت إلي وهلة بشك. «حسناً، لنشرع بالعمل» قالت بلهجة تقريرية. في البدء أرادت أن تعرف مؤهلاتنا العلمية، وماذا رأينا وفعلنا خلال الثورة. كان رد فعلها، سواء حاولنا رواية نكتة أو وصفنا حادثاً مأساوياً، حول قلمها الجاف فقط، ولم تظهر أي تعاطف سوى قلقها من أنها قد لا تستطيع قراءة مذكراتها ثانية.

«هذه العاهرة تكرهنا» قال أحد الشباب متذمراً «ملعون أنا إذا أجبت على أي من أسئلتها!».

«ماذا قال؟» سألت باولا عندما لم أترجم ما قال.

«إنه قلق ويسأل إن كان بإمكاننا إخبارك شيئاً مثيراً بما فيه الكفاية لتضعيه في مقالاتك». رفعت باولا حاجبيها، ولم تعلق. أخيراً أغلقت دفتر ملاحظتها، قالت إنها ستعود في اليوم التالي وأنهت المقابلة بملاحظة شخصية «اعتقد أنكم جميعاً محظوظون للفرار سالمين معافين».

في وقت لاحق من بعد الظهر، شعرت بما سينتابني عدة أيام قادمة، حالة شديدة من الشفقة على الذات. كنت معرضاً لهذا المرض منذ الطفولة، في الواقع، لم أشف منه أبداً. مع ذلك كان هجوم الشعور هذه المرة أشد عنفاً من أي وقت مضى. صعدت إلى غرفتي، أقفلت الباب، وتجاهلت حتى جرس العشاء: لم يكن بوسعي تحمل رؤية أو التحدث مع إنسان. بكيت، وأنا مستلق على الفراش، لوحدتي.

لماذا الكذب؟ بكيت على أمي. بكيت طويلاً، ارتعشت شاعراً بأنني منبوذ من رحم حبها الحارس. تذكرت أول سنة لي في المدرسة، كيف كنت أركض للبيت خشية أن لا تكون هناك، أنها لم تنتظرني وفرت بعيداً! تذكرت يوم جرحت ركبتي وأنا ألعب كرة القدم، وكيف شعرت أنها شفيت ما أن بدأت في تضميدها لي. كان بإمكاني حتى تذوق الفطيرة التي عملتها لي بعد ذلك. الآن تأذيت وأعلم أن ليس بوسعي الركض عائداً إلى البيت ثانية.

صرت أكره نفسي. الآن ثمة أوقات أشعر فيها بالفخر لأنه كان

بإمكاني القتال أسابيع عوض الخوف، ثم أفكر فقط بأني هربت في النهاية بعيداً. من أنا لأخبر باولا عن هونيادي والآخرين؟ الأسبوع الماضي كنت في بودابست. واليوم في روما ـ أين سأكون غداً؟ ومن أجل أي غاية؟ غادرت بلادي، أحبتي، أصدقائي، أقربائي ولن أراهم قط بعد الآن. لم أقدر على فهم ما استحوذ علي لفعل ذلك. أقنعت نفسي، وأنا أتكلم مع هذه الصحفية الإيطالية المغرورة عن الثورة أنني لم أعد أحفل باستقلال هنغاريا بعد الآن، ولا الحرية، المساواة والعدل ـ كل هذه الأشياء التي من أجلها أفسدت حياتي بشكل يتعذر تغيره. حتى ترجمة أخبار هنغاريا صارت تزعجني: وجدت زملائي من المهاجرين متعبين مثيرين للأعصاب مثل أقارب صديقة سابقة، وعقدت النية على الابتعاد عنهم بقدر الإمكان. كنت أستلقي على الفراش طوال الليل مرتدياً ملابسي، وعندما أغفو قليلاً أحلم بدبابة تسير فوقي جيئة وذهاباً، مسطحة جسدي على الرصيف ليصبح بسمك ورقة.

استيقظت صبيحة اليوم التالي مصاباً بحمى خفيفة وبثرة كبيرة مؤلمة تحت إبطي الأيمن، فانطلقت إلى طبيب الفندق. حسب رأيه، كان جسدي يأقلم نفسه بكل بساطة مع متغيرات الطقس والطعام، والأرجح أنه يتمرد ضد التغيرات التي تعرض لها. استمرت الحمى والبثرة في إزعاجي لأكثر من شهر، وأنا أجر نفسي بين متاحف وكنائس روما، إما وحيداً أو بصحبة إيطاليين ممن تطوعوا ليعملوا أدلة للمهاجرين. كانوا لطفاء، لكنهم لم يعرفوا اسمي، لو عرفوه ما كان لهم أن يلفظوه، وعلى أية حال لم أعد أعرف من يعني. في غضون أسبوعين صار بإمكاني إتقان بعض الإيطالية، لكني لم أقدر على تجاهل حقيقة أني لم أكن أتعلم لغة جديدة لأنسى لغتي الأم.

أصبحت قادراً على التواصل مع بعض الناس والأمكنة، غير أن من الواضح أن هذه الموهبة جعلتني أكثر استعداداً للتخلي عما كان لدي. ولقد تخليت بالفعل عن كثير من اهتماماتي: كتابة الشعر والعزف على البيانو. لم يعد بإمكاني الثبات على أمر. ولأن روما تغري بالتأمل في الماضي، رحت أحصي كل الأصدقاء والعشيقات الذين تركتهم ورائي، وكل الذين تركوني أيضاً. كانوا يظهرون ويختفون: وأضحت حياتي كلها سلسلة من التعتيم على الماضي وكشفه. بدا أني في الواقع لم أحصل قط على شيء ولم أخسره. شعرت بالذنب حيال مايا، بوجه خاص، وأكثر ما أزعجني ليس أني مارست الحب مع ابنة عمها، بل لأني قمت بذلك على سريرها ـ على السرير الذي علمتني عليه كيف أمارس الحب ـ شيء لم أفكر به قط من قبل، ويتشبث بي الآن كجريمة.

بالمناسبة، ينبغي علي عدم الاتفاق مع الفلاسفة العظام الذين يحثونا على معرفة أنفسنا. طوال كل هذه الأيام من التحليل الذاتي العميق، أصبحت في الواقع أكثر خسة وغباءً، بسبب الإحباط فقط، فأنسحب كل ليلة باكراً إلى غرفتي لأعتني بالبثرة، متمنياً لو أني قتلت بالرصاص على الحدود. وتنتابني الكوابيس كل ليلة.

في السعادة مع امرأة باردة

أحبك كثيراً ولأنك معي

وجدت سبيلاً لأحب نفسي ثانية

أتيلا جوزيف

سقمت من نفسي لدرجة أني جذبت إلى امرأة لم تظهر أي تعاطف معي إطلاقاً. رغم أن باولا بدت كأنها تكتب سلسلة من المقالات لا نهاية لها حول الطلبة الهنغاريين، إلا أن لامبالاتها الشخصية لم تتأثر باحتكاكها بنا يومياً. حاولت أن أقدر عمرها وأنا أترجم لها كل بعد ظهر في البيرغو باليسترازا. من الممكن أنها كانت بين الثامنة والعشرين والسادسة والثلاثين: إذ هناك خطوط دقيقة على جبهتها ورقبتها، وإن برقت عيونها الشاحبة الزرقة ببراءة غير مشوشة لفتاة صغيرة (أو جهل؟). يوم سارت في البهو مرتدية ثوباً حريرياً ضيقاً مشدوداً، في غاية الأناقة، بدا جسدها وكأنه دلك من قبل صف طويل من العشاق متقدي العاطفة ليأخذ شكلاً كاملاً. لكن عندما تدنو، يتحول وهج الدفء إلى فتنة باردة. كان

وجهها نحيلاً، مفتقراً للود، وجه سيدة بيزنطية بيضاوي شاحب، ورحت أتساءل إن كان من الممكن أن تبعث الحياة بها إن لمستها.

قلت لها يوماً «هل تعلمين أني في الواقع مترجم بخبرة. لقد قمت بالترجمة كثيراً حين كنت صبياً صغيراً». تمنيت، بطبيعة الحال، أن تسألني أين ولماذا. في وقت لم أؤمن فيه بنفسي، كنت استغل قصصي في مخيم الجيش الأمريكي دون خجل لجس النبض ومحفز. غير أن باولا لم تبد اهتماماً. كما حاولت التأثير أيضاً عليها بموهبتي في إتقان اللغات والانتقال من الإنجليزية إلى الإيطالية كلما أمكنني ذلك، لأظهر كل كلمة جديدة تعلمتها. لم تبد أي رد فعل. اعتذر معظم الشباب عن مرافقتها بأسرع ما يمكن، وكثيراً ما تركت وحيداً معها قبل أن تجد كل ما كانت بحاجة لمعرفته لمقالة اليوم التالي. حاولت مساعدتها، رغم أن بثرتي كانت تؤلمني وكل جسدي يرتعش بالحمى، وأحياناً أشير إلى معاناتي. لم تكترث بهذه الملاحظات الشخصية، كما لو أني طلبت منها كتابة مقالة في الصفحة الأولى عن حالتي الصحية.

«آسف، أخشى أن علي تركك أيضاً» أخبرتها يوماً، وقد فاض بي الكيل، بلغة إنجليزية واضحة. «أشعر بأني مريض وأعتقد أني سائر إلى الموت لا محالة».

«الآن، حاول أن تقول هذا بالإيطالية» ألحت بالإيطالية «لا ينبغي عليك أن تكون كسولاً ـ عليك ممارسة اللغة التي تعرفها أقل».

كنت واهناً فلم أقدر على صك أسناني، كررت بإيطالية متواضعة أني سأموت.

«ممتاز» قالت باولا، في الواقع مبتسمة «سأراك غداً».

ذهبت سائراً لأسكن سخطي. في آخر فيا فينيتو توجد واحدة من البوابات التي تفضي إلى فيلا بورغيسي، الموجودة في حديقة منظمة مترفة من الشجر القديم والزهور النضرة، طبيعة برية في إطار من التصميم الفني دقيق التفاصيل، غابة وحديقة في آن واحد. ثمة بحيرة صغيرة هناك، دروب جميلة تتعرج أمام تماثيل رخامية بيضاء، ومن كل مكان (حيث تحتل الحديقة واحدة من تلال روما السبعة) تلمح قباب الكنائس وجدران القصور التي تعطي نفحة من عصر النهضة. لم أر شيئاً بهذه العظمة، ويجلب السكينة إلى النفس في الوقت نفسه مثل حدائق بورغيسي، أصبحت وأنا أتجول هناك، مرتاحاً بما فيه الكفاية لأدرك أن الهواء العليل والتمرين قد أراحا فكري وخففا من الحمى التي أعاني منها. مع ذلك، لولا لامبالاة باولا المزعجة لمعاناتي لكنت قد قضيت بعد الظهر في غرفتي في الفندق متأملاً كئيباً. في الواقع أصبح هذا النمط من السبب والمسبب سمة لعلاقتنا: كانت باولا تسبب لي الإحباط، لكني في النهاية أشعر بأني في صحة أفضل وأكثر تفاؤلاً.

«لست شخصية متفتحة» قالت بعد مقابلتنا الأخيرة في البهو، عندما تركنا وحدنا مرة أخرى «وأركز على ما أقوم به. لاحظت أن أصدقاءك لا يحبونني».

«يعتقدون أنك تفتقرين لروح النكتة، تعوزك الرأفة وغير حساسة» أخبرتها.

«يبدو هذا قولاً في غاية الفطنة» قالت وقد ترك ذلك عندها انطباعاً جيداً، كما لو كنا نتكلم عن شخص آخر. «ينبغي القول إني معجبة بمعظمكم» أضافت بروح من الموضوعية «إنكم جميعاً

متعبون من السياسة، لكنكم على الأقل لستم مثل الرجال الإيطاليين ـ فالجنس غير مستحوذ عليكم».

لا أدري كيف كان سيكون رد فعل الآخرين لو كانوا حاضرين وسمعوا مديحهم، لكن تأثيره علي كان عميقاً. عندما كنت مرة في المستشفى وأنا في التاسعة من عمري، بعد أن انفجرت زائدتي الدودية، سمعت الطبيب ينصح أمي بترتيب مراسيم جنازتي، غير أني وقفت على قدمي بعد أسبوعين. تركت ملاحظة باولا الأثر نفسه. سألتها أن تأخذني في جولة لتريني روما مقابل خدماتي كمترجم، وافقت فحددنا موعداً في اليوم التالي. صعدت إلى غرفتي بعد مغادرتها، قمت بعشرة تمارين ضغط، استحممت وقررت ممارسة الحب مع هذه المرأة ما أن تختفي بثرتي.

كان موعدنا الثاني في منتصف يناير تقريباً، حين بدأت في التغزل بها خلال جولتنا. كانت تقودني عبر متحف صغير، وكنت أصر على أنها أجمل من كل اللوحات والتماثيل التي تريني إياها. بدت في ثوبها البني المائل للحمرة، شعرها الأشقر الممشط للأعلى بشكل مصقول في أعلى وجهها النحيل فاقد الحس، مثل مومياء ملكية مصرية، مزينة بلون خمري وآخر أصفر ـ مهما كانت الفترة التي تشير إليها، لم يكن الحاضر قط منها. لم تثني على مدحي باستثناء رفع حاجبيها. هل هذه عادة ترسبت من طفولتها، تساءلت لأعبر عن دهشة ورفض لهذه الطريقة؟ هل حاولت التخلص من هذه العادة سنوات واستسلمت يائسة في النهاية؟ تصورت كل ما يمكن أن يجعلها أكثر إنسانية ومحبوبة.

حين كنا على وشك الفراق أمام المتحف، حاولت تجربة حظي. «هل تعلمين أني لم أدع إلى وجبة في بيت إيطالي؟»

«لم تخسر شيئاً، في الفنادق ألذ طعام روما».

«مع ذلك، ليس مثل طهي البيوت».

«ماذا دهاك اليوم؟ أنا متزوجة كما أني إذا أردت دعوتك للعشاء لقمت بذلك».

كان هذا رداً حاسماً. أسقطت يدي «حسناً، كان من الجيد معرفتك، ربما سنتقابل ثانية في روما».

أخذت باولا يدي ولم تدعها. لا ينبغي على بعض النساء أن يكن فظات، إذا لم يردن أن يكن لطيفات، بسبب عدم الشعور بالراحة لسلوكهن الفظ. «أظن إن لم أدعك إلى العشاء ستفكر أن ذلك لأنك لاجئ».

«إطلاقاً» قلت محتجاً ضاغطاً على أصابعها الطويلة الناعمة.

«أدرك أن ذلك لأنك لا تميلين إلي كشخص».

سحبت يدها وألقت نظرة حولها لترى إن كان هناك من يراقبنا من المارة «ليس عندي في البيت سوى طعام معلب».

«أحب الطعام المعلب».

ضاقت عيناها هذه المرة، ربما بسبب الشمس الساطعة أيضاً «حسناً، لكن تذكر أنك طلبت ذلك».

حين قادتني باولا إلى شقتها، قبلت مؤخرة عنقها. كانت بشرتها ناصعة البياض حتى بدت وكأنها تشع ضوءاً في الفجوات عديمة النوافذ. تجمدت برهة، ثم حركت جسدها وشذا عطرها إلى المطبخ الحديث اللامع.

«قد لا أكون المرأة المناسبة لك، ولو لمجرد علاقة عابرة» قالت:

مع ذلك أصبحنا أكثر ألفة. سخنت بعض الطعام المعلب، وجلسنا في المطبخ نتناول وجبة عادية، مثل زوجين من أمد طويل، مما ذكرني أن باولا متزوجة. «أين زوجك؟» سألت بلهفة وقد نسيت أمره.

«لا نعيش معاً منذ ست سنوات» أقرت بنصف ابتسامة اعتذار «نحن منفصلان قانونياً، هذا ما عندنا في إيطاليا عوض الطلاق».

«لماذا تركته؟»

«هو الذي تركني».

لم يدع الرد مجالاً لأسئلة أخرى، وكان جيداً لأنها لو أخبرتني المزيد لكنت ربما قد فقدت رباطة جأشي وعدت إلى البيرغو باليسترازا. رحنا نتكلم في السياسة وشرحت لي الفرق بين العناصر المختلفة في الحزب الديمقراطي المسيحي الحاكم، بأسلوب يشوبه الهدوء، كما لو أنها متأكدة من إدراكي أن كل ما سأحصل عليه طعاماً معلباً. ألهمني كبريائي الجريح وشذا عطرها (لم أكن قد لاحظته في مناسبات أخرى ولكنه الآن صار أقوى من رائحة الطعام) أن أسارع في إنهاء الوجبة، ورفضت عرضها لعمل قهوة، لأن ذلك سيضيف وقتاً ضائعاً لا يحتمل. طلبت منها أن تريني الشقة، التي كان انطباعي أنها توفر خلفية زرقاء وخضراء لقوامها، حتى وصلنا إلى سرير ضخم مدور. سمحت لي باولا بتقبيلها وحضنها دون تجاوب، لكن عندما رحت أفك أزرار ثوبها، حاولت دفعي بعيداً بكوعها وركبتيها. أثبط الثوب الضيق من جهودها ومن جهودي، أخيراً نجحت في تحرير ثدييها اللذين اندفعا عالياً عند خروجهما من الحاملة، لم ينبس أحد منا ببنت شفة، لكن حين

انحنى رأسي على صدرها الأبيض قالت بنبرة خبث «أنا باردة، كما تعلم».

ما كان علي فعله، أقف أمامها وصدرها العاري بين راحتي؟ «لقد جئت من ثورة» قلت برجولة، لكن دون إظهار وجهي «لا يمكنك أن ترعبيني!».

عندها رفعت باولا رأسي وقبلتني قبلة قوية شهوانية. تمنيت، ونحن نخلع ملابس بعضنا، أن تكون هذه المرأة الإيطالية الغامضة تكذب كي تمتحنني. ألم تخبرني نوشي أنها لن تنام معي قبل انقضاء شهر من معرفتنا، قبل ساعة من ممارستنا الحب أول مرة؟

من سوء الحظ، ثمة قليل من التشابه السعيد في الحياة. عندما انتهينا من خلع ملابسنا، جمعت باولا ملابسها، كومتها بأناقة على المنضدة، وعلقت ثوبها في الخزانة. ثم ذهبت إلى الحمام لتنظيف أسنانها. راقبتها بمزيج من عدم التصديق، الخشية والتلهف.

عارية، بدا عجزها أضخم مما هو تحت الثوب، غير أنه أضفى نقطة قوية إلى جسدها الطويل النحيل. حين استدارت قرب المغسلة، أعاد لي مزيج شعرها الأشقر الطويل والقصير بين فخذيها اضطراباتي الموجعة حين كنت ولداً. سارت صوبي بغرابة جسدها العاري بعفوية وترو كما لو أننا متزوجان منذ عشر سنوات. أخرجت رأس لسانها، ثم مرت من جانبي لترفع غطاء السرير الأبيض الذي طوته ثلاث مرات ووضعته على الكرسي. خشيت أن تقضي الليلة كلها تتسكع هكذا، فأمسكت بها من عجزها البارد.

«إنه بالغ الضخامة» علقت برزانة.

عصرته بشدة تلهفي ولابد أنها تأذت لأنها في المقابل غرزت أسنانها في لساني. واقع أني لم أعاشر امرأة في الشهرين الأخيرين مكنني من المضي في الربع الساعة القادمة، فلقد تصرفت باولا كمضيفة كريمة أكثر من عشيقة: رفعت وأدارت جسدها مجاملة حتى أني شعرت كأني ضيف قدم له الكثير ولم يعد بإمكانه فعل شيء سوى معرفة أن من المتوقع منه المغادرة قريباً. لم أشعر بالراحة معها، ولم أقدر على بلوغ الذروة إلا بعد وقت طويل. في النهاية، رحلت بيدي على جسدها غير مصدق إمكانية وجود مثل هذا الشكل الكامل دون محتوى.

«هل استمتعت؟» سألت.

حيث أن كل شيء آخر كان قد فشل، حاولت أن أطيب خاطرها بالكلمات، «كان ذلك رائعاً».

«آه، أنا مسرورة، مسرورة، مسرورة».

«أحبك».

«لا تتكلم هكذا» اعترضت باولا. سحبت الغطاء حتى وصل رقبتها، كي تمنعني من أن أجول ببصري عليه. «تجعلني أشعر بأن علي قول الشيء نفسه لك، وليس بمقدوري قول إني أحبك. لن يكون ذلك صادقاً».

«لنكذب إذن»

«ربما يمكنك ذلك، لكنني لا أستطيع الكذب».

بينما كنت أفكر في طريقة مؤدبة للمغادرة، مددت يدي بين فخذيها ورحت ألعب به بشكل ميكانيكي تقريباً، فقط لأكتشف أنها أحبت هذا أكثر من ممارستنا الحب.

«ألست مسروراً فلم الادعاء» سألت بنبرة مستريحة.

هل هي واحدة من تلك النسوة اللاتي يبلغن الذروة بطريقة مختلفة فقط؟ ولما كنت شخصاً لا يتخلى عن أمر جيد، سحبت الغطاء يحدوني الأمل، قلبت نفسي لأبلغ مصدر غموضها، لكنها دفعت يدي بعيداً وضربت صدري بعنف حتى كدت أن أقع أرضاً خارج السرير.

«لا تفعل هذا! من القذارة فعل ذلك!».

لكنك نظيفة. رائحتك في غاية الطيب».

«لست منحرفة ـ أحب الطريقة الطبيعية».

«تعنين عندما لا تبلغين الذروة؟».

«سأشعر بالعار».

«هل تعلمين أن واحداً من أكثر عبارات التحبب الشائعة في اللغة الهنغارية هي جسدي الحلو، لا أحد يشعر بالعار لقول ذلك. العشاق يدعون بعضهم جسدي الحلو أمام الجميع» أخبرتها.

«قد تصاب بالاشمئزاز!».

حاولت إقناع باولا أنها كاملة في كل أجزاء جسمها، لكنها كانت عنيدة، وكلما تكلمنا في الموضوع أكثر، كلما تضاءل الاهتمام. أخيراً، بحثت عن ملابسي الملقية على السجاد السكري اللون ـ والظلام قد بدأ يرخي سدوله ـ ثم نهضت ورحت ارتدي ملابسي.

«لماذا ترتدي ملابسك؟» سألت بامتعاض.

«أظن أنه يتوجب علي الذهاب ـ الوقت متأخر».

لزمت باولا الصمت برهة، ثم انفجرت دون توقع «أنتم معشر الرجال كلكم قرود مغرورة. لا تستمتعون بالنساء، ولا حتى ببلوغكم الذروة. كل ما تريدونه أن تذهب المرأة بعد انفجار عظيم. لا ريب أن القنبلة الذرية كانت من اختراع الرجال».

«ربما كان بإمكانك الوصول إلى انفجار ذروة لو أنك حاولت».

«يا الهي، أنا في السادسة والثلاثين، يا أندراش، لقد حاولت ما فيه الكفاية».

أضاءت الضوء لأعثر على حذائي.

«هل أخبرتك عن زوجي؟» سألت وهي ترتكز على كوعها «إنه محام رشح نفسه للبرلمان مرتين على اللائحة الملكية وسقط طبعاً. اعتقد أنه خسر لأنني باردة، فلقد دمرت ثقته بنفسه: قرأ كثيراً في التحليل النفسي وتوصل أنني لا ريب أحب التعذيب، لذا راح يضربني بمنشفة مبلولة كلما مارسنا الحب. سئمت هذه المنشفة المبلولة. أخيراً أخبرته ربما علينا أن نرى إن كنت سادية».

«وماذا قال؟»

«أراد في الواقع تجربة ذلك. ضربته في إحدى الأمسيات بعد أن أصر، لكنني لم أستمتع بذلك أيضاً. في الواقع كرهته. لذا قلت لن يكون هناك مريد من التجارب».

جلست على حافة السرير اشد رباط حذائي.

«ألم يكن أي من عشاقك أفضل؟».

«قامت كلها دوماً على الصداقة. هناك محرر في الصحيفة يزورني أحياناً. لكنه لا يريد أن يلهو مثلك، هو في الواحدة والخمسين لم ترق لي فكرة التسلل إلى منطقة رجل كبير السن،

وأظن أن ذلك بدا واضحاً». بماذا تفكر؟ سألت وهي تمد يدها لتلمس يدي بحنان. امرأة في غاية التناقض.

«كنت أتساءل ما سيحدث عندما تتعب الحكومة الإيطالية من استضافتنا في الفندق» قلت كاذباً. لكن عندما قلت ذلك بدأت أثير مسألة ما سيحل بي «أسوأ ما في الأمر أني لا أعرف شيئاً. أملك قائمة بأسماء الجامعات الإيطالية، حصلت عليها من الصليب الأحمر، أرسلت إليها طلبات، لكن حتى لو قبلوا شهادتي هنا، قد لا يسمحون لي بالتدريس بسبب لغتي الإيطالية. وأنا أريد أن أصبح مدرساً. لقد أعددت لذلك طويلاً ولا يمكنني التخلي عن ذلك الآن». رأيت نفسي نادلاً في مقهى رخيص يأخذ إكرامية متواضعة. ستحصل على شيء ما. في غضون ذلك أنت في روما، مقيم في فندق كان سيكلفك عشرة آلاف ليرة في اليوم لو كنت تدفع الأجرة. لم لا تستريح وتستمتع بوقتك؟ لقد لاحظت أنك متوتر جداً. كيف لا يمكنني أن أكون غير ذلك معها؟ «من اليسير عليك الكلام» علقت بمرارة «تملكين وظيفة مستقرة، تعيشين في بلدك، ولست قلقة لما سيحدث معك غداً».

نهضت باولا وراحت ترتدي ملابسها. «لا أحد يعرف ما سيحدث له غداً. يروق لك أن تشعر بالشفقة على نفسك». الآن ونحن نناقش مسألة يمكنها التطرق إليها بمنطق صرف، استعادت ثقتها. ولابد أنها شعرت بالراحة مثلي، لأننا ارتدينا ملابسنا: من المؤكد أن ذلك أفضل لطبيعة علاقتنا. «كثير من الناس قد يرتكبون جريمة لتكون لهم مشاكلك» أضافت بحدة.

«لا ينبغي الحديث معك، فأنت تذكرينني فقط بأنني وحيد جداً في هذا العالم».

«من ليس كذلك؟».

لسبب ما، ربما لأنها ذهبت إلى الحمام لتسرح شعرها بحركات بطيئة حالمة من يدها، كما لو أنها تستمتع بوقتها ـ شعرت بأن علي إقناعها أني أملك كل سبب لأشعر بالقرف. لقد انقطعت ببساطة عن كل ماضي في هنغاريا، ألم تفهم ذلك؟ لم يعد لأي شيء فعلته في حياتي معنى. أخبرتها عن الدبابة الروسية التي تمر فوقي كل ليلة.

«لأنك تطيل التفكير بذلك دوماً. تقضي حياتك كلها شاعراً بالأسى على نفسك».

«لن أجرؤ على ذلك في حضرتك».

«أنت طالب فلسفة ـ ينبغي أن تعلم أن الحياة فوضى، عديمة المعنى ومؤلمة في معظم الأحيان».

«هذا سبب بؤسي الدائم» قلت معترضاً.

«في الثانية والعشرين، ألست متقدماً في السن لتقلقك مثل هذه الأمور البديهية؟»

حاولت أن أثبت أني أعرف عن لامعقولية الوجود أكثر منها، فرحنا نتناقش حول كامو وسارتر. كنت أتنقل من حجرة لأخرى أثناء حديثنا، حتى لا أكون قريباً من هذه المرأة اللئيمة. متى ستكون لي شقة مثل شقتها، تساءلت. كانت حقاً شقة غير عادية. لم يكن بها ذاك الشح المحبط لمعظم الشقق الحديثة، رغم أن عمر البناية لم يتجاوز بضع سنوات. كانت السقوف مرتفعة، الغرف شاسعة، وتتحلى بتخطيط في غاية الإثارة. كانت حجرة النوم دائرية وفيها نافذة شبه مستديرة، أمامها مكتب على شكل نصف قمر تعلوه آلة

طباعة أوليفتي محمولة، قطعة الأثاث الوحيدة الأخرى كانت السرير المدور الكبير، الذي رتبته باولا سريعاً بلحافه المخاط من قطع قماش ذهبي اللون. الحمام المحاذي ذو الرخام السكري والمطلي، كان بحجم حمام عام صغير. غرفة الاستقبال الزرقاء والخضراء كانت على شكل حرف S كبير. أضفى هذا الخط الملتوي عليه وهم الحركة، رغم وجود المقاعد والأرائك الجامدة التي عملت لتلائم انحناءات الجدار.

«لست مندهشاً لقبولك لامعقولية الوجود بمثل رباطة الجأش هذه» أخبرت باولا.

«أجبرت على مغادرة الشقة مرتين لعدم قدرتي على دفع الإيجار، ولا أملك عربة».

«ألا يدفع زوجك لك نفقة؟».

«حسناً، من المفروض أن يدفع وفق القانون، وبمقدوره بالتأكيد فعل ذلك، لكن لم يكن بوسعي مقاضاته في المحكمة وإرغامه على مساعدتي، آخذة بعين الاعتبار الوقت البائس الذي سببته له».

لم أكن ميالاً لمناقضتها. حل وقت الوداع، لكن قبل أن يتسنى لي طرح موضوع فراقنا، وضعت ذراعها في ذراعي بإيماءة ثقة «لنذهب نتمشى أندراش».

هل فكرت أني خططت للاستمرار في مقابلتها؟ حين كنا في المصعد، جذبت رأسي لرأسها وهمست «أتعلم، لقد استمتعت بذلك على طريقتي الصغيرة. جعلتني أشعر أنني امرأة حقيقية». كانت تلك أفضل حجج باولا لإقناعي بالنظرة الرواقية الرزينة

للحياة. عوض الشعور بالأسى على نفسي، بدأت أشعر بالشفقة عليها.

غير أني حضرت في موعدنا التالي أساساً لأني تلقيت رسالة من أسقف جامعة بادو أخبرني فيها أن الجامعات الإيطالية عموماً تشترط من المتطلبات في الفلسفة المسيحية أكثر مما في حوزتي، وأنهم لا يملكون في الوقت الحالي دعماً كافياً لمنحي بعثة دراسية، في غضون ذلك ينبغي أن أتقن اللغة الإيطالية وأكمل رسالتي لنيل الدكتوراه، وربما علي التقدم لمؤسسات المساعدة الأمريكية. كما نصحني الأسقف أيضاً، حيث أنني أتكلم الألمانية والإنجليزية وتقصي معلومات عن الجامعات في ألمانيا الغربية والبلدان الناطقة بالإنجليزية. بدا أن ليس هناك فائدة من الجامعات الإيطالية للسيد أندراش فايدا بشهادته من جامعة بودابست.

وأنا أقرأ وأعيد قراءة الرسالة، تملكتني رغبة مباغتة لسماع باولا تخبرني أن ليس هناك ما يستدعي التذمر، وأن هناك جياعاً على شفا حفرة من الموت في صقلية. علاوة، رحت أتساءل عن حقيقة أنها في كل سنوات عمرها الست والثلاثين، لم ينجح رجل في ولوج داخلها. ماذا لو استطعت إحداث كل هذه الفروق؟ في بودابست، ما كنت لأفكر بمثل هذا الطموح، ففي الوقت الذي تعافيت فيه من حبي اليائس لإلونا، تعلمت أن هناك معوقات أكثر أهمية للتغلب عليها في هذا العالم من امرأة صعبة. وحين رحت آخذ دراستي بمحمل الجد أكثر، أرضيت غروري بأني سأصبح مدرساً جيداً، ومن الممكن كاتباً لبضع مقالات فلسفية مهمة. كما تاقت رجولتي للإثارة، حيث أن بوليس الأمن قد تكفل بالمشاكل والخطر. كل ما أردته من النساء اللاتي أحببتهن كثيراً، عاطفة

صادقة. صرت أتجنب من كان سلوكهن يشي بالتعقيدات. لكن في روما حيث أقيم وأطعم وأشعر بالملل، ووصلت إلى حالة الشك وانعدام معنى الحياة الخاصة بمهاجر غير مستقر، قدمت باولا لي سعادة التحدي الدائم.

أصبحنا نقضي معظم أمسياتنا معاً ـ أحياناً الليل، في شقة باولا. المكوث معها كان مثل العيش فوق منصة عالية. الجو صاف لكنه أرق، وعلى المرء أن يبطئ من رد فعله، يتنفس بخفة، أن يكون بارد الأعصاب، حذراً ويتجنب الإثارة. كان الحديث، لأسباب بديهية، عاملاً في غاية الأهمية في علاقتنا.

حين كنا مرة في الفراش وأردت أن أجرب طريقة وجدتها غريبة، وثبت باولا من الفراش وعادت تحمل كومة من كتب سارتر. «كنت أفكر أنك لابد وأن تكون محبطاً لأنك لا تفعل شيئاً هنا. ينبغي أن تعمل على شيء ما. أتعلم، ليس هناك من سبب يمنع كتابتك لرسالتك الجامعية، بذريعة أنك لا تدري أين ستقدمها. يمكنني مساعدتك بالحصول على الصحف والمجلات التي تحتاجها» قالت. كان من المستحيل عدم رؤية أن باولا جلبت لي الكتب لتتجنب صراعاً في الفراش، لكن لم يقلل هذا من أهمية اقتراحها. قضينا ما تبقى من الأمسية نتصفح الكتب متأملين، وفي اليوم التالي شرعت في أخذ ملاحظات حول نظرية سارتر في الخداع الذاتي المتعلق بالجسد كما ورد في مجمل فلسفته، منحتني عليه جامعة تورنتو شهادة دكتوراه بعد ثلاث سنوات. نشرت الدراسة في العدد الثاني من مجلة «الفلسفة الكندية» (المجلد الأول، العدد الثاني ص ٧٢ ـ ١٥٨) وكانت ما وفر لي المركز الذي أتبوأه في مهنتي مهما كان. على أي حال، شكراً لأسلوب باولا في

تجنب أهم مشاكلنا الشخصية، الذي جعلني أنغمس في شيء يمتعني صنعه وأظنه نافعاً ـ أمر كان له أثراً عظيماً في استقرار أعصابي. لم تعد الكوابيس تنتابني، وبدأت أنسجم في العالم ثانية.

مع ذلك، تبددت حدة حالتي الروحية الجيدة بعد حين، فلم أعد متشوقاً لا للجنس ولا للصحبة، تعاظم توقي إلى ما لم توفره باولا، وبدأت أفقد الأمل في تغييرها. في البدء كنا نترك ضوء حجرة نومها مضاءً، غير أننا تعودنا تدريجياً على إطفائه قبل أن نلمس بعضنا بعضاً. شعرت بالتملق لانفعالاتها العنيفة وتنهداتها. أرادت، حين هامت بي، أن تريني أني أمتعها على طريقتها الخاصة، لكن ذريعتها كانت مجرد تذكير دائم بأنها تقضي وقتاً عديم الأهمية وستصل إلى مأزق التظاهر بذلك. كنت مدركاً بمرارة كوني متعة طفيلية، عباً جنسياً خيارياً. كل ذلك جعل رحمها العنيد، نبع ورطتنا صنوبري الرائحة، يستحوذ علي. حاولت مراراً تقبيله، لكنها كانت تصدني. إذا جادلت، تنتابها الكآبة.

«كنت سعيدة يوم كنت عذراء» شكت مرة بمرارة «ثم كان كافياً أني فتاة جميلة ذكية لطيفة. منذ ذلك الحين، كانت القصة دوماً نفسها. يا لها من امرأة مثيرة، لنضاجعها. وعندما تستسلم أخيراً، مشمئزة حتى الموت من إزعاجها، كم هي مخيبة للآمال! أتمنى لو كنت قبيحة، عندها سيتركني الجميع في حالي ولا يتوجب علي الاستماع إلى الشكاوى».

«من يشكو؟ لا تتكلمي هراء!».

«أردت طعاماً معلباً، أتذكر؟»

مارسنا الحب بعد ذلك بالطريقة العادية، متظاهرين بالمتعة من

الانسجام. أصبح سريرنا مبتلاً بعرق الندم، ولم يكن هناك ما بوسعنا فعله إزاء ذلك. في البدء حسبت أنها سترحب بمحاولاتي توفير المتعة لها، لكنها اعتبرت ذلك كاعتراف أرفعه ضدها أن ليس بمقدورها إمتاع نفسها. حاولت بطبيعة الحال إقناعها أن هناك في الجنس أكثر من المتعة ـ أكثر بكثير، بالفعل! ـ وأنه من السهل والحماقة جعل بلوغ الذروة ولعاً. وافقت. لكن مهما أقر المجتمع كمبدأ جيد، أصبح أيضاً فريضة أخلاقية (أكان ذلك جوع الروح أو الجسد) ولا يمكننا عدم إحرازه إلا بتعريض ضمائرنا للخطر.

لم يكن بوسع باولا عدم الشعور بالذنب لبرودتها أكثر مما كانت ستشعر بأنها على صواب في ممارسة الحب وفق نظرة العصور الوسطى. في الواقع، تمنيت أحياناً لو أننا عدنا إلى القرن الثاني عشر، حيث كان بإمكان برودتها أن تجعلها فخورة بفضيلتها وأنها قد كانت ستشعر بالخطيئة بسبب ملذات الجسد فقط، بينما الآن حكم عليها أن تحس بالذنب لإحباطها المؤلم، ولم يكن بوسعي أيضاً عدم مشاركتها الشعور بالذنب. لو كانت أصغر سناً وغير مقتنع أن محنتها ليس خطأ عشيقها، لانتهينا إلى خنق بعضنا بعضاً (حتى بين النساء الباردات أفضل الأكبر سناً) ورغم أنني لست السبب إلا أنني لا زلت عاملاً إضافياً في معاناتها، ومحاولاتي التخفيف منها جعلتها أسوأ. من ناحية أخرى، تجاهل الإثارة اليائسة وخيبات أمل جسدها كانت تعني إنكار حتى ارتباط التعاطف الأولي بيننا. كنا ضائعين في صحراء المستحيلات. قالت باولا إني أشعرتها أنها مثل امرأة حقيقية لرغبتي واستمتاعي بها، كانت في بعض الأوقات الأم المباركة لمتعتي. غير أن العشيقة لم تقدر على تحمل التوقعات الخامدة التي لم تشتعل أبداً، إلا حالة

اليائس الحذر. من الممكن أن تكون هناك مشاكل جنسية قليلة لو أنها كلها نسبت إلى الكوابح، مع ذلك اعتبرت رفض باولا قبول أي مداعبات أولية غير مألوفة بسبب التواضع أمراً مؤكداً. مع ذلك، لم تبد مقاومتها العنيفة خجلاً بل خوفاً. ظهر ذلك في عيونها الزرق وكسا جسدها الأبيض الطويل ـ الخوف من الآمال الكاذبة والهزائم الأكثر عمقاً.

كانت مجرد نظرة عاطفية تضع باولا في حالة من التأهب الحذر، أرعبها التمادي مع نفسها، أو بالأحرى نسيان أنها لا يمكن أن تكون غير ذلك. جلسنا في أمسية معتدلة الجو من شهر مارس على حافة رصيف مقهى نطالع انسياب النساء الرائعات. بدت باولا مرتاحة بشوشة، فرحت أرمقها بنظرات من يريد أن يوقع بامرأة غريبة. رفعت حاجبيها وأدارت وجهها جانباً «مصيبتك أنك تحب نفسك حباً جماً».

«كيف يمكن للمرء أن يحب شخصاً آخر، إن لم يحب نفسه؟»

«لماذا علي أن أحب نفسي؟» سألت بموضوعيتها العفوية المحبطة. «لماذا علينا أن نحب أي كان؟».

كان من الممكن أن نتعامل مع انعدام إشباعها الجسدي، لكن النتائج الماورائية كانت تشق فجوة بيننا. وجعلت توقعي المتفائل صعباً ـ في الواقع مستحيلاً ولمدة طويلة ـ لاختبار طريقة سهلة لتحريرنا من لسعة منشفة زوجها المبلولة.

في ساعة متأخرة من صبيحة يوم سبت، أيقظتني حرارة الجو. كانت الشمس تسطع في عيني عبر إطار النافذة المنحني والستائر البيضاء الشفافة، لابد أن الحرارة داخل الحجرة بلغت التسعين

درجة. كنا خلال الليل قد ألقينا بالأغطية أرضاً، وباولا مستلقية على ظهرها، ساقاها مرفوعان وتتنفس دون صوت. لم نكن قط تحت رحمة جسدينا، في قبضة خلايانا غير الواعية أكثر كما كنا عليه ونحن نيام. ونبض قلبي مرتفع، قررت أن هذه هي اللحظة التي إما أن تجمعنا أو تفرقنا. ببطء فرقت ساقيها: لص يفتح الأغصان ليتسلل إلى حديقة. خلف خصلة العشب الشقراء، كنت أرى برعمها القرنفلي الداكن، وتويجيه الطويلين المتفتحين قليلاً، كما لو أنهما أحسا بالحرارة أيضاً. كانا جميلين جداً، وبدأت أشم وألعقهما بجشع قديم. سرعان ما أصبح التويجان أنعم وبوسعي تذوق رذاذ الترحيب، رغم أن الجسد بقي عديم الحركة. لابد أن باولا قد استيقظت آنذاك، لكنها تظاهرت بعدم ذلك. بقيت في تلك الحالة الحالمة التي حاولنا فيها أن الهرب من مسؤولية ما يحدث، بالتنصل من النصر والهزيمة مسبقاً. ربما بعد عشر دقائق أو نصف ساعة (تحلل الزمن في رائحة الصنوبر) بدأ بطن باولا يتقلص ويرتخي، يهتز حتى أطلقت لنا أخيراً نشوتها، تلك النتيجة التي لا يمكن حتى للعشاق العابرين عدم الحصول عليها. حين فاض كوبها سحبتني من ذراعي. صار بوسعي على الأقل ولوجها بضمير مرتاح.

«تبدو معتداً بنفسك» كانت أول كلماتها حين ركزت عينيها الزرقاوين الناقدتين ثانية.

كان لنا صديق مشترك. رسام هنغاري إيطالي، السيد بيهاري، رجل طويل رياضي الهيئة في الستين من عمره، يرتدي دوماً وشاحاً عريض الربطة على تصميمه الخاص، ويؤكد للجميع أن غايته الكبرى في الحياة أن يبقى شاباً مثل بيكاسو. كان قد بدأ حياته

كمراسل في بودابست، لكن صحيفته أرسلته إلى باريس في مهمة تستغرق أسبوعين العام ١٩٢٤، ولم يعد إلى هنغاريا منذ ذلك اليوم. كانت زوجته سيدة فرنسية يصحبها معه إلى البيرغو باليسترازا حتى يمكنها على الأقل سماع الهنغارية وصوت لغة زوجها الأم. كانت تقف بجواره ذاهلة وهو يتكلم مع المهاجرين. لم يكن السيد بيهاري يعرف باولا فقط، بل صديقها المحرر، هكذا عرفت أنها انفصلت عنه وأخبرته أنها تحب مهاجراً هنغارياً شاباً.

أعدت ذلك القول على باولا، متعجباً إن كانت ستقر بهذا الاعتراف العاطفي.

«لا تصدق ذلك. كل ما أردته الانفصال عن الرجل بسلام، ولا يمكنك التخلص من شخص إذا أخبرته الحقيقة.» قالت باولا.

«وما هي الحقيقة؟»

كنا في المطبخ وهي تطهو لنا العشاء مرتدية صدريتها وتنورة خفيفة، حيث أن الصيف كان قد حل. كنت جالساً قرب طاولة المطبخ أشم رائحة الطعام اللذيذ وأراقبها تتحرك في المطبخ مثيرة كل أنواع الشهية. «حسناً» قالت وكل تركيزها على أواني الطهي والقلي «الحقيقة أني سأترك العمل في غضون عشر سنوات أو ما يقارب ذلك لأتقاعد في بيتنا العتيق في رافينا. ربما سيكون والدي قد توفيا، سأعيش مع خادمة عجوز. أظن أن خشمينا سيصبحان مستدقي الطرف أكثر كل شتاء».

«ربما سأصبح مدرساً في رافينا»

«هناك عدد كاف من مدرسي الفلسفة في إيطاليا لملئ

الأدرياتيكي. ستهاجر إلى بلد آخر إن آجلاً أم عاجلاً. هذا ليس سيئاً، لأنه سيوفر علي تجربة غير مسرة حين تشعر بالملل مني».

بدت نبوأتها بشعوري بالملل منها غير واردة. أصبح التوتر الآن بيننا أقل من أكثر النساء اللاتي عرفتهن، وكانت سعادتنا المريحة تذكرني بالأوقات السيئة التي خبرتها مع كل العشيقات الأخريات. تذكرت الأوقات العصبية التي كنت أعيد فيها السنوات التاريخية حين نمارس الحب حتى لا أمتع نفسي كثيراً وسريعاً من أجل راحة عشيقتي. مع باولا، لم يكن هناك من سبب لتنظيم رد فعلي. كانت تتقبله مرتعشة منسابة، مما يجعلها شهية أكثر كل مرة. انسجمنا معاً بشكل ممتاز، وكنا في غاية السعادة.

لكنني فشلت في الحصول على وظيفة، والبيرغو باليسترازا كان على وشك العودة لنظام الدفع مع بداية أغسطس. إذا ذهبت للعيش مع باولا، عليها أن تدعمني لمدة طويلة. لذا كانت محقة حول مغادرتي إيطاليا. كان عند السيد بيهاري صديقاً في السفارة الكندية له أصدقاء في تورنتو وعدوه بتوفير وظيفة لي في الجامعة هناك، ولم أملك الشجاعة الكافية لرفض ذلك.

في ١٦ أغسطس رافقتني باولا إلى المطار. كنا نهتز في المقعد الخلفي لعربة أجرة قديمة، ولأني كنت كئيباً صامتاً مست شعري بيدها.

«ليس الأمر أنك آسف على الرحيل» قالت متهمة «بل إنك خائف من الذهاب إلى كندا».

«كلاهما» قلت مقراً، وأجهشت بالبكاء مما جعل فراق حبيبة غير عاطفية أسهل، على ما أعتقد.

بعد الوداع على بوابة المدرج، استدارت باولا للمغادرة، ثم عادت لتحضنني ثانية.

«لا تقلق أندراش» قالت مقتبسة ملحتنا الخاصة بابتسامة جادة «كل الطرق تؤدي إلى روما».

في النساء البالغات كمراهقات

جنس على القمر

نورمان ميللر

ثمة وحدة جديدة في العالم المعاصر: وحدة السرعة. من السهل الإقلاع بطائرة والذهاب إلى مكان لا تعرف فيه أحداً. ليس لي أقارب في آن أربور: الذين أعرفهم في لندن، فرانكفورت، ميلان، باريس، ليون وسيدني استراليا. أخت والدي العمة أليس، سيدة كبيرة الآن تزرع الفراولة قرب فريبورغ. قريبة أخرى لي ذهبت إلى برشلونة حيث تزوجت مهندساً إسبانياً هاجرت وإياه إلى كاراكاس. عندي نصف ابنة عم أمريكية سوداء هي أو كانت آخر مرة سمعت عنها أمينة متحف في كليفلاند. أحد أعمامي الذي عمل في برنامج الفضاء في كيب كندي تقاعد ويعيش في الحي الغربي من نيويورك. أنا شخصياً جئت من روما إلى تورنتو بشكل نهائي كما حسبت، وها ذا أنا في ميتشغان. أمريكي تقليدي من سكان البلدات الصغيرة، وكثيراً ما يشتاق إلى حياة المدينة الكبيرة ـ تورنتو.

لا زلت أذكر الأزيز في أذني وأنا أبتعد عن الطائرة فوق إسمنت قارة جديدة، شاعراً كأن دمي قد جف. أعطاني مسؤول بلباس رسمي ورقة زرقاء تحمل اسمي وتأكيداً على وضعي الجديد: مهاجر. كما قدم لي ورقة خمس دولارات، شارحاً أنها «نقود ترحيب» وأعطاني وصل استلام لأمضي عليه، ثم أشار بإشارة من يده أن بإمكاني الذهاب أينما شئت. كنت أود العودة إلى أوروبا، لكن حيث أني كنت أملك بطاقة سفر لرحلة واحدة وأقل من مئة دولار، بما في ذلك نقود الترحيب، سحبت حقائبي الثلاث خارج ممر المطار القذر. بعد لمحة للأراضي الشاسعة الخاوية القريبة، بحثت عن شجاعة من ظلي العملاق الذي صنعته الشمس أمامي على الأرض. إلى بعد بضعة أميال كانت هناك سحابة حاقدة من الدخان والضباب البني في السماء، مشيرة إلى وجود المدينة التي كنت سأعيش فيها.

كان سائق عربة الأجرة رجلاً ضخماً بوجه مربع مسطح وعيون كسولة لا يشجع على الحديث. لكني لم أكن أعرف غيره لذا أخبرته أني قد وصلت لتوي وأحتاج إلى حجرة رخيصة الأجرة في منطقة الجامعة. من حسن الحظ كان نمساوياً، وعندما علم أني قادم من هنغاريا وأعرف سالزبيرغ جيداً، أصبح ودوداً ووعد أن يدبر الأمر. مخاطباً مرآة الرؤية الخلفية لاحظ أني شاب بما فيه الكفاية لأكون ابنه، وحذرني أن ليس هناك مقاهٍ في تورنتو وينبغي علي أن أعثر على صديقة بأسرع وقت ممكن، لأن بنات الهوى مرتفعات الأجرة. ونحن متجهون صوب المدينة عبر طريق الملكة اليزابيث حيث يصطف شجر الحور على جانبي الطريق، وعلى طول ضفاف بحيرة أونتاريو، رحت أفكر أن الطبيعة كانت جميلة وليست شبيهة

بالريف المحيط ببحيرة بالاتون. لكن النمساوي أصر على أنها مأهولة بأناس مختلفي الأرواح عن من عرفتهم في بلادي.

«السكان إنسانيون مثل الناس في أي مكان آخر، لكنهم لا يقرون بذلك إلا إذا ثملوا. ثم يغشى عليهم ويسقطون على أرض العربة أو تأتيهم الفكرة الذكية لسرقتك. أحياناً أتمنى لو أني أقود عربة جياد في فيينا أيام فرانز جوزيف العجوز». توقف احتراماً لذكرى الإمبراطورية النمساوية ـ الهنغارية التي ليس من الممكن لكلينا تذكرها. أضاف «الكنديون يحبون المال أولاً، لا بأس في ذلك، ثم يأتي الشراب، التلفاز، الهوكي ومن ثم الطعام. الجنس يرد في آخر القائمة. عندما تمسك بفتاة ـ يمسك الكندي بشراب آخر. يعج المكان بالرجال السمان والنساء غير السعيدات.» كان بنفسه سميناً. قلت «آه، حسناً» أذعن بشؤم «عندما تعيش هنا سنوات طويلة مثلي، ستتغير أنت أيضاً».

أوقفنا العربة في شارع هورون ـ شارع ضيق مشجر فيه بيوت فكتورية بالية بأبراج وطوب قاتم الحمرة، حولت إلى بيوت سكنية ـ سرنا من باب لباب نسأل عن بيت للإيجار. وبخ النمساوي نصف دستة من صاحبات البيوت بقسوة لإفراطهن في سعر الأجرة، قبل أن ينصحني باستئجار غرفة تحت السطح مباشرة. كان سقفها منخفضاً مائلاً، بورق حائط منمق وأرضية مشمعة، لكني كنت أتوق للاستقرار في مكان ما ولو مؤقتاً. عدنا إلى العربة لجلب الحقائب، شكرته على لطفه المتعذر تعليله. «غداً، لن أقلق عليك» قال رافعاً راحتيه المفتوحتين للتأكيد «لا أقدر على إحباط رجل في يومه الأول في كندا. جئت إلى هنا وحيداً في العام ١٩٥١ في

منتصف الشتاء! لن تنسى اليوم الأول، صدقني. إنه الأسوأ» أخذ الأجرة لكنه رفض الإكرامية، وافترقنا بمصافحة حارة.

رأيته بعد ثلاث سنوات: كان قد ترك قيادة عربة الأجرة وفتح محل معجنات فيينا في شارع يونغي. لابد أنه كان موفقاً، لأني عندما رأيته آخر مرة أخبرني أنه قادم من عطلة في اليابان. مقابلته ثانية كرجل أعمال صغير ناجح ورحال في أرجاء العالم، وهو لا يزال سميناً مزاجياً بسبب غناه المفاجئ، عزز ذكراه كدليل روحي غامض لقارة المهاجرين هذه.

الأمور التي حذرني منها، التي لا أحبها اليوم مثل يوم وصولي - حفلات الشراب، الهوكي، التلفاز - هي سمات جلية للحياة في الولايات المتحدة كما في كندا، لكن الرغبة في منح الغريب فرصة هي كذلك أيضاً. شكراً لصديق السيد بيهاري في قنصلية روما، الذي قابلت عبره عدداً من المسؤولين الأكاديميين الذين أبدوا استعداداً لمساعدتي. وفروا لي وظيفة في مدرسة للبنين في السنة الأولى، ثم مدوا لي يد العون للحصول على وظيفة محاضر في جامعة تورنتو. بعد خمس سنوات في جامعة تورنتو قدمت إلى جامعة ميتشغان في آن أربور، حيث مكثت حتى اليوم - رغم أني أفكر في التقدم لمنصب في جامعة كولومبيا. أشك أنه من المستحيل لبعض الناس البقاء في مكان واحد للأبد، ما أن يتركوا مرابع طفولتهم، أو ربما أنه مهما مكثت في هذه القارة، لن أشعر قط أني في بلدي، ولهذا أريد التنقل. مع ذلك، أتمنى لو أني أعيش في بلدة حيث تسمى الشوارع على أسماء الرجال العظام عوض المجددين، رؤساء البلديات أو الأشجار.

لماذا لا نملك مدناً تحتفي بالعبقري في كل زاوية؟ كيف يمكن

أن يترعرع الأطفال ليصبحوا مواطنين متحضرين حين لا يتسابقون في شارع شكسبير؟ كيف يمكن للناس أن لا يتطلعون إلا للمال حيث لا يوجد في بيئتهم ما يذكرهم بالخالدين الذين خلقوا أشياء لا تفقد قيمتها؟ كتبت رسائل إلى رؤساء التحرير أقترح إعادة تسمية الشوارع التي تبدأ بحرف «م» إلى موليير، موزارت أو مارك توين. لكن كل هذا كان خارج نطاق هذه المذكرات، اللهم اقتراح أنه بعد كل هذه السنوات لا زلت غير متأقلم مع العالم الجديد، لابد أني كنت شخصاً بالغ الحيرة عندما قدمت من روما.

بدا أني قدمت في ذلك الحين، خاصة أول سنتين لي في تورنتو، من وراء الأطلسي لأفقد إيماني المعزز في النساء الأكبر سناً. وعلي أن أعترف، مجازفاً بإضعاف حجتي، أن السنين تترك على وجوه بعض النساء فقط آثارها وليس على عقولهن أو شخصياتهن. في الواقع، يبدو أن الفتيات الغبيات يصبحن أكثر تفاهة عند نضوجهن. يذوين في الغرور والجشع، مما ربما يعلل سبب تركهن لي أيام دراستي عندما كنت شاباً وفقيراً. في الحالات القليلة التي جذبت انتباههن في بودابست، عرفت كيف أتعرف عليهن وأهرب في الوقت المناسب. لكن معرفتي أن علي أن أحافظ على مسافة بعيداً عن النساء اللاتي يعبدن الرفيق ستالين أو موسيقى الغجر، كانت حماية واهية ضد الشخصيات غريبة الأطوار المشابهة في أمريكا الشمالية. لقد استغرقت وقتاً لأدرك أن علي الابتعاد عن النساء اللاتي يخفضن نظرهن باحترام خجل عند ذكر شركة بيل للهواتف، اللاتي يشاهدن التلفاز ساعات كل يوم، اللاتي يدندن ألحان مساحيق التنظيف، اللاتي يقبّلن وعيونهن مفتوحة ويفتخرن كونهن عمليات. كثيراً ما تكون مثل تلك النساء

خطيرات ودوماً موجعات، ولا زلت أمتعض لسوء طالعي عند مقابلة إحداهن في اليوم الثاني لوصولي العالم الجديد، في وقت كان قليل كاف لإحباطي في محيطي الجديد الغريب.

ظهرت، على نحو ملائم، أمام خلفية من المجلات السينمائية، دليل التلفاز، الحليب المخفوق، معاجين الأسنان، الأدوية، آلات التصوير، المقصات، الكلينكس، وعديد من المواد المخفضة الأثمان في صيدلية في شارع بلور، الذي يبعد نصف صف من البيوت عن مكان إقامتي. كنت أذهب هناك لتناول عشاء مبكر، متجنباً مغامرة التوغل في المدينة أكثر مما ينبغي. كنت قد انتهيت من تناول وجبتي وأشرب كوباً من الحليب عندما انتبهت أنها تبتسم لي. لا أعتقد أني كنت بحاجة إلى ابتسامة أو نظرة أكثر من تلك اللحظة. شاعراً بالوحدة في كوكب غريب، حيث لا أعرف أحداً، سواء كان رجل أو امرأة، بإمكاني التحدث معه، ومرتعباً إلى أقصى الحدود من توقع عودتي إلى حجرتي الحقيرة، عدت فجأة إلى الأرض إلى أشعة الشمس. كانت في الخامسة والثلاثين تقريباً، لها شعر قصير مجعد أسمر محمر، فم مكتنز وقوام ريان لكنه جيد، وكانت تبتسم وتنظر في عيني مباشرة، غير مخفية إعجابها بي. لم أعد أشعر بأني على بعد آلاف الأميال من بلدي.

عندما نهضت لأدفع الحساب خطت خارج المحل وتلكأت أمام الباب وهي ترمقني من خلال الزجاج. تمنيت أنها مطلقة وحيدة بحاجة ماسة لعشيق مثلي، ورأيت أنفسنا ملتفين حول بعضنا في الليل. عندما غادرت الصيدلية كانت مجرد خطوات أمامي. «سامحيني للحديث معك دون تقديم» قلت حين صرت بمحاذاتها «لكني أود أن أتعرف عليك».

«اغرب عن وجهي» قالت آمرة بصوت ملؤه الغضب، وراحت تسير بخطوات أسرع.

مخبولاً بالوحدة أكثر من الشهوة، داومت السير معها. «اسمي أندراش، ما اسمك؟» قلت.

«اتركني في حالي وإلا سأستدعي البوليس».

سمعتها سيدة عجوز مارة، فرمقتني بنظرة بغيضة. توقفت برهة ثم تذكرت الطريقة التي ابتسمت فيها لي في الصيدلية، أسرعت في إثرها، لأهدد ثانية.

«إذا داومت على إزعاجي، سأصرخ طالبة النجدة. من أنت، مغتصب؟»

استسلمت وراقبتها تسير بعيداً. نظرت للخلف مرتين لترى إن كنت أتبعها، وفي المرة الثانية التفتت ضاحكة.

تملكني الغضب. لم تكن سخريتها مني شيئاً كثيراً، بل كونها لا تملك سبباً مقنعاً لفعل ذلك، سوى خبث مجهول بحت. عرفت فتيات شابات يسلين أنفسهن بالتحريض السادي، لكن امرأة لا يمكن أن يقل عمرها يوماً واحداً عن الخامسة والثلاثين تتصرف كفتاة مراهقة محبطة كان تجربة جديدة. أنا مؤمن بالخرافات المتعلقة بالطالع السيئ، لذا ملأني الحادث بنذير شؤم حول النساء الكنديات.

كانت بعض اللواتي نجحت في أخذهن إلى الفراش أكثر غرابة. فتحت موظفة مكتبة في الثانية والثلاثين من عمرها لي ساقيها بعد أقل من نصف ساعة من تعارفنا في حفلة، واقترحت الزواج في غضون ساعة. ثم قدمت لي محاضرة عن مسؤولياتي كزوجها

المستقبلي. كان من واجبي أن أؤمن لها الراحة في حياتي - وبعد مماتي - أي أن أعمل تأمين على الحياة. في أقل من ساعتين كانت تلك المخلوقة مستعدة للاقتران بي ودفني. لم تكن لتتركني إلا بعد أن شرحت لها أني قادم من قبيلة تدفن فيها الأرملة مع زوجها الميت.

كنت في تلك الأيام أطيل التفكير حول العلاقة المجدبة بين الجنسين، المسافة التي بدا أنها توجد بين معظم المتزوجين. فكرت أن ذلك بسبب عدم وجود مغسلة أرضية في المراحيض. «لو تقابلنا هنا» كتبت لباولا «لما كنت سمحت لي بالاقتراب منك».

قضيت وقتاً طويلاً في كتابة الرسائل، معظمها لأمي وباولا، وردودهن كانت أفضل رفقتي.

كانت علاقاتي العاطفية القصيرة غير المسرة وإن كانت رحيمة في تورنتو مقدمات للقائي مع آن، امرأة غير عقلانية قاسية كان لها تأثير قوي على حياتي - كما لو أنها تثبت أن أفضل أسلوب لتعليم الرجل يكمن في جعله يعاني. كانت لنا علاقتان فاشلتان، تفصل بينهما سنوات، تلقي ضوءاً ساطعاً على شخصيتها، رغم أن عبقريتها في التنافر لم تتأثر. قابلتها أول مرة في مؤتمر بحيرة كوشيشنغ، الذي حضرته ذاك الصيف لأتعرف على بعض زملائي المستقبليين في الجامعة.

كوشيشنغ واحدة من آلاف البحيرات التي لا تزال تضفي على مناطق أنتاريو الشمالية غير الصناعية الجمال والطابع البري، رغم الاجتياح السنوي للعربات من المدن. على بقعة شاسعة تقع على إحدى الضفاف، المحاطة بالغابات الكثيفة، يوجد مخيم الشبيبة المسيحية الذي يتحول كل صيف إلى مقر مؤتمر يدوم عشرة أيام

يناقش القضايا الكبيرة المتعلقة بالبلاد والعالم. من شواطئ الأطلسي والهادي، يجتمع ثلاثة أو أربعة مئة كندي في كوشيشنغ: أساتذة جامعيون، صحفيون، مدرسو مدارس ثانوية، معلقو تلفاز، أمناء مكتبات، ربات البيوت النشطات في القضايا التي تهم المجتمع، وحتى اثنان من السياسيين الغربيين - باختصار، كل من يهتم ويقضي معظم حياته في الداخل. تتمتع مثل هذه المؤتمرات الصيفية قرب الماء، الأشجار والسماء المكشوفة بشعبية بين المثقفين الأمريكيين، وهو محقون في ذلك، لأن نقاش توازن الرعب، الحركة الأتوماتيكية والتفجر السكاني، أكثر فائدة عندما يجري والناس يرتدون السراويل القصيرة في الهواء الطلق عوض الأطقم الرزينة وقاعات المحاضرات الفاسدة الهواء. علاوة، لا يتوجب على المرء حضور كل الخطابات أو المناقشات. من الممكن السباحة في البحيرة، الاستلقاء على جانب البحيرة في الشمس، أو مجرد السير حافي القدمين فوق العشب اللذيذ وخزه. يمكن للناس الذين عليهم تحمل عبء التصرف السليم المحترم أحد عشر شهراً في السنة أن يبصقوا على الأرض، يصيحون لسماع أصواتهم وانتظار رجع صداها، يهرشون بطونهم في العلن - بينما يملك الأزواج والزوجات خياراً إضافياً لتخليص رئاتهم من هواء حجر النوم النتن. يجتمع، بطبيعة الحال، من ليس عندهم ما يفعلونه في قاعات المؤتمر، لكن وفق حساباتي الشخصية (التي ليست دقيقة بالضرورة) نصف دستة من عمليات الزنا ترتكب أثناء مناقشة أحد وجوه مسألة عالمية.

مع ذلك قد يكون من الخطأ الادعاء بوجود حيوية غير عادية ومجتمع مصقول من المثقفين الكنديين. أسكنت مع خمسة من

العزاب الآخرين، حيث كانوا في كثير من الليالي يجتمعون في النزل لاحتساء الشراب. كانوا جميعاً من خريجي الجامعات، اثنان من حملة الدكتوراه، مع ذلك، في حين كانت الغابة وضفاف البحيرة تعج بالفتيات الهائمات والزوجات الوحيدات، اختار هؤلاء الذي من المفترض أنهم مثقفون، أذكياء وأصحاء الجلوس في أسرتهم قابضين على زجاجة شراب ويتبادلون النكات البذيئة التافهة، كما لو كانوا مساجين. وجدت منظر هؤلاء الشباب الذين يضيعون مثل هذه الفرص الرائعة، غير قابلة للتصديق بتاتاً. عندما تركتهم لأجرب حظي في الظلام، ضحكوا علي، معلقين بازدراء محبب «الممتنع عن الشراب الأبله».

كان هناك صحفي يدعى جاي ماكدونالد يغطي المناقشات لصالح إحدى الصحف اليومية الكبيرة، رغم أن وظيفته العادية كانت كتابة عمود دون تعليق. كان قصيراً، نحيلاً منحني الساقين، شعره خفيفاً وأنفه كبيراً لوحته الشمس، ويلبس نظارة بإطار معدني قديم الطراز، مما يضفي نوعاً من انسجام وقور على بساطته. لكن زوجته كانت امرأة جميلة، من ذاك النوع من الجمال الإنجليزي المتألق، حيث يوحّد شعرها وبشرتها ما بين الشعر الأشقر والأحمر، ألوان كلها ناعمة بتموجات تطفح بالتوترات. جلبا معهما ابنتيهما اللتين من سوء الحظ ورثتا شكل والدهما. أخبرتني البنت الكبرى أن عمرها تسع سنوات ونصف، لذا لابد أن والديها تزوجا منذ ما لا يقل عن عشر سنوات، لكن جاي ماكدونالد كان لا يزال شغوفاً برضا زوجته ويحول الحديث دوماً إليها إن كانت حاضرة. وهي بدورها تصغي إليه بتعبير كأنه يقول «أنا أذكى من زوجي».

في صبيحة أحد الأيام كنا جالسين معاً على حافة رصيف البحيرة، ظهورنا للشمس وأقدامنا في الماء، أخبرني أنه ولد في أتووا في حين جاءت آن من فيكتوريا ـ كولومبيا البريطانية ـ أدهشني لقاؤهما وزواجهما رغم بون المسافة بين المكانين اللذين ولدا فيهما واعتبرته أمراً غريباً ورائعاً.

«أتدري» قال ملتفتاً لامساً ركبة زوجته، وهو يمد ذراعه بإيماءة طويلة كما لو كان يمدها عبر آلاف الأميال، فوق الغابات، البراري، الجبال والبحيرات «آن من الساحل الغربي ـ ترعرعت في فيكتوريا». كان تجاوب آن مع ملاحظته ولمسته تنهد شهيدة، ليست بديهية بفجاجة، بل يسيرة الفهم.

«ليس من العدل ولن أسامح جاي كون الفتاتان ورثتا شكله» أخبرتني مرة عندما وجدتها وحيدة على رصيف البحيرة وهي تراقبهما تلعبان في الماء.

في وقت متأخر من ليلة، وأنا أتلمس طريقي في المخيم المعتم في طريقي لمقابلة فتاة، مررت بقمرة ماكدونالد. كانت آن تجلس على العتبة، فنادت كخفير «من هناك؟».

«مرحباً، إنه أندراش فايدا».

«إلى أين أنت ذاهب؟».

كان تعكير صفو صمت الظلام يثير أعصابي، لذا سرت صوبها. «أنا ذاهب لمقابلة شخص ما».

«أمر جيد» قالت بامتعاض «أنا لن أقابل أحداً. الفتاتان نائمتان وجاي يلعب البريدج في مكان ما. ليس عندي ما أفعله سوى الجلوس هنا وعدّ النجوم».

«لا ينبغي أن تقلقي على الأطفال في مكان كهذا ـ لم لا تذهبي وتلتحقي به؟» «لماذا علي فعل ذلك؟ أنا مسرورة لأني وحيدة على سبيل التغيير» كان صوتها عدائياً، كما لو أنها تريد التخلص مني أيضاً. لكنها أضافت برعشة لجوج بدت مثل اعتراف متيسر «لم لا تجلس؟ يمكننا مشاهدة النجوم معاً» لم أعرف امرأة يتغير مزاجها على نحو مفاجئ: كانت تتكلم بنبرات مختلفة تماماً في الجملة نفسها. حتى على رصيف البحيرة، خلال أكثر من حديث عفوي، كان صوت آن دائم الخفقان مثل راية معاكسة لاتجاه الريح، كما لو أن روحها كانت في قبضة عاصفة ضارية.

ما كادت أن تغريني بالجلوس بجانبها حتى نبهتني للفضيلة العظمى.» لا أدعو الرجال أبعد من عتبة بيتي» قالت بمغزى «لذا لا تفكر بأفكار خاطئة».

«تسرني صحبتك، لكني متأخر».

«حسناً إذن ساعدني على النهوض. جلست هنا وقتاً طويلاً، فأصاب الخدر ساقي».

رفعت آن على قدميها، شدتني إليها، فوضعت يدي بقوة على ردفيها. كان بوسعي الإحساس بهما عبر التنورة الصيفية الرقيقة، ولم أقدر على المقاومة، رغم علمي بوجود فتاة لطيفة ذكية في انتظاري، بإمكاني قضاء أمسية ألطف معها من ربة بيت غريبة الأطوار. كانت إذعاناً إلزامياً للحس المباشر. ما أن تلامست بشرتانا في الظلام، ممتلئاً برائحة البحيرة الواهن لكن الفاتن، اشتهيت آن كما لم ألمس امرأة في حياتي. سحبتها بعيداً عن القمرة بحثاً عن قطعة حشيش ناعمة محمية بالشجيرات، في البدء قهقهت بمتعة خلفي، ثم توقفت قليلاً وراحت تشد نفسها في الاتجاه المعاكس.

«انتظر، أندراش» قالت بتعاسة.

«لماذا، ما الخطب؟».

«لا أدري أظن أني أحب زوجي بطريقة ما».

«لا سمح الله لي بإفساد زواجاً سعيداً» قلت تاركاً يدها بسرعة. منذ تلك الليلة المشهودة مع تلك العذراء المحمية أكثر مما يجب، ميسي، أصبحت أتمتع بمناعة ضد التحريض.

«ليس لأني أحب زوجي كثيراً» أضافت بتعاسة أعظم «لكني لم أخنه يوماً».

«إذن لا ينبغي عليك البداية الآن».

«ليس هذا الأسلوب الذي من المفترض عليك أن تتكلم به» اعترضت بسخط حقيقي. «من المفترض أن تغويني».

«إذا أردت إقناعاً، صدقيني، الأمر لا يستحق ذلك».

«حسبت أنكم معشر الأوروبيين من المفترض أن تكونوا أبطالاً في حرب الجنسين!».

«أنا مسالم».

وهكذا تبددت أي مشاعر يمكن أن نشعر بها في الحديث، ولم تكن لتستلقي على العشب إلا بعد أن شعرنا بالملل والتعب من بعضنا بعضاً. كانت عذاباً طويلاً من أجل متعة قصيرة. ما كدت أن ألجها حتى سمعنا صوت جاي ماكدونالد في البعيد.

«آن ـ آن؟ هل أنت في الجوار؟ آن؟»

حاولت الاستمرار متأكداً أنه لن يجدنا، لكن آن دفعتني عنها بعيداً بقوة نمرة. وقفت، أصلحت من هندامها والتفتت إلي بريبة،

فرفعت خصلة أو اثنتين من شعرها. حين اتجهت نحو الدرب، سائرة بعفوية متعمدة، نادت بصوت ساكن: «أنا آتية. ذهبت في مشوار فقط».

انتظرت حتى اختفيا في داخل قمرتهما، من ثم ركضت متأملاً أن تكون الفتاة التي واعدتها لا تزال في الانتظار. لكنها لم تكن هناك.

في صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى قاعة المؤتمر واستمعت إلى محاضرتين كئيبتين حول اليوم الذي لن ينبغي على الناس العمل لكسب رزقهم وسيكرسون كل وقتهم للنشاطات الترفيهية. عندما عدت إلى قمرة العزاب الخاصة بنا بعد الغداء، قابلني زملائي بوجوه تعلوها نظرات شزراء. كانت السيدة ماكدونالد تبحث عني.

«الآن نعرف أين تقضي أمسياتك!» قال محاضر العلوم السياسية الطويل المخنث. «إنها جميلة» بعد وقفة درامية أضاف «كانت متلهفة في العثور عليك، أراهن على زجاجة ويسكي أنها قررت ترك زوجها والإقامة معك».

كانوا لا يزالون يضحكون على نكاتهم عندما مرت آن من أمام قمرتنا، من الواضح ليس للمرة الأولى، وأدارت رأسها في اتجاه الباب المفتوح. اندفعت لأقودها بعيداً. لقد اعتبرت وبشكل مضمون أن تواصلنا غير الممتع سينسى سريعاً من قبل كلانا ولم أتصور ما الذي تريده مني. كانت ترتدي ثوباً واسعاً عديم الشكل لا يظهر قوامها، وبدت متجهمة وإلى نحو ما رابطة الجأش. لذا لم يكن من المرجح أنها أرادت إصلاح ما ألمّ بعلاقتنا العاطفية المهشمة.

« علي التكلم معك، علي الحديث مع شخص ما. أشعر بالذنب الكبير» قالت.

«كلا» اعترضت بوهن «لماذا بحق السماء؟» سرنا بين البيوت، محاولين أن لا نبدو ظاهرين جداً للعيان.

«أفكر في إخبار جاي عما حدث. قد يغضب علي، لكني على الأقل أرضي ضميري. ليس بوسعي تحمل الشعور بالذنب».

«هل أنت متدينة؟»

«كلا، بالطبع لا. ربيت على كوني أنجليكانية، لكني تجاوزت ذلك».

«ما هي مشكلتك إذن؟ أنت لا تهتمين حقاً بجاي؟».

«لا أعتقد أن ذلك صحيحاً» قالت بعناد.

«فهمت، أنت لم تعودي تؤمنين بالخطيئة، لكن الأمر يزعجك رغم ذلك بسبب العادة». حاولت أن أكون وقحاً لمنعها من الاستسلام لسلطان مزاجها التراجيدي. لم يفلح ذلك. استمرت آن في القول إنها تشعر بالذنب.

«اسمعي، لم نمارس الحب حقاً. لم نكد نبدأ حتى نادى عليك زوجك»

انتشت آن مباشرة. «هذا صحيح!» قالت «ليس كما لو كنا قد وصلنا إلى نقطة أي شيء جدي». بدأت عيناها تلمعان بالبراءة، لم تكن ظريفة الآن، كانت جميلة. من الواضح أن ما كانت تبحث عنه ليس الخلاص بل الأهلية ـ لنقل ـ منفذ تقني.

«تقول إننا كنا نتعانق فقط، حقاً. نتعانق بشكل قوي قليلاً» أضافت وابتسمت لأمين سجل كبير السن عابراً.

كان علي الشعور بالراحة لقبولها كذبتي البيضاء غير الصادقة، لكني شعرت بالأذى. إنها المرة الأولى التي تمارس فيها معي امرأة الحب وتعتقد أنها لم تفعل ذلك ـ وفي الواقع سرّت لذلك !

«أتدري سأذهب للسباحة» غنت وهي تنطلق بعيداً «وداعاً»

لم يكن ذلك نهاية الحكاية. صارت السيدة ماكدونالد كالشبح بالنسبة لي في الحفلات، في المخيم وحين العودة إلى تورنتو. كلما كان الحديث يدور حول علاقات الزوجات غير الحاضرات، كانت تدعي بصوت مرتفع وباستقامة: «أنا لم أنم قط مع أي رجل سوى زوجي» ثم تنظر إلي بتحد كما لو كانت تتحداني أن أعارض مقولتها. تكرر ذلك حتى اقتنع الجميع أن بيننا علاقة، حتى زوجها أصبح ينظر إلي بعين شك.

لاستعادة سكوني الروحي (ولأتجنب الخطر المحدق لمواجهة غير مسرة مع جاي ماكدونالد) توقفت عن الذهاب إلى الأمكنة التي من المرجح أن تكون آن فيها، لكني صرت أحلم بها. كنت مرة في طائرة، فجأة وثبت آن من مقعدها وصاحت حتى علا صوتها على هدير محركات الطائرة «لم أمارس الحب قط إلا مع زوجي، ليس بشكل حقيقي» عندها وقف كل المسافرين وراحوا يرفعون قبضاتهم في وجهي. في ليلة أخرى، كنت أقدم محاضرة عندما دخلت حجرة الدرس ترتدي لباس السباحة القرنفلي ذي القطعتين الذي كانت تلبسه في كوشيشنغ وصاحت في طلابي «أريدكم أن تعلموا أني لم أمارس الحب مع أستاذكم فايدا» استيقظت وأنا أتصبب عرق الإحراج.

في أكثر مما يجب

تحرم المتعة الإنسان من قدراته بقدر ما تحرمه من الألم

أفلاطون

أظن أن سبع سنوات من المحاضرات جعلتني عرضة لفكرة أني أملك شيئاً لتعليمه: لم يبد هناك أي تفسير آخر لانغماسي في هذه الذكريات بهدف تثقيف الشباب. مع ذلك، أنا سعيد بتدوينها. لعلها تقدم القليل للقارئ، لكنها جيدة للمؤلف: فلقد وجدت من الصعب أخذ نفسي بجدية.

يبدو الآن كلما حسبت أني تعلمت شيئاً عن الناس أو الحياة عموماً، كنت أبدل شكل جهلي الثابت فقط، وهو ما يدعوه الفلاسفة الرحماء طبيعة المعرفة. لكن الحديث عن بحثي عن السعادة في الحب فقط: بعيداً عن الوقت الذي كنت فيه تحت رحمة الفتيات المراهقات، لم أكن أعظم بؤساً مع النساء كما كنت عندما كنت أعرف كل الدوافع وأتخذ كل متطلبات حياة العزوبية الخالية من الهموم. عندما عدت من بحيرة كوشيشنغ إلى تورنتو،

انتقلت إلى شقة عصرية أثثتها بسرير ضخم، كتب، مطبوعات جهاز ستيريو وواحد من مغاسل الحمامات القليلة في أمريكا الشمالية. في وقت لاحق اشتريت سيارة رياضية. لم أملك مالاً كثيراً، لكن وظيفتي في الجامعة وفرت لي إمكانية الاستدانة الكبيرة من البنوك. في أمريكا الشمالية يعتبر التجار السياسيون الفاسدون، والموظفون الحكوميون والأكاديميون أفضل الزبائن، لأن وظائفهم تكون مكفولة بضمانة مدى الحياة. كنت أتحلى بمظهر عادي وفي السن الملائم: تكون النساء محايدات مع الرجال الذين في نهاية العشرينات، خاصة إذا كان عندهم حمام لاتيني ومغرمون بالنساء وكل ما يتعلق بهن.

كما أصبحت خبيراً في التعرف على النساء غير الصالحات لي، والمفاجئات غير السارة من تلك النوعية التي وصفتها سابقاً نادرة الحدوث. الآن صرت غير محظوظ مع النساء اللاتي كن محبوبات ومحبات.

مشكلتي كانت أنهن عديدات. أحببتهن بومضة عين، بلمحة صدر جيد الاستدارة (أو صغير مدبب)، بصوت أجش أو لأسباب أقل بداهة كوني في عجلة من أمري لأحلل. حيث أني ملكت بيتاً خاصاً بي وساعات عمل غير منتظمة، صار بوسعي أخيراً تحقيق أحلام طفولتي والتمتع بعدد من العلاقات الغرامية في آن واحد.

كان الوقت مناسباً ليس لي فقط، بل لعشيقاتي أيضاً. أصبح مستوى المعيشة العالي جزءاً من الجو. عندما وصلت تورنتو، كان بإمكاني السير في الشوارع الرئيسة في المدينة عند مساء يوم السبت دون أن أرى شخصاً واحداً سوى حفنة من السكارى. والخطوط

المستقيمة من الصناديق البشعة التي تدعى شوارع والعديد من لوحات الإعلان والنيون التي تظهرها بوضوح.

بدا أن الناس غير مهتمين إلا بشراء وبيع الضروريات الأساسية. يقضون أوقات فراغهم في مشاهدة التلفاز في حجر ترفيههم الكائنة تحت الأرض، يجلسون حول مواقد الشواء في حدائق منازلهم الخلفية، أو يقودون سيارتهم الجديدة متسكعين. يبدو أنهم خائفون من الخروج بعيداً عن الأشياء التي ابتاعوها مؤخراً، أو الرفاق الذين ساعدوهم على اختيار البيت، الأثاث، العربة. كان عالماً متزمتاً، لكن لحسن الحظ كان بإمكاني الحصول على لمحة ضئيلة فقط منها. اعتاد الناس على مستوى معيشتهم وفجأة أصبحوا مهتمين بالحياة. شيدت بنايات، رممت شوارع كاملة ببيوت قديمة وتحولت إلى محلات ملابس غريبة، معارض فنية، مكتبات، ومقاهي رصيف، وفي الأمسيات الدافئة يتجول عبرها عديد من الناس، بحيث صارت تستغرقني ربع ساعة لقطع شارع واحد. ارتفعت نسبة الطلاق ارتفاعاً كبيراً، وكذلك نوادي القيادة، الهيئات النسائية لمساعدة الفنون، جمعيات نقاش الكتب العظيمة والمنظمات الأخرى التي يمكن أن تقدم عذراً لزوجة عندما تشعر باتخاذ عشيق. هذه هي الظاهرة التي أصبحت تعرف بالثورة الجنسية في أمريكا الشمالية، وأنا عقدت العزم على الاستفادة منها بأكبر قدر ممكن.

كانت النتيجة مثل القيادة بعربة سريعة في أرض شاسعة جميلة: كان عندي انطباع حول كل التلال والوديان المثيرة، التعرجات والألوان، لكني كنت أتحرك بسرعة هائلة فلم أتمكن من الحصول على رؤية جيدة. كثيراً ما ندمت على عدم معرفة عشيقاتي بشكل

أفضل - رغم ألمي المعتبر في منعهن من معرفتي بشكل أفضل أيضاً. اعتادت النساء على ترك قميص نوم، حقيبة زينة، زوج من جراب النايلون في شقة صديقهن. الفتيات الاسكتلنديات الكنديات الصامدات تركن حتى الحاجب الحاجز المانع للحمل. كان إخفاء حاجيات واحدة عن عيون الأخرى صعباً ومحطماً للأعصاب - علاوة على مشاكل التوقيت والارتباك في معرفة هويتهن والكذب الدائم. ولم أكن دوماً ناجحاً: كانت هناك الزلات والانفعالات العاطفية. مسكت مرة لفشلي وعدم نجاحي في تفسير لماذا وضعت مانعاً للحمل في صندوق حذاء قديم، تحت كومة من الملابس المعدة للغسيل. تذكرت إخفاءه بنجاح لكني نسيت وضعه ثانية في خزانة الحمام قبل زيارة صاحبته التالية. أصبحت عصبياً غير مرتاح، دمار جسدي وذهني، غير قادر على الاستمتاع بوقتي، دع عنك السعادة. مع ذلك لم أقدر على التوقف. فقبل كل شيء، ألم أكن محظوظاً لأني أستطيع مضاجعة كل النساء اللاتي رغبت فيهن تقريباً؟ كنت أحسد نفسي في حفرة بؤسي. وجدت نفسي أكثر وأكثر أنجذب للنساء اللاتي ظلمتهن الحياة.

هكذا اجتمعت مع آن ماكدونالد مرة ثانية. لم أكن قد قابلتها منذ ما ينوف على سنة، عندما رأيتها بعد ظهر أحد الأيام جالسة على بعد بضع طاولات مني في مقهى هنغاري حديث الافتتاح. ابتسمنا وأشرنا لبعضنا وعند مغادرتها توقفت قربي.

«كيف حالك؟».

«كيف حالك؟».

لم يدر أي منا ما يقوله بعد ذلك. طلبت منها الجلوس وشرب كوب آخر من الاكسبرسو، إذا لم تكن في عجلة من أمرها.

«أحب ذلك» قالت بصوت متكلف «عندي كثير من الوقت هذه الأيام» كان ذلك في أواخر شهر نوفمبر وكانت ترتدي ثوباً من المخمل الأسود يناسب تماماً قوامها الكامل الاستدارة وبشرتها الوردية الفاتحة. «أحب هذا المقهى الهنغاري» قالت وهي تهم بالجلوس «من الرائع وجود أمكنة كهذه في تورنتو القديمة فاسدة الهواء» ناقشنا لفترة التغيرات التي جلبها المهاجرون الأوروبيون إلى المدينة وبطبيعة الحال اعتبرت ذلك في صالحي تماماً.

«آسف لأننا لم نملك الوقت الكافي لنتعرف على بعضنا في كوشيشنغ» قالت أخيراً.

«حسبت أن الوقت الذي ملكناه كان أكثر من كاف لك».

«نعم، لابد أنك تفكر أني تصرفت كبلهاء. كما تبين، لم يكن جاي يكترث كثيراً بما أفعل»

«لماذا ما حدث؟»

«أه، إنها قصة طويلة. الآن يدعي أني أجعله يشعر بأنه عجوز وغير جذاب. لذا غوى سكرتيراته. لا أحفل بذلك كثيراً، لكنه يصر على إخباري كل التفاصيل. يتملكني انطباع بأنه يتوقع أن أصفق له».

ذلك لأنك تحاولين دوماً أن تكوني أذكى، فكرت في سري.

«حسناً، هذا يعني أن رأيك لا يزال الأهم بالنسبة له. ذلك يعني أنه لا يزال يحبك».

«أشك في ذلك. لكني لم أعد في الواقع قلقة على زواجي. لقد قررت أن أستمتع بالحياة» نظرت إلي نظرات واعدة، لكني كنت

على موعد، ولم أكن لأفوته هذه المرة. تكلمنا أكثر عن الطقس في تورنتو، وافترقنا كأحباء. أعداء قدامى، أصدقاء جدد.

في الشهور القادمة، سمعت كثيراً من القصص حول علاقات آن ماكدونالد الغرامية. أحياناً أخبرتني عنها بنفسها في لقاءاتنا العرضية. كان هناك توازن حسي في شخصيتها، فلقد ملكت الثقة الحزينة لامرأة عندها عدد من العشاق لتعتني بهم. حين تبادلنا الثقة، أخبرتها عن مشكلتي في الحصول على نساء عديدات.

«أعرف ذلك، فأنا نفسي كذلك» قالت متنهدة.

«أنت التي أنا بحاجة إليها حقاً. أنت تفهمينني ـ معك ليس علي التظاهر»

«سيكون ذلك جيداً» قالت مذعنة بكآبة، مادة يدها لتضغط على يدي «لكن لنكن عمليين، أندي ـ سنقوم بجمع مشاكلنا فقط».

عبرت عن رفضها بمثل ذلك الندم الرقيق بحيث أني أدركت لاحقاً أنها رفضتني. أصبحت ربة البيت الساخطة سيدة مجربة، ولم أستطع عدم الشعور بأنها تركت انطباعاً جيداً. بدأت أفكر بها، متمنياً أن تتصل بي، متسائلاً بحسد عن الرجال في قصصها. هل تكلمت معي لنفس السبب الذي أخبرها زوجها عن مآثره؟ هل كانت تحاول إزعاجي أم أنها تريد مشاهدين؟ تدريجياً اقتنعت، ليس دون ريبة، أني أحبها.

لذلك، حاولت إغواء آن ماكدونالد كلما قابلتها، لكني لم أنجح حتى شتاء ١٩٦٢. حاصرتها في إحدى الحفلات، بينما كان زوجها مشغولاً في حجرة أخرى ولم يكن أحد من عشاقها في

الجوار. كانت ترتدي ثوب سهرة مفتوح الصدر، وأنا حصرتها فعلياً في ركن وملت بقوة عليها بحيث صار بإمكاني أن أحسّ بدفء صدرها عبر بزة السهرة التي أرتديها.

«رأيت أسوأ ما فيك» قلت معترضاً «ها ذا أنت، امرأة حكيمة جميلة، وعلي أن أكتفي بذكريات امرأة سخيفة في بحيرة كوشيشنغ. ليس في هذا عدلاً. علينا تصحيح ذلك. علاوة، أظن أني أحبك».

ومضت عينا آن بشيء كثير الشبه بلمعان بريق أكثر من الوميض القديم المعهود، لكن صوتها كان يحمل لمسة أمومة وراحة. «أنت ولد عنيد، أليس كذلك؟».

«لا أهتم لكوني ولداً. في الواقع، كلما تقدمت في السن، كلما قل اعتراضي على وصفي بالولد. أريد أن أريح رأسي على صدرك».

«أنت طفل عزيز - عزيز».

لم أحب هذا، الطفل كان بالغ الصغر. تركتها تهيم بعيداً.

بعد منتصف الليل، حين لم يعد الضيوف يكترثون بالاختفاء في الزوايا المظلمة من أجل عناقهم المختلس لكن الشهواني وكنا جميعاً سكارى متهورين من الإفراط من شرب القليل، ذهبت للبحث عن آن ماكدونالد. انتظرت بعناد، وقد اكتشفتها بين ذراعي مضيفنا الطويل الفاسق، حتى ظهور مضيفتنا الغيورة.

عندها سرت آن لمشاهدتي. «لا أدري أين جاي، إذا لم يكن عندك ما تفعله يمكنك إيصالي إلى بيتي» قالت خجلة.

بوصولنا الشارع كانت قد وافقت الذهاب إلى بيتي. ملأت

عربتي الصغيرة بعبق عطرها وبلطف ضربت خلف رقبتي ونحن ننطلق في العربة في صمت. كنت منتشياً ومرتاحاً، حالماً بمستقبلنا السعيد. لكي يكون هناك هرب من كلانا، سأكون عبد آن وأقضي معها كل لحظة يمكن أن تجدها بعيداً عن زوجها وطفلتيها.

لابد أن أفكار آن كانت مختلفة، لأنها سحبت يدها فجأة عن رقبتي قائلة بقلق ربما من جراء ذكرى تجربتنا غير السعيدة «اسمع، لا أعرف ما يكفي عنك، لم نمارس الحب بشكل حقيقي، كما تعلم. أتمنى أن لا تكون من هؤلاء الرجال الذين يدلفون ويخرجون هكذا». الفكرة في حد ذاتها جعلتها محاربة شرسة. «بصراحة عندي من العشاق ما يكفي الآن، ولست بحاجة إلى مناوشة صغيرة، حتى من أجل ذكرى الماضي. إذا أردت أي شيء، عليك أن تعدني بأداء حسن».

تعجبت كيف تحدث الحوادث الأخرى. انطلقت عبر ضوء أحمر وخرجت فوق رصيف الشارع، موقفاً العربة قبل أن تضرب عمود كهرباء. «اسمع، إذا أشركتني في حادث، وسمعت بناتي عنا سأقتلك. ألا تعرف القيادة؟» قالت بشراسة.

كانت الساعة قرابة الواحدة صباحاً وكنا في شارع سكني. لم يرنا أحد. رجعت بالعربة بحذر عن الرصيف ولوهلة فكرت بالعودة بها إلى الحفلة. لكن فكرة عدم إنهاء المهمة مع المرأة نفسها مرتين كان أمراً لا يطاق. «لا تهتمي، ستحصلين على ليلة لن تنسيها أبداً». قلت لأهيجها.

لم ينبس أحدنا بكلمة حتى أصبحنا داخل شقتي. «آسفة» قالت آن متجهمة وأنا أساعدها في خلع معطفها «لم أقصد إزعاجك.

كل ما في الأمر أن المرأة دوماً في حالة خسارة. لا تعرف قط ما توافق عليه».

«في الواقع، كنت أخطط لجعلك تحبيني» قلت مشاكساً.

«حسناً، لا يزال الوقت مبكراً» مالت بنفسها علي، وضعت يدي على عجزها، كما في السابق تماماً. «ولا ينبغي علينا الاستلقاء على قطعة من العشب الخشن في الغابة.» ذكرتني، وببطء راحت تحرك عجزها لتسر يدي. حاولت أن أخلع ملابسها، لكنها لم تبغ أي مساعدة. إذا أرادت آن أداءً، عليها أن تكون جاهزة لتقيم واحداً بنفسها، فقامت بعرض ستربتيز لي، ملقية بملابسها بعيداً برشاقة.

مع ذلك عندما تحركت فوقها في الفراش، أبعدتني. «لا أحبه من فوق» قالت بصوت مقنع خفيف «افعله من الجانب، من فضلك».

فترت همتي في لحظة. كسباً للوقت، رحت أداعبها.

بعد بضع محاولات يائسة، أذعنت آن لهزيمتنا. «لا تهتم، لقد فقدت دافعي أيضاً، لذا لا ينبغي عليك القلق. كل ما في الأمر أننا غير محظوظين معاً، على ما أظن.» وقفزت من الفراش لتجمع حاجياتها، تاركة عصبيتها تظهر في البحث عن صدريتها التي بدا أنها اختفت. أخيراً رأيتها تحت السرير، وزحفت في الأسفل لأستردها لها.

«شكراً، أنت رائع» قالت:

انسحبت إلى الحمام مع ملابسها وحقيبة يدها. لم أخطط للحاق بها، لكن بعد نحو عشرين دقيقة ذهبت لأرى إن كانت

على ما يرام. وجدتها وقد ارتدت كامل ملابسها، أنيقة مرتبة، تسرح رموشها. عندما رأت انعكاس وجهي المذنب في المرأة، ابتسمت لي بلامبالاة حنونة. ثم ألقت نظرة أخيرة متأملة على نفسها.

«أه، حسناً، ذروة واحدة زائدة أو ناقصة غير ذي أهمية حقاً، أليس كذلك؟» قالت مستخلصة.

أعتقد أن حقيقة وإهانة تلك اللحظة حددت النهاية المتأخرة لشبابي. أردت أن أذهب إلى بلد جديد. إلى مكان هادئ بعيد. بعد بضعة أيام عندما سمعت عن افتتاح قسم للفلسفة في جامعة ميتشغان، تقدمت للوظيفة. لم تكن آن أربور هادئة كما فكرت، ولم أكن مستعداً بعد للجلوس والتقدم في السن. لكن مغامرات رجل متوسط العمر قصة أخرى.

في مديح النساء الأكبر سناً

«رواية نادرة...»

نيويورك بوس

«أنيقة، دقيقة، متناسقة وتتحلى بأسلوب وحضور وندرة...»

صانداي تلجغراف

«يكتب المؤلف عن أعظم فترات التاريخ الأوروبي مأساوية، حيث بدت النساء الملجأ الوحيد للرجل وسلوانه وشافيات جروحه»

ليبرتي

«قصة نادرة، ناعمة، مسرة ومسلية تستحوذ على القارئ»

جورجيو أمادو

«رائعة، مضحكة شبقية بأناقة... تتحلى بصفات الخلود الحقيقية»

ابنش - بندن

«واحدة من أعظم روايات القرن»

ناشيونال تايمز - سدني